

محمد أحمد باشميل
من معارك الإسلام الفاصلة
٣
غزوة الأحزاب
دار الفكر

غزوة الأحزاب



محمد أحمد باشميل

من معارك الإسلام الفاصلة

٣



غزوة الأحزاب

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيد الأبرار ، نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار وصحابته الذين هاجروا الى الله والذين آووا ونصروا ، رهبان الليل وفرسان النهار .

وبعد ، لقد منّ الله تعالى علينا فأصدرنا (بعونه وتوفيقه) كتابنا الاول (غزوة بدر الكبرى) وكتابنا الثاني (غزوة أُحد) ، وهما حلقتان من سلسلة (معارك الاسلام الفاصلة) التي اعتزمنا بعون الله تعالى ، اصدارهما تباعاً .

ويسرني اليوم أن أتقدم الى القراء الكرام بهذا السّفر الجديد (غزوة الاحزاب) ، وهو الكتاب الثالث من هذه السلسلة ، والذي سيتلوه (قريباً إن شاء الله) الكتاب الرابع ، عن معركة تصفية العنصر اليهودي وتخليص الجزيرة العربية من شروره وآثامه ومؤامراته التي لم تنته إلاّ بضرب هذا العنصر الخبيث ضربة صاعقة في أوكاره (في خيبر وبني قريظة في المدينة) .

١

إن هذا الكتاب كسابقيه (غزوة بدر الكبرى) و (غزوة أُحُد) لن يقتصر في محتواه على تفصيل حوادث معركة الاحزاب فقط، بل سيحتوي على ملَخّص دقيق لكل الأحداث السياسية والعسكرية التي عاشها المسلمون ما بين (غزوتي أُحد والأحزاب)

ومن ذلك سبع حركات عسكرية سريعة قام بها الجيش الاسلامي (أكثرها بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه) لتعزيز مركز المسلمين وتوطيد هيبتهم التي اهتزّ مركزها في النفوس وأخذ الأعراب يطمعون في الإغارة على المدينة، نتيجة الانتكاسة العسكرية التي أصابت المسلمين في معركة أُحد.

٢

سيتضح للقارىء الكريم (من تتبع أحداث غزوة الأحزاب هذه، ودراسة تفاصيل أسبابها ومسبباتها وبواعثها وغاياتها) أن هذه الغزوة الخطيرة المرعبة، ليست في (حقيقتها) إلاّ حملة يهودية صرفة، قد موّنت بأموال إسرائيلية، وجاءت وفق تصميمات دقيقة مدروسة محكمة، وضعها مفكرون إسرائيليون تطفح نفوسهم بالحقد القاتل على الاسلام ونبي الاسلام.

فهذه الغزوة التاريخية الخطيرة ، وإن كانت (في الشكل والمظهر) تحمل الطابع العربي (القرشي والغطفاني) إلاّ أنها — في أهدافها العميقة ومراميها البعيدة وغاياتها الخبيثة — هي غزوة يهودية (لحماً ودماً) .

فكل الأدلة القاطعة، قد تقاطرت على أن هذه الغزوة — عندما وُجهت لإبادة المسلمين وتهديم كيانهم من الأساس — لم يكن لها من محرّكٍ حقيقي فعّال — منذ بدأت حتى فشلت — سوى اليهود واليهود فقط .

٣

لقد كان حرص اليهود على الإطاحة بالمسلمين والقضاء على الاسلام ذاته ، قديماً ، قِدَم الصراع بين اليهودية والاسلام ، هذا الصراع الذي كان قد بدأ منذ اللحظة التي بزغت فيها شمس الاسلام .

ولكن هذا الصراع الذي لم يتخذ طابع الوضوح والعنف ، إلاّ عندما وصل النبي (ص) الى المدينة وأخذ حلفاء اليهود (الأوس والخزرج) يتسابقون الى الدخول في هذا الدين بسرعة أذهلت اليهود وأقلقت بالهم وأقضّت مضاجعهم .

لأنهم بمجرد وصول النبي (ص) الى يثرب شعروا باهتزاز سلطانهم الفكري والسياسي والمالي الذي به كانوا يسيطرون

على سكان يثرب وما جاورها منذ قرون عديدة ، وذلك لأن هؤلاء العرب (سواء في يثرب أو ما جاورها) كانوا (في الجاهلية) دون اليهود فيما يختص بالثقافة ومعرفة الأديان ، والخبرة الاقتصادية وأساليب جمع المال وكنزه ، فكان اليهود (لسذاجة هؤلاء الأعراب) يتحكمون فيهم اقتصادياً ، عن طريق قروض الربا ، التي هي دعائم اقتصاد اليهود في كل عصر وزمان ، بالاضافة الى أن هؤلاء اليهود كانوا (قبل الاسلام) مرجعاً لهؤلاء الأعراب في كثير من استفساراتهم الروحية ، فكان ذلك مصدر سلطانهم على المنطقة .

ولذلك (وحسداً للنبي صلى الله عليه وسلم) قاموا بعدة محاولات لتنفير العرب عن الدين الجديد بشتى وسائل الكذب والتشكيك والارجاف ، وكانت هذه محاولاتهم الأولى لمقاومة دعوة الاسلام .

ولكنهم فشلوا في هذه المحاولة فشلاً ذريعاً ، حيث لم يمر على قدوم صاحب الرسالة العظمى محمد (ص) إلى يثرب ، ستة أشهر حتى أصبح أكثرية عرب هذه المنطقة يدينون بالاسلام ، ويبذلون المهج والأرواح في سبيل حمايته ونصرته ؛ الأمر الذي جعل اليهود يلجأون الى العنف .

وفي خلال أربع سنوات قام اليهود للتخلص من الاسلام وحامل (رسالته) بعدة محاولات جريئة يائسة ، ولكن هـــذه المحاولات كلها فشلت وعادت على هؤلاء اليهود بنتائج عكسية

حيث كانت هذه المحاولات العدوانية سبباً في نفي قبيلتين كبيرتين من هؤلاء اليهود عن المدينة (هما بنو قينقاع وبنو النضير)(١).

وكانت آخر محاولة عدوانية خطيرة قام بها اليهود هي محاولة بني النضير اغتيال النبي (ص) وهو آمن في ديارهم، الأمر الذي أدّى الى ضرب الحصار عليهم وإجلائهم عن يثرب وذلك قبل معركة الأحزاب بستة أشهر فقط، ولقد نزل بنو النضير مدينة خيبر التي كانت – منذ القدم – مركزاً للتجمع اليهودي.

٤

لقد كان يهود بني النضير من أغنى أغنياء اليهود، وكانوا يتحكمون في اقتصاد منطقة يثرب وما جاورها تحكماً كاملاً، وكان زعماؤهم – بالاضافة الى هذا – يمتازون بالدهاء والمكر والحقد العارم على النبي (ص) خاصة ٢.

---

(١) سيأتي تفصيل حادثة إجلاء بني النضير في هذا الكتاب إن شاء الله.

(٢) روى ابن إسحاق في السيرة عن صفية (أم المؤمنين) وهي بنت حيي بن أخطب كبير زعماء يهود بني النضير، قالت.. كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت.. فلما قدم رسول الله (ص) المدينة، ونزل (قبا) في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب، وعمي ياسر بن أخطب مغلسين، قالت فلم يرجعا، حتى كانا مع غروب الشمس، قالت.. فأتيا كالين كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينا.

ولم يكن النبي (ص) شديداً في معاملتهم عندما نفاهم من المدينة بعد ضرب الحصار عليهم ، فقد سمح لهم بأن ينقلوا معهم كل ما يقدرون على حمله من الأموال ، ومن المعروف عن اليهود منذ القدم أن أكثر ما يكنزونه هو الذهب والفضة .

ولهذا فقد أوقر هؤلاء اليهود عشرات الجمال وحملوا معهم كل ما يملكون من ذهب وفضة وهو شيء عظيم ، حتى إنّ أحد زعمائهم (وهو سلاّم بن أبي الحُقَيق) حمل معه عند الجلاء خزينة كبيرة (جلد ثور) مملوءة ذهباً وفضة ، وكان يضرب على هذه الخزينة قائلاً (وكأنه يهدد المسلمين بالغزو) : « هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها » .

ولقد حاول اليهود (فعلاً) — عن طريق سلطانهم المالي — أن يخفضوا الأرض ويرفعوها ، فلم تمض على إقامتهم

= قالت فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلي واحد منهما، مع ما بهما من الغم ، قالت .. فسمعت عمي ياسر يقول لأبي حيي بن أخطب : أهو ، هو ؟؟. (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) .

قال .. نعم والله .

قال .. أتعرفه وتثبته ؟؟. أي مما تجد من صفاته في التوراة ؟.

قال .. نعم .

قال .. فما في نفسك منه ؟؟.

قال : عداوته (والله) ما بقيت

ومن خلال هذا الحديث الذي دار بين زعيمي بني النضير يتضح القارىء مدى البغض الشديد والحقد العارم الذي ينطوي عليه هؤلاء اليهود للنبي (ص) ومدى تصميمهم على التخلص منه مهما كانت الوسائل التي يكون بها هذا التخلص =

في منفاهم الجديد (خيبر) ستة أشهر حتى خرجوا بمخطط جهنمي رهيب ، يهدفون من وراء تنفيذه الى سحق المسلمين في المدينة سحقاً كاملاً ليستعيد بنو اسرائيل (من جديد) سيطرتهم على منطقة يثرب .

فقد رسم اليهود في (خيبر للتخلص من المسلمين في يثرب) مشروع غزو كبير ، تقوم به قوة ضاربة متحدة من أقوى القبائل العربية المعادية للاسلام (وخاصة قريشاً وغطفان) .

ولتحقيق هذا المشروع الخطير التي رسمت خطوطه في (خيبر) قام زعماء اليهود وعلى رأسهم (حُيَيّ بن أخطب سيد بني النضير) بالسفر الى مختلف الأقاليم العربية في الجزيرة وطافوا على مختلف القبائل واجتمعوا بزعمائها شارحين لهم تفاصيل مشروعهم الكبير ومثيرين فيهم روح العداوة للمسلمين ، مستخدمين (في الدرجة الأولى سلاح المال ، سلاح اليهود الرئيسي في كل عصر وزمان) لاغراء زعماء الأعراب وشرائهم بالرشاوى ليستجيبوا لهم ، حتى إن هؤلاء اليهود جعلوا لقبائل غَطَفان النجدية جميع ما أنتجته (خيبر) من ثمار لسنة واحدة مقابل قبول هذه القبائل المشروع اليهودي والموافقة عليه .

ولقد نجح اليهود نجاحاً كبيراً في مهمتهم ، حيث وافقت قريش وغطفان (وهم أقوى وأعظم قبائل الجزيرة) على مشروع اليهود لغزو المدينة .

ولم يعد وفد خيبر من رحلته إلاً وهو على رأس عشرة آلاف مقاتل (أربعة آلاف من قريش وأحلافها ، وستة آلاف من غـَطفـَان وأحلافها) .

وقد أنزل اليهود هذه الجيوش العظيمة بأطراف المدينة .. وأحلام العودة الى المدينة والسيطرة عليها من جديد تستولي على كل مشاعرهم .

والحق أن عملية الغزو هذه كانت عملية منظمة مركزة مخيفة ، فكان كل شيء في الظاهر عند وصول جيوش الاحزاب يوحي بأن أيام الكيان الاسلامي كله أمام هذا الغزو الساحق المنظم الرهيب ، أصبحت معدودة .

ولم لا ؟... عشرة آلاف مقاتل من فرسان العرب وشجعانهم مجهزة أحسن تجهيز يساندها رأس المال اليهودي المخيف ويخطط لها الفكر الاسرائيلي الخبيث ، تـُطبـِقُ من كل ناحية على ألفِ مقاتل من المسلمين ، ينقصهم كل شيء الا الايمان بالله .. ولكن الله غالب على أمره .

٥

(إذ جاؤكم من فوقـِكم ومن أسفلَ منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتـُلِيَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا) (١) .

إن هذه الآية (وهي تصف أهوالَ غزوةِ الأحزاب) تعبّر في إيجاز أبلغ من التفصيل ـ أصدق تعبير عن مدى خطورة هذه الغزوة، ومدى ما تعرض له المسلمون فيها من عظيم الكرب وشدة القلق والخوف والفزع الذي بلغ بهم حد الاختناق.

لقد تحدث القرآن الكريم عن متاعب المسلمين في كثير من معارك التحرير الكبرى التي خاضها المسلمون بقيادة نبيهم الأعظم (ص) كبدر وأُحد وحنين، ولكنه لم يذكر أن حالة الجيش الاسلامي قد بلغت بهم من الكرب والشدة والرعب الى الدرجة التي تحدّث عنها في غزوة الأحزاب هذه.

فمعركة الأحزاب (إذن)، وإن لم يكن جرى فيها كبير قتال، هي (بشهادة القرآن الكريم) أخطر معركة في تاريخ الاسلام، وهي بحق معركة المصير.

إنها (فعلاً) لم تكن معركة فَصَلَ فيها الرمح والسيف، ولكنها كانت معركة أعصاب، كان السلاح الرئيسي الذي واجهه المسلمون فيها هو الخوف والرعب والقلق والارجاف والانقسام والغدر والخيانة في الساعات الحاسمة.

وفاعلية هذا السلاح تكون في المعارك (غالباً) أشد من فاعلية السيف والرمح والسهم.

لقد أجمع المعنيون بأخبار معارك الاسلام على ان المسلمين

لم يكونوا على درجة من الخوف والشدة والقلق والجزع والاضطراب ، مثلما كانوا عليه في غزوة الاحزاب .

قالت أم المؤمنين (أم سلمة – رضي الله عنها): « شهدت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مشاهد فيها قتال وخوف .. المريسيع وخيبر ، وكنا بالحديبية وفي الفتح وحنين ، لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله (ص) ولا أخوف عندنا من الخندق (تعني معركة الأحزاب) ، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة (الشجرة الصغيرة الملتف عليها الشجر من كل ناحية) وان قريظة لا نأمنها على الذراري ؛ فالمدينة تحرس حتى الصباح نسمع فيها تكبير المسلمين حتى يصبحوا خوفاً ، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا » اهـ .

٦

وبينما كان المسلمون في أمر عظيم من الكرب والشدة والامتحان اذا بحلفائهم يهود بني قريظة (الواقعة منازلهم خلف خطوط الجيش الاسلامي) يعلنون – في خسة ونذالة – نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين ، ويعلنون انضمامهم الى جيوش الأحزاب الغازية ، فيصبحون (وهم ما يقرب من ألف مقاتل) قوة ثانية مستعدة لضرب مؤخرة الجيش الاسلامي الصغير الذي لا يزيد عدده (في أصح التقديرات) على ألف مقاتل ، والذي قد وقف بأكمله

لمواجهة عشرة آلاف مقاتل تهدده أمواجها بالغرق في كل لحظة.

وهكذا تضاعف الكرب وازداد البلاء على المسلمين واستحكمت فصول المحنة، ولم يقف الكرب والبلاء والامتحان عند هذا الحد، بل أبى الله (لحكمة يعلمها) إلا أن يبلغ الكرب والبلاء والامتحان بجيش المدينة الذروة.

فقد ظهرت (في تلك الساعات الرهيبة الحاسمة) داخل الجيش الاسلامي نفسه قوة ثالثة أعلنت التمرد وظهر رجالها على حقيقتهم جبناء رعاديد يظهرون ما لا يبطنون، وهم المنافقون الذين أخذوا (في تلك اللحظات الحاسمة من ساعات المصير) ينسحبون من صفوف الجيش متذرعين بشتى الأعذار تاركين النبي (صلى الله عليه وسلم) والقلة من صفوة أصحابه في مهب العاصفة المدمّرة.

وهكذا هزّت المحن والبلايا جيش محمد، في غربالها بعنف من جديد فتساقط من ثقوب هذا الغربال مَنْ تساقط، من ضعاف الايمان.

ولم يبق بجانب النبي الأعظم (صلى الله عليه وسلم) في تلك الليالي الرهيبة المرعبة، إلاّ ذلك النوع من الرجال الذين عندما اهتز غربال المحن والبلايا كانوا أكبر من ثقوبه فضاقت عن أن تستوعبهم فيسقطوا، لأنهم كانوا (بايمانهم ويقينهم) أعظم من تلك المحن والخطوب وأكبر من تلك

البلايا والكروب . فقد ثبتت تلك الصفوة المختارة من صحابة محمد مع نبيها العظيم (صلى الله عليه وسلم) أمام تلك الخطوب والأهوال التي تنخلع لها القلوب ، وقاوموا ذلك الغزو الساحق الرهيب ، بصبرٍ وجَلَدٍ منقطع النظير حتى جاءهم النصر من عند الله فهزم الأحزاب ، وجنت قريظة الغادرة ثمار غدرها وخيانتها فدفعت ثمن هذا الغدر والخيانة غالياً ، رؤوس ثمانمائة من رجالها قطعت بأيدي المسلمين بعد محاكمة عادلة نزيهة .

إن النظر بتفهم ووعي وتبصر في مواقف اصحاب محمد (ص) من حوادث معركة الأحزاب الرهيبة مع التطبيق يمكن (بل يجب) أن يكون قاعدة عامة لكل العقائديين الذين يريدون (صادقين لا متاجرين) أن يتحملوا مسئولية الدعوة الى الله والنضال في سبيل إعلاء كلمة الله .

فبالنظر في تفاصيل حوادث هذه المعركة المثيرة سيرى شباب الاسلام العقائدي وكهوله الصادقون ، كيف يكون الثبات على الحق وكيف يكون النضال والتضحية والفداء . في سبيل حماية ورفع راية الدعوة الاسلامية التي كثر الضجيج (في زماننا هذا) باسمها ولكنه ضجيج كضجيج الرحى الذي يصم الآذان دون أن يرى الناس له طحنا .

فالى كل المناضلين الصادقين في سبيل البعث الاسلامي الصحيح (أينما كانوا ومن أي لون أو جنس كانوا) نتقدم

بهذا السّفر من تاريخ أولئك العظماء الأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقامت على قواعد جهادهم الحق ونضالهم الصادق أعظم وأعدل دولة عرفها التاريخ ، فعسى أن يستفيد المناضلون الأحفاد من درس تاريخ أولئك البُنَاة الأجداد ، والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

محمد احمد باشميل

مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية
شهر صفر ١٣٨٥ هـ – يونية ١٩٦٥ م

الفصل الأول

مجمل الأحداث العسكرية والسياسية
بين معركتي أحد والأحزاب

- ست حملات عسكرية يقوم بها النبي (ص) لتأديب الأعراب قبل غزوة الأحزاب .
- محاولة بني النضير اغتيال النبي (ص) .
- إجلاء هؤلاء اليهود عن المدينة .
- محاولة المنافقين إثارة الحرب الأهلية بين المسلمين .
- حديث الإفك .

الأثر السيء بعد معركة أحد

بالرغم من الهزة العنيفة التي تعرض لها المسلمون بعد انتكاستهم العسكرية في معركة أحد ، فإنهم ظلوا مسيطرين على الموقف سيطرة تامة .

لا سيما بعد الحركات العسكرية السريعة الناجحة التي قام بها جيش المدينة – بعد معركة أحد – .

إن أهم الأحداث السياسية – بالنسبة للمسلمين – بعد معركة أحد ، هي أن مركزهم في منطقـة يثرب خاصة والجزيرة العربية عامة ، قد تأثر تأثراً ملموساً كنتيجة حتمية لانتكاستهم العسكرية الموجعة في موقعة أُحد .

فقد انخفضت نسبة هيبتهم في نفوس القبائل العربيـة الباقية على الوثنية وفي نفوس اليهود والمنافقين الذين كانوا قد امتلأت نفوسهم رعباً وفزعاً من المسلمين بعد انتصارهم الساحق في معركة بدر الكبرى الشهيرة .

ولم تخف على المسلمين هذه الحقيقة المُرَّة ، فصار المسلمون يبذلون قصارى جهدهم (عسكرياً وسياسياً) ليثبتوا (عملياً) لهؤلاء الأعداء بأنهم مخطئون جداً ، اذ يظنون أن المسلمين – بعد معركة أحُد – من الضعف بحيث يقدرون على النيل منهم .

وليثبتوا لهم أنهم (أي المسلمين) قادرون على سحق كل من تحدّثه نفسه بالاعتداء عليهم قاموا بحركات عسكرية سريعة ناجحة أنزلوا فيها بالأعداء ضربات زلزلت معنوياتهم زلزالاً شديداً وجعلتهم يصححون مفاهيمهم الخاطئة عن مدى قوة المسلمين العسكرية وترابطهم السياسي والمعنوي ، وخاصة المعسكر القرشي واليهودي الذين شهدوا (قبل غيرهم) أول حركة عسكرية بارعة رائعة ناجحة قام بها المسلمون ليثبتوا للأعداء أن وجودهم العسكري والسياسي

والعقائدي لا يزال على ما كان عليه من القوة والمتانة ، وأن أحداث الانتكاسة في موقعة أُحد لم يكن لها أي تأثير على هذا الوجود .

حملة حمراء الأسد

وكانت هذه الحركة التي نعني هي حمْلة حمراء الأسد التي قام بها النبي (ص) صبيحة اليوم الذي دارت فيه معركة أحد ، فطارد جيش مكة الذي وصله خبر هذه الحملة وهو معسكر في فج الروحاء يعتزم الرجوع الى المدينة لاستئصال شأفة المسلمين ، فدبَّ الفزع في نفوس قادته لحركة المطاردة الجريئة هذه ، فلم يعدلوا عن الزحف على المدينة فحسب ، بل لقد انتابهم الخوف فجبنوا عن ملاقاة جيش المدينة الذي خرج لمطاردتهم والذي ظنوه قد تحطّم تحطيماً كاملاً في معركة أُحد .

فقد اجتمع قادة قريش في الرَّوحاء وتدارسوا الأمر فيما بينهم فقرروا مواصلة الانسحاب الى مكة بالرغم من علمهم بوجود جيش المدينة (الذي خرج لمطاردتهم) على بُعد عدة أميال منهم .

فانسحبوا الى مكة مفضلين عار الفرار على الاشتباك مع هذا الجيش المدني الحانق الذي كانوا على يقين بأنه (على صغره) سيكون إذا ما اصطدموا به كالإعصار الذي يحطم

كل ما يلاقي .

وهكذا نجح النبي (ص) في هذه الحملة العسكرية السريعة (حملة حمراء الأسد) نجاحاً باهراً فسجّل نصراً عسكرياً سريعاً عظيماً ، ظفر المسلمون على أثره بنصر سياسي أعظم في المحيط اليثربي ، خاصة ، وفي الجزيرة العربية عامة . حيث صحح هذا النصر النظرة الخاطئة التي كان اليهود والمنافقون ينظرونها الى الجيش الاسلامي بعد انتكاسته في معركة أحد .

فقد تأكد لدى اليهود والمنافقين في المدينة (خاصة) بعد نجاح المسلمين في حملة حمراء الأسد أن هؤلاء المسلمين هم من القوة والصلابة بحيث يستحيل على أية قوة — وخاصة في يثرب — القيام ضدهم بأي عمل عسكري مهما كان نوعه .

وهذا عكس ما كان يعتقد هؤلاء الأعداء ، ولهذا فإنهم أصيبوا بالدهشة والذهول عندما بلغهم أن جيش مكة — الذي ظنوه انتصر على المسلمين في أحد — قد نكل عن المعركة وفرّ هارباً أمام جيش المدينة الذي اعتقدوا أنه قد تحطم عند سفوح جبل أحد ، رأوا هذا الجيش يعود الى المدينة مرفوع الرأس ، ولسان حاله يقول لهؤلاء اليهود المتربصين ، من الأصلح لكم أن تلتزموا الهدوء فان أية حركة تأتي من ناحيتكم فان مصيرها لن يكون إلاّ السحق الكامل .

وفعلاً .. فان اليهود وأنصارهم السريين (المنافقين)

قد أعادوا النظر في مخططهم ولم يتسرعوا في تنفيذ هـذا المخطط فالتزموا الهدوء ، والسبب المباشر في ذلك كله هو نجاح النبي (ص) في حملة حمراء الاسد [1] الجريئة تلك الحملة التي أعادت للجيش الاسلامي هيبته وجعلته يعود سيداً للموقف في يثرب كما كان دون منازع ، بالرغم من الخسائر الباهظة التي تعرّض لها — في الرجال — في معركة أحد .

الحركات العسكرية ضد الأعراب

وبينما كان الرسول (ص) يوطد دعائم الأمن والاستقرار في منطقة يثرب كانت قبائل العرب الأخرى في منطقة الحجاز ونجد ترسم مخططاتها وتشرع في تجمعاتها للاغارة على المدينة وضرب المسلمين فيها ، مغتنمين فرصة أثر الضربة الموجعة التي نزلت بالمسلمين في معركة أحد ، والتي ظنها هؤلاء الأعراب ضربة قاتلة .

فقد طمع هؤلاء الأعراب الوثنيون في المسلمين وأخذ كل منهم يفكر في ضربهم ويُعِدّ العدة للاغارة عليهم وانتهاب أموالهم وسبي نسائهم وذراريهم .

---

(١) انظر تفاصيل حملة حمراء الاسد في كتابنا (غزوة أحد) ص ٢٤٤ وما بعدها .

نشاط الاستخبارات النبوية

ولم تكن الاستخبارات النبوية العسكرية غافلة عن هذا التفكير والتحرك ، فقد كان المسلمون يتوقعون أن يقوم الأعراب بتحركات عسكرية سريعة ضد المسلمين ، بعد الذي نزل بهم في معركة أحد .

ولذلك فقد نشطت استخبارات المدينة نشاطاً واسعاً في مجال مراقبة مناطق هؤلاء الأعراب لتكون على علم مسبق بأية حركة يعتزم هؤلاء الأعراب القيام بها ضد المدينة ، فتنقل هذه الاستخبارات كل ما يجدّ بهذا الصدد الى القيادة العليا في المدينة أولاً بأول .

فصارت القيادة في المدينة على علم تام بأية حركة يعتزم أحد من هؤلاء الاعراب القيام بها ضد المسلمين ، وقد ساعد نشاط استخبارات المدينة القيادة فيها على التيقظ والتحرك بسرعة لضرب أية قبيلة تنوي الهجوم على المدينة ، وذلك قبل أن تتم هذه القبيلة عمليات الحشد والتجهيز .

فقد سارع النبي (ص) الى القيام بعدة حركات عسكرية هجومية حاسمة وسريعة ، قادها بسرعة خاطفة الى منازل هؤلاء الأعراب ، فوضع بها حداً لأطماعهم وألقى بها عليهم دروساً عملية قاسية ، جعلتهم يصححون مفاهيمهم الخاطئة عن مدى قوة المسلمين العسكرية التي ظنوها قد انهارت نتيجة ما أصابهم في ملحمة أحد .

عدد الحملات العسكرية بين أحد والأحزاب

لقد كانت الحملات العسكرية التي حدثت ما بين معركتي (أحد والأحزاب) سبع حملات، كان المسلمون هم البادئين فيها بالهجوم.

ولما كان الأعراب (وخاصة أعراب نجد) هم أول المفكرين في الإغارة على المسلمين في المدينة وأكثر الناس جرأة وأسرع الى التجمع لتنفيذ ما كانوا يفكرون فيه، فان أكثر الحملات العسكرية التي جرّدتها المدينة قد وجهت ضد هؤلاء الأعراب.

فقد كانوا هدفاً لستٍ من هذه الحملات العسكرية التي قاد النبي (ص) بعضها بنفسه.

بينما لم يتعرض اليهود (قبل غزوة الأحزاب وبني قريظة) إلاّ لحملة عسكرية واحدة، وهي الحملة التي قام بها المسلمون ضد يهود بني النضير في ضواحي المدينة.

ولعل مما ساعد القيادة في المدينة على ضرب هؤلاء الأعراب والتنكيل بهم في ديارهم ووضْع حدٍ لأطماعهم بطريقة حاسمة، هو أنهم لم يكونوا عند تفكيرهم في الإغارة على المدينة جبهة واحدة.

لأن باعث تفكيرهم للاغارة على المسلمين لم يكن باعثاً عقائدياً أو سياسياً جاء نتيجة مخطط مدروس، وإنما كان

باعث ذلك التفكير هو الرغبة في السلب والنهب والسبي فحسب ثم العودة الى ديارهم ، كما هي العادة المتبعة لديهم في حروبهم منذ عشرات القرون .

فلم يكن هدفهم من الإغارة على المدينة احتلالها والتخلص من المسلمين نهائياً كما هو الحال عند اليهود ومشركي مكة الذين كانوا يحاربون المسلمين (وفق مخطات عقائدية وسياسية) ، كما حدث في غزوة الاحزاب التي خطط لها اليهود وحملوا بعض أعراب نجد على الاشتراك فيها عن طريق إغرائهم بالمال .

ولهذا فقد تمكن المسلمون (قبل معركة الأحزاب) من ضرب هذه القبائل وتشتيتها في مكان تجمعها ، كل قبيلة على انفراد في ست حملات عسكرية قام بها الجيش الاسلامي وهي :

١ – تأديب بني أسد ... (ذو الحجة سنة ثلاث للهجرة)

وأول حملة عسكرية تأديبية قام بها جيش المدينة ضد الأعراب هي دورية القتال التي بعث بها الرسول (ص) لضرب قبيلة بني أسد في منطقة نجد .

فقد تلقت القيادة في المدينة من استخباراتها العسكرية أن قبيلة بني أسد هذه قد أخذت في التحشد بقيادة المحارب

الشهير (طليحة بن خويلد (٢) وأخيه سلمة).

وأن هدف هذا التحشد هو الإغارة على المدينة، ولهذا سارع النبي (ص) الى تجهيز قوة من المهاجرين والأنصار قوامها مائة وخمسين راكباً، أعطى قيادتها لأبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي (٣).

وقد كان ضمن هذه القوة، أبو عبيدة بن الجرّاح وسعد بن أبي وقاص (٤) وغيرهم من كبار المهاجرين والأنصار،

---

(٢) قال في الاعلام .. هو طليحة بن خويلد الاسدي، من أسد بن خزيمة متنبىء، شجاع، من الفصحاء، يقال له طليحة الكذاب (لأنه ادعى النبوة)، كان من أشجع العرب، يعد بألف فارس –كما يقول النووي– قدم على النبى (ص) في وفد بني اسد، سنة ٩ هـ، وأسلموا، ولما رجعوا ارتد طليحة، وادعى النبوة في حياة رسول الله (ص) فوجه اليه ضرار بن الأزور، فضربه ضرار بالسيف يريد قتله، فنبا السيف، فشاع بين الناس أن السلاح لا يؤثر فيه، ومات النبي (ص) فكثر أتباع طليحة: من أسد، وغطفان، وطيء، وكان يقول: إن جبريل يأتيه، وتلا على الناس أسجاعا أمرهم فيها بترك السجود في الصلاة، وكانت رايته حمراء، وطمع في امتلاك المدينة فهاجمها بعض أشياعه فردهم أهلها، وغزاه ابو بكر، وسير اليه خالد بن الوليد، فانهزم طليحة الى بزاخة (بأرض نجد) وكان مقامه في سميراء (بين توز والحاجر– في طريق مكة)، وقاتله خالد، ففر الى الشام، ثم أسلم بعد أن أسلمت أسد وغطفان كافة ووفد على عمر، فبايعه وخرج الى العراق، فحسن بلاؤه في الفتوح «فشهد القادسية» واستشهد في معركة نهاوند بأرض فارس، هو وفارس اليمن (عمرو بن معدي كرب الزبيدي).

(٣) أبو سلمة، اسمه عبدالله بن عبدالأسد بن هلال المخزومي، أحد السابقين الأولين الى الاسلام وكان ممن شهد معركة بدر مع النبي (ص).

(٤) انظر ترجمتهما في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

وقد كانت هذه الحملة في شهر ذي الحجة سنة ثلاث من الهجرة ، أي بعد شهر واحد (تقريباً) من غزوة أحد.

وقد رسم الرسول (ص) لهذه الحملة -خطة أمر قائد الحملة أبا سلمة أن يسير عليها ، وأهم نقطة في الخطة هو الكتمان والسرعة وأخذ قبائل بني أسد على حين غِرّة وقبل أن يتجمعوا.

وقد جاء في المرسوم النبوي الذي عُيّن به القائد الأعلى أبا سلمة لقيادة الحملة ، قوله (ص) لأبي سلمة القائد .. سر حتى تنزل أرض بني أسد فأغِر عليهم قبل أن تَلاقى عليك جموعهم.

وفي حدود الخطة المرسومة تحرّكت قوات هذه الحملة في اتجاه ديار بني أسد بأرض نجد ، ونحو قَطَن - جبل لهم - بالذات ، وهو النقطة التي حدّدتها الخطة.

ولما كان الكتمان من لوازم هذه الدورية العسكرية صار القائد أبو سلمة يسير برجاله ليلاً وبأقصى سرعة ، ويكمن بهم نهاراً ، وكان يسلك برجاً له طريق غير مطروق حتى وصل منازل بني أسد.

وكان القصد من هذا هو إخفاء خبر هذه الحملة بحيث لا يعلم بها أحد ، حتى تصل ديار بني أسد.

ولقد نجحت هذه الحملة (فعلاً) في تحقيق أهدافها

حيث تمكن رجالها من مباغتة بني أسد في ديارهم وأخذِهم على حين غِرّة قبل أن يستكملوا تحشيدهم .

حيث فاجأتهم قوات المسلمين في ديارهم فجْراً وأخذت في تطويق منازلهم وهم على غير أهبة ، فأخذتهم الدهشة فلم يستطيعوا الثبات ، بل ولّوا الأدبار دون أية مقاومة .

فسيطرت قوات المسلمين على ديارهم ، وبعث أبو سلمة القائد مفرزتين من رجاله لمطاردة القوم فاستولى رجالها على عدد كبير من أغنام بني أسد وإبلهم .

كما تمكن رجال إحدى المفرزتين من أسر ثلاثة مماليك من رُعاة إبلهم ، أمّا بقية رجال القبيلة فقد تفرقوا منهزمين في بطون الشعاب ورؤوس الجبال .

وهكذا ، وبعد أن نجحت هذه الدورية في مهمتها وحققت أهدافها ، بتأديب بني أسد وضَرْبهم في منازلهم بتلك الصورة المباغتة التي ما كانوا يتصورونها ؛ عاد القائد أبو سلمة الى المدينة ظافراً .

وقد استغرقت العمليات العسكرية التي قامت بها هذه الدورية بضع عشرة ليلة ، وكان لنجاحها أكبر الأثر في نفوس القبائل المجاورة التي كانت تحدّث نفسها بالإغارة على المدينة ، لأن قبيلة بني أسد تُعْتَبر من أقوى القبائل النجدية وأشدها شكيمة ، فكان نجاح المسلمين في ضرب هذه القبيلة وتشتيت جموعها بتلك السرعة بمثابة إنذار حاسم

لمن تحدّثه نفسه بالقيام بما اعتزمت هذه القبيلة القيام بـــه من عدوان .

٢ــ سرية عبدالله بن أنيس(٥) (٢٥ المحرم سنة أربع من الهجرة)

وبعد عودة القائد أبو سلمة برجال دوريته ظافرين من ديار بني أسد بنجد مباشرة ، نقلت إستخبارات الجيش إلى القائد الأعلى الرسول (ص) أخباراً تفيد أن القائد الهُذَلي الشهير ، خالد بن سفيان قد جرّأه هو الآخر ما أصاب المسلمين في معركة أحد ، فطمع في الإغارة على المدينة بغية السلب والنهب ، وأنه أخذ يُعِد العُدة ويحشد أعراب تلك المنطقة (منطقة عُرَنَة) من قبائل هذيل وبني اللحيان وكلهم من قبائل الحجاز المجاورة لقبائل قريش .

الفتك بقائد الحشد الهذلي

فسارع الرسول (ص) إلى إرسال أحد أصحابه الى تلك الديار للاستطلاع والتأكد فيما إذا كانت المعلومات التي تلقاها صحيحة أم لا ، ثم أمره بقتل قائد الحشد هذا اذا ما تأكد من صحة الخبر ، لأن قتل هذا القائد سيوفر على جيش المدينة مهمة القيام بحملة عسكرية كاملة الى تلك الديار البعيدة .

---

(٥) هو عبدالله بن أنيس الجهني ابو يحيى ، حليف بني سلمة من الانصار ، من السابقين الى الاسلام ، شهد بيعة العقبة والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) وكان ممن صلى الى القبلتين ، توفاه الله بالشام سنة اربع وخمسين للهجرة .

وكان الرجل الذي وقع عليه الاختيار للقيام بهذه المهمة ، هو عبدالله بن أنيس الجهني ، وأعتقد أن من أهم أسباب هذا الاختيار هو أن عبدالله بن أنيس يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه (جُهَينة) . يضاف الى هذا أن عبدالله بن أنيس يعتبر من شجعان العرب .

فقد استدعاه النبي (ص) وأمره بالتوجه الى ديار هُذَيل والفتك بقائدها خالد بن سفيان بأية وسيلة كانت ، ولما كان ابن انيس لا يعرف خالد بن سفيان شخصياً ، طلب من النبي (ص) — عندما تبلغ منه الأمر بالتوجه — أن يصف له خالداً قائلاً : « صفه لي يا رسول الله » .

فوصفه (ص) له بقوله .. إذا رأيته هِبْتَه وفَرَقْتَ(٦) منه وذكرت الشيطان ، قال عبدالله : وكنت لا أهاب الرجال .

وكجزء من المخطط الذي رسمه ابن أنيس لانجاح مهمته استأذن النبي (ص) في التنكر وأن يسمح له بأن يكذب في حدود إكمال مهمته إذا ما اقتضى الأمر ذلك ، فسمح له ، والكذب على العدو المحارب لايقاعه والتغرير به مباح في الاسلام .

سار عبدالله بن أنيس على عجل قاصداً مكان التجمع في عُرنَة من ديار هُذَيل ، ولما وصل الى تلك الديار وجد الخبر صحيحاً .

---

(٦) فرق — بفتح اوله وثانيه — خاف .

استدراج قائد هزيل لقتله

وهنا أخذ يحتال لتنفيذ مهمته ، فعندما وصل الى تلك الديار انتسب الى قبيلة خزاعة زيادة في التمويه على العدو .

وما زال يتحيّن الفرص حتّى التقى بقائد الحشد الموكل اليه قتله ، وعندما سأله خالد .. من الرجل ؟ أجابه بقوله .. رجل من غزاعة ، سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك ، فأكّد له خالد بن سفيان ذلك قائلاً .. أجل إني لأجمع له ، ورحّب بانضمامه الى الحشد .

ولقد وجد إبن أنيس خالداً كما وصفه رسول الله (ص) من حيث الهيبة ، وخاف منه بالفعل ، ولقد تحدث عبدالله بن أنيس عن هيبة الرجل وقوة شخصيته ، حيث قال .. فعرفته بنعت رسول الله (ص) ، وهبْته فرأيتني أقطر (أي من الخوف) فقلت : صدق الله ورسوله .

ولما اطمأن خالد بن سفيان الى عبدالله بن أنيس ، أخذ الأخير يماشيه ويتحدث اليه بأحاديث استحلاها منه ، وقد استدرجه حتّى انفرد به بعيداً عن مكان التجمع ، ولما رجع عنه حرسه الخاص من أصحابه وبقي منفرداً حمل عليه عبدالله بن أنيس وعاجله بضربة من سيفه أودت بحياته في الحال ، ثم انصرف راجعاً الى المدينة ، ولئلا يتمكن أصحاب القائد الهُذَلي من العثور على قاتله ابن أنيس اختفى في أحد الغيران في الجبل ، ولقد جدّ الهُذَليون في طلب ابن أنيس

ولكنهم فشلوا في العثور عليه .

قال عبدالله بن أنيس .. يصف قتله للقائد خالد بن سفيان .. حتى إذا هدأ الناس وناموا ، اغتررته فقتلته وأخذت رأسه ثم دخلت غاراً في الجبل ، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً فانصرفوا راجعين ، ثم خرجت فكنت أسير بالليل وأتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة فوجدت رسول الله (ص) في المسجد فلما رآني قال .. أفلح الوجه ، قلت .. أفلح وجهك يا رسول الله ، فوضعت رأسه بين يديه وأخبرته خبري(٧). وقد استغرقت هذه العملية ثماني عشرة ليلة .

وبهذا العمل وفّر الفدائي الجُهَني ، على المسلمين مشقة القيام بحملة عسكرية كاملة لتأديب تلك القبائل ، فقد انهارت عزائم قبائل هُذَيل بقتل قائدها وزعيمها ، وتفرّقت جموعها المحتشدة ، لأنها رأت أن لا فائدة من غزو المسلمين ، وهكذا قام الفدائي البطل عبدالله بن أنيس مقام جيش بأكمله .

فاجعة بئر معونة ... (صفر سنة أربع من الهجرة)

وفي شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة ، ولمّا يمض على نكسة (أُحد) المريعة خمسة وأربعون يوماً ، نزلت بالمعسكر الاسلامي فاجعة مروّعة فقَدَ المسلمون فيها مِثل العدد الذي فقدوه من رجالهم في غزوة أُحد ، فقد قُتِل منهم

(٧) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٥١ .

غدراً في ديار نجد سبعون رجلاً من خيرة صحابة محمد (ص) .

وتفصيل ذلك ، أنه وَفَدَ على رسول الله (ص) أحد أعيان بني عامر وهو الفارس الشهير أبو براء عامر بن مالك (٨) بن جعفر الملقّب (بملاعب الاسنة) ، فعرض عليه النبي (ص) الاسلام فلم يسلم ولكنه لم يبعد من الاسلام وذلك أنه اقترح على النبي (ص) أن يرسل وفداً من أصحابه الى أرض نجد يدعو أهلها الى الاسلام حيث قال .. يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك .

فراقت الفكرة للرسول (ص) إلا أنه أبدى تخوّفه من غدر أهل نجد قائلاً .. إني أخاف عليهم أهل نجد ، فأبدى ملاعب الاسنة استعداده لأن يكون الوفد النبوي في جواره قائلاً .. أنا لهم جار فابعثهم فليدعو الناس الى أمرك .

فشكّل النبي (ع) وفداً من صحابته ومن الأنصار خاصة ، وكلهم من الشباب ، برئاسة المنذر بن عمرو الأنصاري .

ومن المؤلم الذي جعل خسارة المعسكر الاسلامي تبلغ غايتها في الجسامة هو أن وفد الدعوة هذا كان مؤلفاً من

---

(٨) هو أبو براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري ، من فرسان العرب المشهورين ، وقد اختلف المؤرخون في اسلامه ، والمرجح أنه أسلم ، فقد ذكره البغوي وخليفة وابن السكن وابن البرقي والعسكري وابن قانع والباوردي ، في الصحابة ، وقال الدارقطني إنه من الصحابة . وقد مات عامر بن مالك هذا غيظاً لما بلغه غدر ابن أخيه بصحابة رسول الله في بئر معونة ، وهم في جواره .

صفوة أصحاب محمد ومن خيرة مثقفيهم ، فقد كانوا يقولون لهم « القرّاء » لما يمتازون به بين قومهم من ثقافة عالية ، بالاضافة الى ميزتهم العسكرية .

ويكفي أن يفهم القارىء أن رجال هذا الوفد كانوا على مستوى ذلك المحارب الشهير البطل (الحارث بن الصّمة) (٩) الذي كان أحد الأفذاذ الذين ثبتوا يوم أُحد ، ودافعوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دفاعاً رائعاً ساعة انهزام المسلمين عنه بعد الانتكاسة ، فقد كان هذا البطل المثقف الشجاع ضمن من لقي حتفه من القرّاء (غدراً) في ديار نجد .

تحرك وفد الدعوة المسالم هذا وغادر المدينة في جوار سيد بني عامر ، عامر بن مالك ، ولم يكن هذا الوفد (طبعاً) مستعداً للحرب .

لأنه إنما جاء لدعوة القبائل الى الاسلام وكان على ما يشبه اليقين بأنه لن يلقى حرباً أثناء قيامه بمهمته السلمية التي أوكِلَت إليه ، لا سيما وأنه في جوار سيد من سادات بني عامر .

مكان الكارثة

واصل وفد الدعوة سيره حتى وصل الى مكان بين منازل

---

(٩) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد) .

بني عامر وديار بني سُلَيم يقال له (بئر معونة) واذ وصل الوفد ذلك المكان بَعَثَ أحد أعضائه ـ حرام بن ملكان ـ (١٠) بكتاب رسول الله (ص) الذي كان يحمله الوفد الى زعيم تلك القبائل، عامر بن الطفيل، وهو ابن أخي ملاعب الأسنة.

وكان عامر هذا رجلاً شرساً شديد العداوة للاسلام، فلما جاءه الرسول بخطاب النبي (ص) لم ينظر فيه بل عدا على حامل الخطاب فقتله، بالرغم من أنه رسول، والرسول لا يقتل في عرف جميع البشر.

وبعد أن قتل هذا الغادر رسول وفد الدعوة استصرخ قبائل بني عامر وطلب منهم مشاركته القضاء على جميع اعضاء الوفد النبوي الثقافي المسالم.

إلاّ أن هذه القبائل (بالرغم من شركها) لم تستجب لهذا الغادر، فرفضت طلبه بعد أن أبلغته بأنه من العار عليها المشاركة في قتل قوم مسالمين، هم في جوار زعيم من زعمائها وهو عامر بن مالك ملاعب الاسنة.

ولما يئس عامر بن الطفيل من مساندة قومه بني عامر له في الغدر بالمسلمين غضب ولجأ في الحال الى قبائل رِعْل

(١٠) هو حرام بن ملحان بن مالك بن خالد النجاري الانصاري، من السابقين الأولين في الاسلام، شهد بدراً وأحداً مع رسول الله (ص) واستشهد في حادثة بئر معونة كما هو مفصل في هذا الكتاب.

وعُصَيّة وذكوان وهم من بني سُلَيم فأجابوه إلى ذلك .

وعندها تحركت قوات الغدر والخيانة البالغ عددها حوالي الألف فارس فأخذت المسلمين على حين غِرَّة ، فقد كان رجال الوفد مطمئنين في رحالهم ينتظرون عودة رسولهم الذي أرسلوه بخطاب النبي الى عامر بن الطفيل ، وما كانوا يتصوَّرون أن الغدر سيبلغ بهذه القبائل الى درجة الاعتداء على الآمنين في جوارهم ، الأمر الذي كان العرب جميعاً مسلمهم ووثنيهم يستهجنونه ويستبشعونه .

إبادة رجال الوفد عن آخرهم

فبينما كان هؤلاء المسلمون من الوفد العلمي مطمئنين في رحالهم هكذا اذا بخيل عامر بن الطفيل تحيط بهم من كل جانب ، تسانده جموع غفيرة من أعراب سُلَيم .

فلم يكن من رجال الوفد الاسلامي – وعددهم سبعون – إلاّ أن يسارِعوا الى سيوفهم للدفاع عن أنفسهم ، وقد قاتلوا الغادرين قتالاً مريراً ولكن دون جدوى .

فلم تترك لهم قوة العدو العديدة الغامرة المنظمة المتأهبة فرصة ، حيث اقتحمت رحالهم من كل جانب فاعتورتهم سيوفها وتخطّفتهم رماحها حتى قُتِلوا عن آخرهم يرحمهم الله ، ولم ينج من القتل الا رجلان فقط هما .. كعب بن زيد(١١)

---

(١١) هو كعب بن زيد بن قيس بن مالك النجاري الانصاري ، شهد بدراً =

وعمرو بن أمية الضمري (١٢) .

أما كعب فقد تركه الغادرون جريحاً دون أن يعلموا حقيقة أمره فارتثّ وبقي بين القتلى فعاش بعد ذلك حتّى قتل شهيداً في معركة الأحزاب ، أما عمرو بن أمية الضّمري أحد أعضاء الوفد الذي كان في سرح القوم ساعة الهجوم على المسلمين فقد وقع أسيراً فأعتقه عدوّ الله — قائد الغادرين — عامر بن الطفيل .

قال إبن اسحاق.. وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار فلم ينبئهما بمصاب القوم إلاّ الطير تحوم على العسكر .

فقالا : والله إنّ لهذه الطير لشأنا ، فأقبلا لينظرا فاذا القوم في دمائهم واذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية .. ما ترى ؟.

قال أرى أن نلحق برسول الله (ص) فنخبره الخبر ، فقال الأنصاري لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن

= وقد استشهد في غزوة الأحزاب ، أصابه سهم قاتل ، رماه به ضرار بن الخطاب الفهري ..

(١٢) هو عمرو بن أمية بن خويلد بن إياس الضمري ، من مشاهير الصحابة والسابقين الى الاسلام ومن رواة الحديث عن رسول الله (ص) ، وهو الذي أرسله النبي (ص) الى النجاشي في الحبشة في زواج أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكان من شجعان العرب ، وهو الذي أرسله النبي (ص) ليأخذ جثة الشهيد خبيب بن عدي من على الخشبة التي صلبه عليها كفار مكة ، عاش الى ايام الخليفة معاوية ومات بالمدينة ، قال ابو نعيم مات قبل الستين .

قُتِلَ فيه المنذر بن عمرو – يعني رئيس الوفد – وما كنت لتخبرني عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى قتل .

وقاتل عمرو بن أمية الضمري حتى وقع أسيراً ، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه ، وقد كان المشركون قد عرضوا على رئيس الوفد الأمان فقالوا .. ان شئت أمنّاك فأبى ثم قاتلهم حتى قتل .

وقع الكارثة في المدينة

وقد تلقّت المدينة نبأ هذه الفاجعة بحزن شديد لا يقل عن حزن كارثة أُحد ، وقد كان لها في نفس رسول الله أبلغ الأثر ، فقد قال (ص) – حينما بلغه نبأ الكارثة – هذا عمل أبي بَراء – يعني عامر بن مالك الذي اقترح عليه إرسال هذا الوفد من القُرّاء – قد كنت لهذا كارهاً متخوّفاً . وروى ابن سعد في طبقاته الكبرى عن أنس بن مالك ، قال : ما رأيت رسول الله (ص) وجد (أي تألم) على أحدٍ ما وجد على أصحاب بئر معونة .

وكان الذي نقل نبأ الفاجعة الى النبي (ص) هو عمرو بن أمية ، الناجي الوحيد من المذبحة المروّعة . وجاء في السيرة الحلبية أن وفد القُرّاء لما أحاطت بهم خيل عامر بن الطفيل قالوا .. اللهم إنا لا نجد من يبلّغ رسولك عنا السلام غيرك ، فاقرأه

منا السلام ، فنزل الوحي على الرسول (ص) بذلك ، فرقي المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال .. إن اخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم .

وذكر ابن سعد في طبقاته الكبرى – راوياً عن انس بن مالك – أن الله أنزل في الذين قُتِلُوا في بئر معونة قرآناً وأنه نُسِخ فيما بعد وهو قول الله تعالى مبلّغاً عن الشهداء المغدور بهم (بلّغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) .

وقد تألم النبي (ص) لما نزل بأصحابه من القتل حتّى أنه (كما في الصحيحين) ظلّ يقنت في الصلوات الخمس شهراً كاملاً يدعو على قبائل رِعل وذكوان وعُصيّة الذين غدروا بأصحابه في بئر معونة .

الضّمري يغتال رجلين من بني عامر

وأثناء عودة عمرو بن أمية الضّمري الى المدينة التقى في وادي قناة بالقرب من المدينة برجلين من بني كلاب – رهط عامر بن الطفيل – فاستدرجهما حتّى قتلهما وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة .

وقد فعل ذلك وهو لا يعلم أن الرسول (ص) قد أعطاهما أمانا ، ولذلك فإنه لما أخبر الرسول (ص) بقتلهما قال .. بئس ما صنعت قد كان لهما مني أمان وجوار ، لأدِيَنّهما ، ثم بعث (ص) بديتهما الى قومهما من المشركين تنفيذاً

لقانون العهد والجوار السائد بين قبائل العرب .

وقد تألم أبو براء عامر بن مالك لما فعل إبن أخيه عامر بن الطفيل وشقّ عليه ما أصاب أصحاب النبي (ص) على يد هذا الغادر الطاغية ، حتى أن أبا بَراء (كما يقول إبن برهان الدين) مات أسفاً على ما صنع ابن أخيه من الغدر الشنيع بأصحاب رسول الله (ص) الذين كانوا في جواره وأمانه .

ولم يرو التاريخ أن رهط ملاعب الاسنة أبي بَراء قد ردوا اعتبار زعيمهم بالانتقام من عامر بن الطفيل وقومه اللهم إلاّ ان ابن أبي براء (واسمه ربيعة) قد حاول الانتقام لشرف أبيه من الطاغية الغادر عامر بن الطفيل فحمل عليه بالرمح في نادي قومه يريد قتله وقد طعنه فعلاً إلاّ إن الطعنة لم تكن قاتلة حيث جاءت في فخذه ، فلم يمت منها ، وقد حال رهط ابن الطفيل وبين إبن عمه من ان يسدد اليه طعنة أخرى حيث اعتقلوه قبل أن يفعل ذلك ، وقالوا لعامر بن الطفيل أقتص منه فرفض قائلاً .. إن أنا متّ ، فدمي لعمي - يعني ملاعب الاسنة أبا براء - ويروي أصحاب السير أن ربيعة ابن مالك هذا جاء الى النبي (ص) يعرب عن أسفه لما أصاب أصحابه في جوار أبيه وقال له .. أيغسل عن أبي هذه الغدرة أن أضرب عامر بن الطفيل ضربة أو طعنة ؟ قال .. نعم ، فطعنه بالرمح ، كما هو مفصّل فيما مضى .

توالي الامتحان على المسلمين

وهكذا يتوالى امتحان الله تعالى لصفوة هذه الأمة في

مختبرات المصائب والفجائع ، فقد فقدوا في تلك الظروف العصيبة سبعين رجلاً ، هم في أمسّ الحاجة اليهم .

ولكن هذا الامتحان لم يزدهم تواليه إلاّ ثباتاً على الحق وصموداً في وجه الباطل ، وذلك الذي أراده الله منهم بهذا الاختبار (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء وزلزلوا حتّى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) (١٣)

نازلة أخرى .. حادثة الرجيع

(شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة)

وفي الوقت الذي كان فيه الحزن والأسى يخيم على المدينة لمصرع السبعين الذين لقوا حتفهم (غدراً على يد قبائل سُلَيم)، في هذا الوقت تلقّت المدينة نبأ كارثة غدر أخرى ذهب ضحيتها نخبة من خيرة أصحاب محمد (ص) وحادثة الغدر هذه تشبه (تماماً) حادثة بئر معونة .

واذا كانت حادثة الغدر المروّعة التي تعرّض لها المسلمون وفقد فيها المعسكر الاسلامي سبعين شهيداً في بئر معونة ، قد حدثت على أيدي القبائل النجدية .

فإن الحادثة التي نحن بصددها الآن قد جاءت من قِبَل القبائل الحجازية ومن جيران الحرم بالذات أهل مكة ،

---

(١٣) سورة البقرة ٢١٥ .

وهذه الحادثة الثانية — وإن كانت ضحاياها في العدد أقل من ضحايا بئر معونة — إلاّ إن الغادرين قد مثّلوا فيها أحط أنواع الغدر والخيانة .

وتفصيل ذلك أن وفداً من عَضَل والقارة من الهون بن خزيمة بن مدركة ، وفدوا على النبي (ص) في شهر صفر ، الشهر الذي حدثت فيه حادثة بئر معونة ، وتظاهروا أمامه بالاسلام وطلبوا منه أن يرسل معهم بعثة من أصحابه المثقفين لكي يعلّموهم دين الاسلام قائلين :

« يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقّهونا ويقرئونا القرآن ويعلّمونا شرائع الاسلام » .

فاستجاب النبي (ص) لطلبهم ، ثم شكّل أعضاء البعثة الثقافية المطلوبة على النحو التالي :

مرثد بن أبي مرثد الغنوي (١٤) رئيساً .. وتسعة أعضاء ، من بينهم عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح (١٥) البطل الرامي الشهير الذي كان أحد أركان حرب الجيش الاسلامي يوم أُحد ، والذي صرعت نباله اثنين من حملة لواء قريش في تلك المعركة .

غادر وفد التفقيه هذا مدينة الرسول (ص) متجهاً جنوباً

---

(١٤) أنظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) طبعة ثانية .
(١٥) أنظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

نحو مكة يصحبه وفد الخيانة الذي حضر الى المدينة متظاهراً بالاسلام .

الغدر برجال البعثة

ولما وصلوا الى مكان يقال له .. ذات الرجيع – وهو ماء لهذيل بين عسفان ومكة – غدر بهم الذين تظاهروا بالاسلام وطلبوا ابتعاثهم من النبي (ص) الى قومهم ليعلّموهم الاسلام .

ففي ذلك المكان (ذات الرجيع) مثّلت قبائل تلك المنطقة (من هُذَيل) أبشع أنواع الغدر وأحط أساليب اللؤم والخسة والدنـــاءة .

فبينما كان رجال بعثة التعليم الاسلامية مطمئنين في رحالهم حول الماء ومعهم رجال الوفد الغادر ، إذا بهؤلاء الرجال الغادرين يتسللون الواحد تلو الآخر من بين رجال البعثة الاسلامية التفقيهية ، ثم يتجهون نحو قبيلة هذيل فيستصرخونها على رجال البعثة الآمنة طالبين منها المشاركة في الغدر بهذا الوفد العلمي المسالم الذي لم يكن يفكر مطلقاً في الحرب .

ولقد استجابت قبيلة هُذَيل لداعي الخسة والغدر إذ لم يَرُعْ رجال البعثة التفقيهية الاسلامية التي لا يتجاوز عددها العشرة ، إلاّ الرجال بأيديهم السيوف وقد أحاطوا بهم من كل جانب .

فسارع رجال البعثة العشرة الى سيوفهم للدفاع عن أنفسهم ،

ولكن الجبناء الغادرين لما رأوا شدة المقاومة وضراوة القتال طلبوا منهم الكف عن القتال وعرضوا عليهم الأمان قائلين .. إنّا والله ما نريد قتلكم ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم .

القتلى من رجال البعثة

وأمام هذا العرض اختلف رجال البعثة فيما بينهم .. فريق وهم الأكثر ، رفضوا ما عرض عليهم الغادرين وقالوا والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً .

وعلى رأس هذا الفريق مرثد بن أبي مرثد (رئيس البعثة) وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، فقد شدّ هؤلاء — وعددهم سبعة — على الغادرين وقاتلوهم قتال الأبطال ، ولكن كثرة الهذليين المجرمين تغلبت على هؤلاء الأصفياء فسقطوا جميعهم صرعى يرحمهم الله .

أما الفريق الثاني من رجال البعثة النبوية — وعددهم ثلاثة — فقد رأوا أن لا فائدة من المقاومة ووثقوا بالأمان الذي عرضه عليهم رجال قبيلة هذيل فاستسلموا فأوثقهم الغادرون كتافا ، وهؤلاء المستسلمون هم .. زيد بن الدَّثِنة (١٦) .. وخُبيب

---

(١٦) هو زيد بن الدثنة (بفتح الدال وكسر المثلثة بعدها نون) بن معاوية البياضي الأنصاري ، من السابقين الى الاسلام ، شهد بدراً وأحداً ، قتله المشركون صبراً بالتنعيم في مكة كما سيأتي تفصيله .

بن عَدِي (١٧) .. وعبدالله بن طارق (١٨) .

وبعد أن وقع هؤلاء الثلاثة في الأسر ، أسرع بهم الهذليون الى مكة ليبيعوهم فيها من مشركي قريش الذين تعلم هذيل أنه يسرهم جداً أن يقع في أيديهم أمثال هؤلاء الرجال من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

غير أن واحداً من هؤلاء الثلاثة — وهو عبدالله بن طارق — ندم لاستسلامه فنزع يده من القيد ثم اختطف سيفاً فقاتل القوم ولكن الجبناء تكاثروا عليه ولم يجروْ أحد منهم على منازلته بالسيف بل قذفوه بالحجارة حتى فارق الحياة يرحمه الله .

هذيل تبيع الأسيرين لقريش

أما خُبيب بن عدي وزيد بن الدَّثِنة فقد قدمت هذيل بهما الى مكة ، ولما كانت الحالة (يوم ذاك) بين مكة والمدينة هي حالة حرب فقد سُرَّ زعماء مكة بجلب هذين الأسيرين وأخذوا في مساومة هذيل لابتياعهما بغية الانتقام من معسكر المدينة بقتلهما .

وقد انتهت هذه المساومة بأن سلّم القرشيون لقبيلة هُذَيل

---

(١٧) هو خبيب (بضم أوله وفتح ثانيه) بن عدي بن مالك الأوسي الأنصاري من السابقين الى الاسلام ، شهد بدراً وأحداً ، قتله أهل مكة وصلبوه في التنعيم مع زيد بن الدثنة كما سيأتي تفصيله فيما يلي من هذا الكتاب إن شاء الله .

(١٨) هو عبدالله بن طارق بن عمرو بن مالك البلوي ، والأنصاري بالحلف ، عده موسى بن عقبة في أهل بدر .

أسيرين كانا قد وقعا في أيدي أهل مكة في حرب سابقة نشبت بين القبيلتين ، وسلّمت هذيل — مقابل ذلك — لقريش هذين الصحابيين فنفّذت قريش فيهما حكم الاعدام .

وذكر إبن سعد في طبقاته الكبرى أن صفوان بن أمية الجمحي (١٩) اشترى زيد بن الدّثنة فقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قتله المسلمون في معركة بدر ، وأن حجير بن أبي أهاب اشترى خُبيب بن عَدِي وسلّمه لابن أخته عقبة بن الحارث بن عامر ليقتله بأبيه الذي لقي مصرعه على أيدي المسلمين .

ولما كانت هذه الحادثة قد حدثت في الأشهر الحرم فإن مشركي مكة قد أجلّوا تنفيذ حكم الاعدام في هذين الصحابيين الكريمين حتى تنقضي هذه الأشهر التي لا يسفك العرب فيها دماً .

ولذلك فقد أودعت قريش هذين الأسيرين السجن في انتظار انقضاء أيام الأشهر الحرم ، ولما انقضت أيام هذه الأشهر أعدم مشركو مكة أسيريهما ، وبطريقة هي غاية في الوحشية والبشاعة .

كيف أعدمت قريش الأسيرين

ولما كان المشركون (يوم ذاك) لا يستبيحون سفك الدم داخل حدود الحرم فقد خرجوا بهذين الصحابيين الكريمين

---

(١٩) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

الى ما وراء حدود الحرم.

وهناك –وفي منطقة التنعيم بالذات– قتل المشركون زيد بن الدَّثِنة وخُبيب بن عَدِي.

أما زيد بن الدَّثِنة فقد سلّمه صفوان بن أمية الى مملوك له يقال له نسطاس (٢٠) وأمره بقتله ففعل، وقد حضر تنفيذ هذه الجريمة البشعة زعماء مكة معهم النساء والصبيان والعبيد وفيهم أبو سفيان بن حرب.

ولقد أظهر هذان الصحابيان العظيمان ضروباً من الشجاعة والثبات على العقيدة ما جعلهما في أعلى مستويات الصديقين والشهداء.

فعندما قُدّم زيد بن الدَّثِنة للقتل قال له أبو سفيان ممتحناً، أنشدك الله يا زيد، أتحب محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟.

فكان الجواب من زيد رضي الله عنه .. لا والله ما أحب أن محمداً الآن في المكان الذي هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي.

فقال أبو سفيان .. ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب

---

(٢٠) نسطاس، مولى صفوان بن أمية الجمحي– شهد أحداً مع المشركين وأنقذ مولاه صفوان من الموت اذ طعن بخنجر رجلا من المسلمين كاد يقتل صفوان بن أمية، هداه الله للاسلام ولا يعرف تاريخ إسلامه، ويظهر أنه أسلم عام الفتح.

محمد لمحمد ، وبعد ذلك تقدم نسطاس من زيد (رض) فقتله ، وقبل أن يقتل نسطاس زيداً ، قام المشركون بتعذيب زيد رضي الله عنه حيث أوثقوه وصاروا يرمونه بالنبل في أماكن غير قاتلة لعله يُفتَن ويرجع عن دينه فمازاده ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً لربه ، فقتلوه يرحمه الله .

أما الشهيد خُبيب فقد كان احتفال كفار مكة بقتله أكبر من احتفالهم بقتل زيد بن الدّثنة ، فقبلَ أن يقتلوه وبعد أن صلبوه على الخشبة إستعداداً لطعنه بالرمح ساوموه في دينه وحاولوا أن يزعزعوا من إيمانه ، إذ عرضوا عليه إعفاءه من القتل إنْ هو رجع عن دينه وتبرأ من محمد (ص) حيث قالوا له إرجع عن دينك نُخلّ سبيلك وإن لم ترجع لنقتلنك .

فكان جوابه جواب ذلك المؤمن الصادق الذي يستعذب الموت في سبيل الله .. إن قتلي في سبيل الله لقليل.. ورفض المساومة .

وقبل تنفيذ القتل طلب خُبَيب من كفار مكة أن يُمهِلوه حتى يصلي لله ركعتين، ففعلوا ، فصلاهما وأحسنهما ثم أَقبل على المشركين وقال لهم .. أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوّلت جزَعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة .. قال إبن إسحاق .. فكان خُبيب بن عَدِي أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل .

كيف قتل المشركون خبيبا ؟

وبعد أن صلب كفار مكة خبيباً على الخشبة دعا وهو

مصلوب قائلاً .. اللهم إنه ليس أحد هنا يبلّغ رسولك عني السلام فبلغه أنت عني السلام ، وبلّغه ما يصنع بنا .

ولقد استجاب الله دعاء هذا العبد الشهيد المظلوم ، فنزل الوحي على النبي (ص) بما حدث لخبيب ، فقد روى أسامة (رض) أن رسول الله (ص) كان (في اليوم الذي أُعدم فيه خبيب) جالساً مع أصحابه فأخذه ما كان يأخذه عند الوحي، فسمعناه يقول: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال هذا جبريل يقرئني السلام ، خبيب قتلته قريش .

ثم إن خبيباً توجه بالدعاء الى الله قائلاً .. اللهم احصهم عدداً واقتلهم بِدَدا ولا تغادر منهم أحدا .. وذكر ابن إسحاق عن معاوية بن ابي سفيان أنه كان مع أبيه فيمن حضر مقتل خبيب ، قال معاوية فلقد رأيت أبي - عندما دعا عليهم خبيب - يُلْقِيني الى الأرض خوفاً من دعوة خبيب ، وكانوا يعتقدون أن الرجل إذا دُعِيَ عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه .

ثم إن قريشاً دعت أربعين فتىً ممن قتل المسلمون آباءهم يوم بدر فأعطت كل واحد منهم رمحاً وقالت.. هذا الذي قتل آباءكم ، فطعنوه بتلك الرماح حتى مزقوه ، رضي الله عنه وأرضاه .

ويقال أن الذي قتل خبيباً هو عقبة بن الحارث وكان غلاماً صغيراً جعل بعض القرشيين الحربة في يـده ثم

أخذ بيده فطعن بها خبيباً حتى قتله ، فكان عقبة (٢١) بن الحارث يقول (بعد أن أسلم) .. والله ما أنا قتلت خبيباً لأنني كنت أصغر من ذلك .. ذكر ذلك إبن كثير في البداية والنهاية .

من آثار تلك الجريمة

وكان سعيد بن عامر الجمحي (٢٢) ، الأمير الزاهد الورع المشهور ، فيمن حضر مصرع الشهيد خبيب قبل أن يسلم ، فكان بعد ذلك لا يخطر على باله ذكر مصرع خبيب إلاّ أغمي عليه .

قال ابن هشام : كان عمر بن الخطاب قد استعمل سعيد هذا على بعض نواحي الشام ، فذُكِر لعمر أنه يغمى عليه أحياناً في مجلس الإمارة ، فسأله عمر في قدْمة قدمها عليه ، فقال له .. ما هذا الذي يصيبك ؟.

فقال .. والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس ، ولكنني كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قتل ، وسمعت دعوته فوالله ما خطرت على قلبي وأنا في المجلس الاّ غُشي علي

---

(٢١) هو عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، أبو سروعة ، أسلم وله صحبة ، ومات في خلافة ابن الزبير .

(٢٢) هو سعيد بن عامر بن حديم بن سلامان القرشي الجمحي، من كبار الصحابة ومن فضلائهم . تأخر اسلامه حتى غزوة خيبر حيث أسلم قبلها وشهدها وما بعدها مع رسول الله (ص) . من المشهورين بالزهد والصلاح ، ولذلك أحبه عمر وولاه على بعض نواحي الشام ، مات سنة عشرين في خلافة عمر .

فزاده ذلك عند عمر خيراً .

وكان خُبيب رضي الله عنه وأرضاه هو قائل ذلك البيت الذي أصبح مثلاً سائراً :

فلست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

سرور اليهود والمنافقين بالنكبة

ولقد اغتبط اليهود والمنافقون بما أصاب البعثة الاسلامية على أيدي هذيل ، فصاروا يتهكّمون عليهم ويسخرون منهم فكانوا يقولون في هؤلاء الشهداء الأبرار (على سبيل التشفي).. يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا ، لا هم قعدوا في أهليهم ، ولاهم أدّوا رسالة صاحبهم .

فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين : (ومن الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام ، واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد) (٢٣) •

٣ - غزوة بني النضير .. (ربيع الاول سنة أربع من الهجرة)

أما الحملة العسكرية الثالثة التي قام بها المسلمون بعد معركة أحد ، وقبل غزوة الاحزاب ، فهي الحملة التي جرّدها الرسول (ص) للتخلص من يهود بني النضير القاطنين في

---

(٢٣) البقرة : ٢٠٥ .

ضواحي المدينة ، ووضع حد لدسائسهم ومؤامراتهم التي تستهدف القضاء على النبي (ص) والإطاحة بالدولة التي أقامها في ظل الاسلام .

فقد كان هؤلاء اليهود يتحيّنون الفرص للتخلص من المسلمين منذ أن تمركزوا في المدينة ، وقد ظلت أعمال هؤلاء اليهود العدوانية مقتصرة على الدسّ والوقيعة والتحريض لتفريق كلمة المسلمين وتفكيك وحدتهم والتشكيك في صدق نبوة محمد (ص) .

وكان يهود بني قينقاع (كما ذكرنا في الفصل الأول) أول من حوّل النزاع بين اليهود والمسلمين من نزاع مدني الى نزاع مسلح ، فحاصرهم المسلمون في حصونهم ثم استنزلوهم وتم إجلاؤهم من المدينة .

ولم يشترك يهود بني النضير في معركة بني قينقاع حربياً ، وإن كانت عواطفهم معهم ، وقد بقي يهود بني النضير (كبني قريظة) على عهدهم مع المسلمين ، ولم يقوموا بأي عمل عسكري ضد المسلمين ، وخاصة بعد أن رأوا العبرة في يهود بني قينقاع الذين كانت نتيجة حملهم السلاح في وجه المسلمين هو استسلامهم ثم إجلاءهم عن المدينة في السنة الثانية من الهجرة .

ولكن بني النضير لما رأوا أن سلوك هذا الطريق لا يشفي لهم غليلاً ولا يحقق لهم هدفاً ، قرروا الإقدام على عملية

غدر رهيبة تصل بهم الى أهدافهم السيئة من أقرب الطرق ، ساعدهم على ذلك وشجّعهم ما تعرَّض له المسلمون من نكبات متلاحقة في معركة أُحد الّتي اصيبوا فيها بتلك الانتكاسة الحربية الّتي فقدوا فيها سبعين شهيداً ، ثم في حادثتي بئر معونة وذات الرجيع اللتين فقدوا فيهما (وبعد أقل من شهرين من نكبة أُحد) ثمانين رجلاً من خيرة محاربيهم وعلمائهم ، مما جعل اليهود يستضعفون المسلمين ويطمعون فيهم .

بنو النضير يحاولون اغتيال الرسول في ديارهم

ولذلك قرر اليهود اغتيال النبي (ص)، معتقدين أن تنفيذ مثل هذه الجريمة سيضع حداً لنشاط الدعوة الاسلامية ويخرس صوتها الى الأبد ، ويفسح الطريق أمام سيطرتهم على (يثرب) من جديد .

وظلّ يهود بني النضير يتحينون الفرص لتنفيذ مؤامرة الاغتيال ، وفعلاً سنحت لهم هذه الفرصة إلاّ ان الله تعالى نجّى نبيه (ص) من شرها .

وتفصيل ذلك أن أحَد أصحاب النبي (ص) وهو عمرو بن أمية الضّمري قتل رجلين من بني عامر كان الرسول (ص) قد أعطى لهما عهداً لم يعلمه ابن أمية الضّمري الناجي الوحيد من المذبحة الّتي دبرها بنو عامر في نجد غدراً وذهب

ضحيتها سبعون من صحابة محمد (ص) في بئر معونة كما فصلنا ذلك فيما مضى من هذا الكتاب تحت عنوان (فاجعة بئر معونة).

النبي في ديار بني النضير

ووفاء بالعهد الذي أعطاه النبي (ص) لذينك المشركَين العامريَين التزم النبي (ص) بدفع ديتهما للورثة بالرغم من أنهما من قبيلة ارتكب أحد زعمائها أشنع جريمة غدر بحق المسلمين، وهو عامر بن الطفيل المجرم والمسئول الأول عن مذبحة المسلمين الرهيبة في بئر معونة.

ولما كانت المعاهدة لا تزال قائمة بين المسلمين وبين يهود بني النضير، وكان بنو عامر بالاضافة الى ذلك حلفاء هؤلاء اليهود، فقد ذهب النبي (ص) بنفسه الى منازل يهود بني النضير مع وفد من كبار أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، ليطلب من اليهود (كحلفاء) المشاركة في دفع دية ذينك العامريَين.

وقد أظهر اليهود الترحيب بالوفد وأبدوا للرسول (ص) استعدادهم لاجابة طلبه قائلين.. نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه.

مخطط اليهود لاغتيال النبي

وبينما كان النبي (ص) وباقي رجال الوفد في انتظار انجاز

ما وعد به اليهود من مشاركة في دفع الدية ، كان زعماء هؤلاء اليهود يرسمون مخططاً لاغتيال النبي (ص) في اجتماع سري عاجل عقدوه في أحد حصونهم ، وكان المخطط الذي اتفقوا عليه بالقاء صخرة على النبي (ص) وهو في المكان الذي كان جالساً فيه في ظل أحد حيطان حصن من حصونهم .

وفي اجتماعهم الذي بحثوا فيه موضوع اغتيال الرسول (ص) عارض سلاّم بن مِشْكَم ـ أحد زعمائهم ـ في هذا الموضوع وحذر قومه من السير في هذا الطريق الشائك قائلاً لهم .. لا تفعلوا والله ليُخبَرَّن بما هممتم به وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه .

ولكن معارضة إبن مِشْكَم هذه لم تلق تأييداً من المجتمعين فساروا في طريق مؤامرة الاغتيال ورسموا الخطة لتنفيذها ، وكانت تقضي بأن يصعد عمرو بن جحاش بن كعب (أحدهم) الى سطح الحصن الذي جلس الرسول (ص) في ظله ثم يلقي عليه صخرة تقضي عليه .

كيف نجا النبي من المؤامرة ؟

إلا أن الله تعالى نجّى نبيه فترك المكان الذي كان يجلس فيه قبل تنفيذ المؤامرة بقليل ، بعد أن تلقّى إخبارية بما اعتزم اليهود القيام به من اغتياله ، فقد جاءه الخبر من السماء ، ففضح الله أمر هؤلاء اليهود المجرمين وتذكروا ما قاله لهم

سلاّم بن مِشْكَم عندما حذّرهم من الاستمرار في المؤامرة وأنذرهم بأن محمد (ص) سيكشف الوحي له هذه المؤامرة فلم يستمعوا لتحذيره .

وبعد اكتشاف النبي (ص) لهذه المؤامرة الدنيئة توجّة فوراً الى المدينة راجعاً دون أن يتحدث الى اليهود بكلمة وتبعه بقية أعضاء الوفد من أصحابه دون أن يعلموا سبباً لمغادرته منازل بني النضير على تلك الصورة المفاجئة ، إلاّ بعد أن لحِقوا به في المدينة حيث أطلعهم على جلية الخبر .

براعة الرسول السياسية

وعندما غادر النبي (ص) ديار بني النضير لم يترّك هؤلاء اليهود يشعرون بمغادرته تلك الديار حيث أوهمهم (عندما تحرّك من مكانه) بأنه ذاهب لقضاء حاجته .

ويظهر أنه (ص) قد قدّر أسوأ الإحتمالات ، وهو أن اليهود (وقد قرروا التخلص منه عن طريق الاغتيال في ديارهم) لا يستبعد أن يغتنموا فرصة وجوده منفرداً في ديارهم مع قلة من أصحابه كلهم غير متسلح فيطوقوهم (اذا ما علموا بأن النبي اكتشف المؤامرة) ثم يستعجلوا الفتك بالنبي (ص) قبل أن يتمكن من العودة سالماً الى المدينة ، ولهذا فإنه (ص) عندما تحرك من مكانه في ظل الحائط أوهم اليهود بأنه لا يعتزم مغادرة ديارهم وإنما هو ذاهب لقضاء

حاجته، وبهذا فوّت على هؤلاء اليهود فرصة قد تكون من أثمن فرصهم للقضاء عليه .

إنذار اليهود بالجلاء عن المدينة

وقد اعتبر النبي (ص) ما اعتزم اليهود القيام به من الفتك به غدراً في ديارهم نقضاً للعهد الذي بينه وبينهم فقرر إجلاءهم من منطقة يثرب اتقـاءً لشرهم وتخلصاً من مؤامراتهم ودسائسهم .

فقد وجه اليهم إنذاراً بالجلاء عن المدينة ، وقد حمل هذا الانذار اليهم محمد بن مسلمة الانصاري الذي استدعاه النبي (ص) وقال له :

« اذهب الى يهود بني النضير وقل لهم .. إن رسول الله (ص) أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي ، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم مما هممتم به من الغدر ، لقد أجّلتكم عشراً فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه (٢٤) .

وفوراً ، حمل ابن مسلمة هذا الانذار الى اليهود ، ولما تسلّموا الانذار أُسقط في أيديهم، ولم يرو التاريخ أنهم تنصلوا من مسئولية ما هموا من الغدر بالنبي (ص) .

---

(٢٤) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٥٧ .

اليهود يرفضون الإنذار

ولقد انهار اليهود أمام هذا الانذار الشديد فلم يروا بداً من الرحيل فأخذوا يتجهزون لذلك فأرسلوا الى ظهر لهم (ناقلات من الابل) في مسارحها ، واستأجروا إبلاً من قبيلة أشجَع استعداداً لمغادرة المدينة تحت وطأة الانذار الشديد الذي تلقوه من القائد الأعلى النبي .

ولكنَّ زعماء النفاق في المدينة (وعلى رأسهم عبدالله بن أُبيّ) أرسلوا الى هؤلاء اليهود يشجعونهم على البقاء ويطلبون منهم رفض الانذار النبوي والاستعداد لحرب المسلمين إذا ما أصروا على إجلائهم بالقوة ، وأكّد لهم هؤلاء المنافقون مساندتهم عسكرياً إذا ما شنَّ المسلمون عليهم الحرب ، فأرسلوا إليهم قائلين لهم .. أن اثبتوا وتمنعوا ، فانا لن نُسلِمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وان خرجتم خرجنا معكم (٢٥) .

وبعث اليهم رأس النفاق عبدالله بن أُبيّ (٢٦) (سراً) من يؤكد لهم (باسمه) وقوفه بجانبهم حتّى النهاية قائلاً : لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصنكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم فيموتون عن آخرهم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان .

---

(٢٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩١ .
(٢٦) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

ونتيجة لهذه التحريضات والتأكيدات التي تلقاها اليهود تشجعوا وقرروا الثبات والمقاومة لا سيما بعد أن انضم اليهم إخوانهم من بني قريظة وأعلنوا الحرب معهم ضد المسلمين (٢٧) . ثم أرسلوا الى النبي (ص) من يبلغه رفض انذاره قائلين .. إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك . ثم أخـذوا يتحصنون في معاقلهم ، فأقاموا المتاريس والخنادق في شوارعهم للاحتماء بها ، وأخذوا ينقلون الحجارة الى أسطحة المنازل لقذف المسلمين بها إن هم هاجموها ، كما اختزنوا في حصونهم من المؤن الغذائية ما يكفيهم لمدة سنة كاملة ، أما الماء فقد كان متوفراً لديهم داخل حصونهم حيث توجد لديهم آبار كثيرة داخل هذه الحصون .

ضرب الحصار على بني النضير

ولما تبلغ النبي (ص) رفض اليهود إنذاره لم ير بدأ من ضرب الحصار عليهم فأعلن التعبئة وأصدر أوامره بالزحف على معاقلهم .

---

(٢٧) لم يذكر ابن اسحاق أن بني قريظة حاربوا الرسول (ص) مع اخوانهم بني النضير ، ولكن الامام البخاري أكد ذلك في صحيحه ، قال السمهودي في كتابه وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٤ .. وفي البخاري ما يقتضي أن قريظة كانوا قد حاربوا قبل ذلك مع بني النضير ، ولفظ البخاري : عن ابن عمر قال : حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومنّ عليهم ، حتى حاربت قريظة (أي مرة ثانية) فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأموالهم وأولا دهم بين المسلمين الخ .

وقد تحركت القوات الاسلامية من المدينة بقيادة النبي (ص) نفسه، وضربت الحصار على حصون بني النضير وقلاعهم التي اعتصموا بها.

وقد كانت هذه القلاع والحصون على غاية من المناعة والتحصين، وقد استفاد منها اليهود استفادة كبيرة في المقاومة.

ولما رأى القائد الأعلى النبي شدة مقاومة اليهود واستفادتهم من مناعة هذه الحصون لجأ النبي (ص) الى وسيلة أضعف بها حماسة اليهود في المقاومة كإجراء من اجراءات الحرب.

عملية إحراق نخيل اليهود

لقد كان اليهود – منذ عرفوا – مشهورين بعبادة المادة والحرص الشديد على اقتناء الأموال، وكانوا يملكون من بساتين المدينة ونخيلها أحسنها.

وكما هي ظروف الحرب استولى المسلمون – أثناء عملية الحصار – على هذه البساتين والنخيل، وكان بوسع المسلمين أن يكتفوا بهذا الاستيلاء الذي به (كما هي قواعد الحرب المتبعة) أصبحت هذه البساتين والنخيل من أملاك المسلمين، إذ في وسع المسلمين بعد هذا الاستيلاء أن يستمروا في محاصرة اليهود ويمنعوهم من الانتفاع بثمار هذه البساتين والنخيل.

ولكن المسلمين (وعلى رأسهم القائد الأعلى النبي – على ما يظهر –) كانوا يعرفون طمع اليهود وحبهم المفرط

للمال ، لذلك فقد أمر النبي (ص) بالقيام بعملية أزعج بها اليهود المحاصرين حيث أمر بالبدء في قطع نخيلهم وتحريقها .

عدم جديّة إحراق النخيل

ولم يكن المسلمون (على ما يظهر) جادين في قطع النخيل وإحراقه ، وإنما يقصدون إزعاج اليهود الذين لا يفزعهم شيء مثل ضياع المال .

يدلنا على ذلك أن النبي (ص) - كما ثبت في كتب السيرة - لم يأمر بالشروع في إتلاف إلاّ أردأ أنواع نخيل اليهود الذي لا يقتاتون منه ، وهو نوع (اللّينة) وهو نوع يخالف نوع العجوة والبُرْني الذي كان الغذاء الرئيسي لأهل المدينة .

فان (اللّينة) من النخل إنما كان ثمرها (على ما يظهر) في الغالب علفاً للجمال وغيرها ، قال السهيلي - عند تعليقه على قوله تعالى - (ما قطعتم من لِينة) الآية اللينة (بكسر اللام) ألوان التمر ما عدا العجوة والبرني ثم قال .. ففي هذه الآية أن النبي (ص) لم يحرق من نخلهم (أي اليهود) إلاّ ما ليس بقوت للناس ، وكانوا يقتاتون العجوة . اهـ .

ولقد نجحت خطة الإزعاج هذه التي اتّبعها النبي (ص) ، إذ لم يكد يرى هؤلاء اليهود الدخان يتصاعد من جذوع نخيلهم وفروع هذه النخيل تتساقط من جراء القطع حتى سادهم الذعر واجتاحتهم موجة من الارتباك خوفاً على نخيلهم ،

وشرعوا يفاوضون في التسليم.

مع أنهم لو فكّروا قليلاً لتبين لهم أن هذا النخيل لم يعد من ممتلكاتهم بعـــد أن استولى عليه الجيش الاسلامي المحاصِرة الذي ما قام بالحصار إلاّ لإجبارهم على الجلاء من المدينة، فلو أدرك اليهود هذا لما ارتاعوا ولما ارتبكوا لمجرد البدء في عملية الحرق والقطع التي قام بها الجيش الاسلامي، ولـمّا أثّر ذلك على مقاومتهم بتلك السرعة، ولكنهم اليهود الذين لا يقدّسون شيئاً مثل المال.

احتجاج اليهود على حرق النخيل

وقد احتج اليهود على عملية القطع والحرق احتجاجاً شديداً، فرُفِضَ احتجاجهم، ولم لا يُرفَض؟ أليست هي الحرب، كما أن بعض المسلمين تحرّجوا عندما صدرت الاوامر النبوية بالشروع في القطع والحرق، قال السهيلي.. ووقع في نفوس بعض المسلمين من هذا الكلام (أي الأمر بالقطع والحرق) شيء، فأنزل الله تعالى مؤيداً رسوله في هذه العملية قوله تعالى (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزيَ الفاسقين (٢٨).

---

(٢٨) الحشر: ٥

مفاوضة اليهود للتسليم

وهكذا نجحت المناورة التي قام بها الجيش الاسلامي والتي بدأت بقطع وحرق الرديء من نخيل اليهود، فقد جزع اليهود جزعاً شديداً ، وتأكد لديهم أن النبي (ص) لن يتركهم حتى يرحلوا عن المدينة ، أو يبيدهم بعدما اتضح له منهم من خيانة للعهد ونقض للمعاهدة بتدبيرهم المؤامرة الخبيثة التي كانت تستهدف حياته الكريمة بالذات ، فشرعوا في المفاوضة .

وقد انتظر اليهود (عبثاً) مسارعة المنافقين وحلفائهم من غطفان لنجدتهم كما وعدهم بذلك رأس النفاق عبدالله بن أبي ولكن بدون جدوى .

فقد خذلهم عبدالله بن أبي وجلس في بيته بعد أن ورّطهم .

أما غطفان (فبالطبع) لم يأت منهم أحد فاستحكمت حلقات الورطة على بني النضير بعد أن يئسوا من نجدة المنافقين لهم ، فأسقط في أيديهم ، وقذف الله الرعب في قلوبهم .

وشدّد المسلمون الحصار وقاوم اليهود وصاروا يرمون المسلمين من حصونهم بالنبال والحجارة ، وقد ضرب النبي (ص) خيمته في مقر قيادته حول الحصون ، فركز رماة بني النضير نبالهم على خيمة النبي (ص) إلاّ أن أكثر هذه النبال لم يصل .

قتلى اليهود في الحصار

فاستدعى اليهود أحد رماتهم المشهورين وكان أعسراً رامياً شديد النزع يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره ، فطلبوا منه أن يجعل خيمة الرسول (ص) هدفاً لنباله ففعل ، وأخذت نبال هذا اليهودي تتساقط على خيمة النبي القائد ، وعند ذلك أمر النبي (ص) بنقل مقر قيادته إلى مكان يكون في مأمن من نبال هذا اليهودي الرامي .

وقد قام علي بن أبي طالب بقتل هذا اليهودي الرامي واسمه (غزول)، وذلك أن غزول هذا كان من شجعان بني النضير ، فقد خرج في عشرة من أصحابه لعله يصيب غِرّة من المسلمين ، فوقع في كمين نصبه له علي بن ابي طالب مع سهل بن حُنيف وأبي دجانة (٢٩) ، فشدّ عليّ على غزول اليهودي فقتله ثم شد أبودجانة وأصحابه على الباقين فقتلوا جميعهم وعددهم عشرة ، وأتى علي بن أبي طالب (رض) برأس ذلك اليهودي الرامي الى مقر القيادة النبوية .

اتفاقية الجلاء

ولم يستمر اليهود في المقاومة طويلاً ، فقد خارت قواهم إذ لم يمض على ضرب الحصار عليهم أكثر من عشرين يوماً حتى بعثوا بمندوبهم الى النبي (ص) للتفاوض بشأن تنفيذ ما

---

(٢٩) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد) .

طلبه منهم في إنذاره من الجلاء عن المدينة .

وقَبِل النبي (ص) التفاوض، وقابل وفد اليهود في مقر قيادته ، فكانت نهاية هذه المفاوضة إتفاقية الجلاء الّتي تتضمن ما يلي :

١ ـ أن يجلو يهود بني النضير عن منطقة يثرب جلاءً تاماً الى أيّ مكان يشاءون .

٢ ـ أن يسلّم اليهود للمسلمين كل ما يمتلكون من سلاح بكافة أنواعه، ويكونوا ساعة جلائهم من يثرب مجرَّدين عن السلاح تماماً .

٣ ـ لليهود أن يحملوا من أموالهم ما يقدرون على حمله (ما عدا السلاح) مهما كانت قيمة أو نوع هذا المال .

٤ ـ بعد الذي يقدر اليهود على حمله من المال يكون كل ما تبقى من أموالهم المنقولة وغير المنقولة فيئاً للمسلمين وملكاً من أملاكهم .

٥ ـ على القيادة الاسلامية في المدينة أن تضمن ليهود بني النضير سلامة أرواحهم ما داموا داخل المنطقة الخاضعة لسلطان المسلمين .

كيف تم إجلاء بني النضير

ونتيجة لاتفاقية الجلاء هذه، شرع يهود بني النضير في الجلاء عن المدينة وصاروا يحملون على الابل كل ما يقدرون

على حمله ، حتّى إن أحدهم صار يعمد الى عتبة باب داره فيخلعها ثم يضعها على ظهر البعير فينطلق .

وكان يهود بني النضير من أكثر أهل المدينة ثراءً ، وقد أوقروا ستمائة بعير من الأموال التي قدروا على حملها ، وكانوا (بالطبع) يتخيّرون في النقل ما خفّ حمله وغلا ثمنه ، فحملوا معهم كميات هائلة من الذهب والفضة ، حتّى إن سلاّم بن أبي الحُقيق وحده (كما يقول صاحب السيرة الحلبية) حمل معه جلد ثور مملوءاً ذهباً وفضة ، وكان عند خروجه من المدينة يضرب بيده على هذا الجلد المملوء بالذهب والفضة وهو يقول مخاطباً المسلمين (في حنق يشبه التهديد) : هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها وإن كنا تركنا نخلاً ، ففي خيبر النخل (٣٠) .

وكان اليهود عند مغادرتهم المدينة يعمدون إلى سُقُفِ بيوتهم وعمدها وجدرانها فينقضونها لئلا يستفيد منها المسلمون ، وهذا الذي عناه الله تعالى بقوله في هؤلاء اليهود ، في سورة الحشر : (يخربون بيوتهم بأيديهم) .

---

(٣٠) وهذا القول يدل بوضوح على أن اليهود كانوا (منذ أقدم العصور) يستغلون ثراءهم الواسع لاثارة القلاقل واشعال الحروب ، ويحاولون الوصول (دائماً) الى أغراضهم عن طريق سيطرتهم المالية كما هو مشاهد منهم اليوم حيث يعبثون (عن طريق الذهب) بكثير من ساسة العالم فيسخرونهم في سبيل أطماعهم السياسية .

مظاهرة اليهود عند الجلاء

وقد أظهر يهود بني النضير التجلد عند جلائهم ، فخرجوا من المدينة في شبه مظاهرة حيث غادروها في طوابير ، قد أركبوا النساء على الهودج في أبهى زينة، عليهن الديباج والحرير وقطف الخز الأخضر والأحمر وحلي الذهب والفضة ، تصحبهم فرق الموسيقى من القيان يضربن بالدفوف ويعزفن بالمزامير .

نموذج لحرية العقيدة

وقد جلا مع يهود بني النضير بعض أولاد الأنصار الذين اعتنقوا اليهودية ، فقد كانت المرأة من الأنصار (قبل الاسلام) اذا لم يعش لها ولد تجعل على نفسها عهداً إن عاش لها ولد تهوّده ، ولما أخذ يهود بني النضير في الجلاء وأخذ أبناء الأنصار يجلون معهم بحكم اتباعهم لدينهم – حاول الأنصار منع أولادهم من الجلاء قائلين : لا ندع أبناءنا يخرجون مع اليهود ، ولكن النبي (ص) – عملاً بحرية العقيدة – لم يمكّن الأنصار مما أرادوا ، ما دام أن أبناءهم قد دخلوا في اليهودية قبل الاسلام وجلوا مع بني النضير بمحض اختيارهم ، وقد اتخذ النبي (ص) هذا القرار ونفّذه بعد أن أنزل الله عليه: (لا إكراه في الدين) كما يقول إبن برهان الدين في السيرة الحلبية .

وجهة اليهود بعد الجلاء

وقد اتجه اليهود عند الجلاء بعضهم الى أذرعات الشام

وبعضهم الى خيبر وهم الأكثرية ، وكان من الذين نزلوا خيبر من أكابرهم حُيي بن أخطب وسلاّم بن أبي الحُقيق وكنانة بن الربيع ، وقد دانت خيبر لهؤلاء الزعماء الذين اتخذوا منها فيما بعد) قاعدة للتآمر على المسلمين كما سيأتي تفصيله ان شاء الله .

وقد اسلم من يهود بني النضير رجلان هما يامين بن عمير (٣١) (ابن عم عمرو بن جحاش الذي أوكلت اليه مهمة القيام باغتيال النبي (ص) وابو سعد بن وهب(٣٢) ، فقد قال أحدهما لصاحبه : والله إنك لتعلم أنه رسول الله ، ثم اتفقا على الدخول في الاسلام ، فأسلما ، وكان إسلامهما أيام الحصار حيث نزلا (ليلاً) من حصون بني النضير واتصلا بالنبي (ص) ثم أعلنا إسلامهما فأحرزا أموالهما .

وقد تقرّب يامين بن عمير الى الله تعالى بدم ابن عمه (عمرو بن جحاش) الذي أراد أن يلقي الحجر على الرسول (ص) لقتله ، وذلك أن عميراً جعل خمسة أوسق من تمر لرجل من قيس إنْ هو قتل عمرو بن جحاش فقام القيسي بقتله غيلة قبل استسلام بني النضير .

---

(٣١) قال في الاصابة .. هو يامين بن عمير بن كعب النضري ، ذكره ابن عبدالبر فقال : كان من كبار الصحابة ، ولم أطلع على تاريخ وفاته .

(٣٢) أبو سعد بن وهب النضري ، أخرج له ابن سعد حديثاً عن رسول الله (ص) من رواية ابنه اسامة بن ابي سعدعن ابيهقال.. شهدت رسول الله (ص)يقضي في سيل (مهروز) أن يحبس الاعلى عن الاسفل حتى يبلغ الكعبين ثم يرسل .

وبالرغم من الحرية المطلقة التي أعطاها النبي لبني النضير ليحملوا كل ما يقدرون على حملة من أموالهم فإنهم قد تركوا للمسلمين مغانم كثيرة ومنها خمسون درعاً وثلاثمائة وأربعون سيفاً وغلال عظيمة مع مساحات شاسعة مزروعة بالنخيل وغيرها من الزروع .

مصير غنائم بني النضير

ومن الجدير بالذكر أن النبي (ص) لم يقسّم غنائم يهود بني النضير كما تقسم غنائم الحرب على المقاتلين المسلمين كما هو المتبع ، وانما قسم هذه الغنائم على المهاجرين دون الأنصار ، وذلك بعد استشارة الانصار وأخذ موافقتهم على ذلك .

فقد جمع الأنصار ووقف فيهم خطيباً قائلاً .. إن إخوانكم المهاجرين ليس لهم أموال ، فإن شئتم قسمت هذه الأموال (يعني ما ترك بنو النضير) التي أفاء الله عليّ وخصني بها مع أموالكم بينكم جميعاً ، وان شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت فيهم هذه خاصة ، فقالوا .. بل أقسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا ما شئت (٣٣) فسرّ النبي (ص) لموافقة الأنصار على طلبه واغتبط بتلك الروح الكريمة التي أظهروها نحو إخوانهم من المهاجرين حتى انه (عليه الصلاة والسلام)

---

(٣٣) السيرة الحلبية ج٢ ص ٦٠ .

قال .. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار . وفي موقف الأنصار المشرّف هذا ، أنزل الله تعالى (ممتدحاً فعلهم الحميد هذا) قوله جل وعلا : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (٣٤) .

ولم يعط النبي (ص) أحداً من الأنصار شيئاً من غنائم يهود بني النضير إلاّ رجلين (كانا محتاجين) وهما سهل بن حنيف وأبودجانة سمّاك بنخرَشة (٣٥) وكانا من أبطال معركة أُحُد الذين ثبتوا مع النبي (ص) ساعة انهزام المسلمين . وقد أعطى النبي (ص) سيف سيد بني النضير (سلاّم بن أبي الحقيق) لسيد الأوس سعد بن معاذ ، وكان ذلك السيف له ذكره عند العرب .

تألم المنافقين لجلاء اليهود

وقد تأثر المنافقون لجلاء بني النضير تأثراً كبيراً ، فنزل بهم من الغمّ والهمّ أمر عظيم ، لأن هؤلاء اليهود كانوا لهم سنداً وعضداً في مقاومتهم للنبي (ص) ، لذلك حزن هؤلاء المنافقون (وخاصة عبدالله بن أُبيّ) لجلاء اليهود حزناً شديداً .

وبجلاء يهود بني النضير عن المدينة لم يبق من هذا العنصر الخطر في منطقة يثرب سوى قبيلة بني قريظة الذين كانت

---

(٣٤) الحشر ٩ .

(٣٥) أبو دجانة وسهل بن حنيف انظر ترجمتهما في كتابنا (غزوة أحد) .

نهايتهم الابادة الكاملة على أيدي المسلمين بسبب ارتكابهم الخيانة العظمى في معركة الأحزاب كما سيأتي تفصيل ذلك ان شاء الله . فقد عفا عنهم النبي بالرغم من محاربتهم في جانب بني النضير .

القرآن وجلاء بني النضير

وقد أنزل الله تعالى في حادثة إجلاء يهود بني النضير سورة الحشر بأكملها فقال تعالى (مشيراً إلى جلاء يهود بني النضير).. « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب (٣٦) » الى آخر الآيات الكريمة .

وقد تضمنت سورة الحشر نصاً صريحاً بأن ما تركه يهود بني النضير من أموال يجب أن يكون تحت تصرف النبي (بصفة خاصة) ليس لأحد من المحاربين فيه شيء وهو قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » الآية .

---

(٣٦) الحشر الآية ٢ — ٣ — ٤ .

وبالرغم من هذا النص الصريح فان النبي (ص) – تطييباً لخاطر الأنصار – قد أستأذنهم عندما عزم أن يخص المهاجرين بغنائم يهود بني النضير .

كذلك جاء في سورة الحشر تبكيت للمنافقين الذي حرّضوا بني النضير على رفض الانذار النبوي وشجعوهم على مقاومة المسلمين وأكّدوا لهم الوقوف بجانبهم حتّى الموت ثم خذلوهم فقال تعالى :

« ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قُوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون .. لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولّن الأدبار ثم لا ينصرون » (٣٧) .

٤ – غزوة ذات الرقاع

(جمادى الاولى من السنة الرابعة للهجرة) .

وهي الحملة العسكرية الرابعة الّتي قام بها المسلمون بعد معركة أُحد وقبل معركة الاحزاب .

وقد قاد هذه الحملة النبي (ص) بنفسه الى ديار غطفان من أرض نجد الواقعة بين السعد والشقرة ، وكانت القوة الّتي

---

(٣٧) الحشر ١١ – ١٢ .

قادها النبي في هذه الحملة تتكون من أربعمائة مقاتل .

وكان الهدف من هذه الحملة هو ضرب أعراب نجد من قبيلة غطفان في منازلهم ، فقد تلقت استخبارات الجيش الاسلامي أن محارب وبني ثعلبة من غطفان قد اعتزموا الإغارة على المدينة مستهينين بالمسلمين بعد الذي أصابهم في معركة أُحُد ، وانهم لذلك أخذوا في التحشد .. استقت استخبارات المدينة هذه المعلومات من رجل جاء الى المدينة بجلب له .

ولم يتردد النبي (ص) في إصدار الأوامر بالتأهب بسرعة للزحف على هذه القبيلة عندما بلغه نبأ تحشّدها لأن المسلمين كانوا يتوقعون ذلك من غطفان لأنها أقوى وأشجع قبيلة محاربة في نجد وعلى عداء شديد للمسلمين ، وهي من الكثرة بحيث تستطيع حشد عدة آلاف في وقت وجيز ، وقد كان رجال هذه القبيلة هم العمود الفقري لغزوة الاحزاب التي هي موضوع كتابنا هذا . وكان هدف الرسول (ص) أن يتمكن من مداهمة هذه القبيلة قبل أن تتحرك قواتها من منازلها ، وهذه ثاني مرة يسارع النبي (ص) الى غزو غطفان في ديارهم ، فقد قام بتأديبهم في حملة عسكرية قبل هذه الى مكان من ارض نجد يقال له (ذي أمر) وذلك بعد غزوة بدر وقبل معركة أحد .

أمير المدينة بالنيابة

وعندما اعتزم النبي (ص) مغادرة المدينة بقوته في اتجاه

غطفان أصدر (كما هي عادته) مرسوماً عيّن بموجبه عثمان بن عفان حاكماً على المدينة ينوب عنه مدة غيابه في هذه الغزوة .

وفي شهر جمادى الاولى من السنة الرابعة للهجرة تحركت القوات الاسلامية من المدينة (بسرعة) في اتجاه غطفان بقيادة النبي (ص) .

ويظهر أن قبائل غطفان هذه المرة كانت أسرع في التحشد ، وذلك ان الجيش الاسلامي لم يكد يصل الى مكان يقال له (نخلا) وعلى مرحلتين فقط من المدينة حتى وجد قوات غطفان قد استعدت له بجمع عظيم .

فتقارب الفريقان إلاّ أنهم توافقوا حيث خاف الناس بعضهم بعضا ، ولم يحدث اشتباك وإنما ظل الفريقان متوافقين مدة من الزمن دون أن يبدأ أحدهم بالهجوم على الآخر .

الاّ ان قبائل غطفان في النهاية فضّلت الانسحاب من مكان التلاقي فانهزمت وتفرّق رجالها في رؤوس الشعاب ، ويظهر أن المسلمين لم يتعقبوهم في انهزامهم وإنما اكتفوا بتشتيتهم ، وبهذا حققوا الغرض الرئيسي الذي تحركت قوات المدينة من أجله ، ولم يغنم المسلمون شيئاً من أموال غطفان ولم يقع أحد منهم في أسر المسلمين اللهم إلاّ بعض نسائهم وقعن سبايا كما هو العرف السائد بين المتحاربين في ذلك الظرف .

صلاة الخوف في هذه الغزوة

وفي غزوة ذات الرقاع صلى المسلمون (ولأول مرة صلاة الخوف) وذلك بسبب تواقف الفريقين مدة من الزمن واضطرار المسلمين الى مواجهة العدو وعليهم السلاح مدة غير قصيرة.

وكان مشركو غطفان يعلمون أن المسلمين يقومون بأداء الصلاة جماعة في أوقات مختلفة، فكانوا يترقبونهم محاولين أخذهم على حين غرة وكبسهم ساعة أداء فروض الصلاة.

فأوحى الله الى النبي (ص) بهذا الصدد وبيّن له الخطة التي بها يتمكن هو وأصحابه من أداء الصلاة في حالة الحرب مع الاستمرار في مواجهة العدو والاستعداد له وحراسة معسكر الاسلام ساعة أداء الصلاة.

والقرآن الكريم هو الذي رسم للمسلمين صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو وهي المسماة في الفقه الاسلامي بصلاة الخوف، فقال تعالى:

« وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلّوا، فليصلّوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم .. ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم

وخذوا حذركم إن الله أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً (٣٨) . وقد ظلت هذه الخطة التي رسمها القرآن لصلاة المجاهدين الذين هم في حالة تهيؤ للحرب هي الأصل الذي يسير عليه المؤمنون في صلاتهم (ساعة الحرب) في كل العصور .

وفي هذه الغزوة ، لما كان العدو في غير جهة القبلة فرّق النبي (ص) أصحابه (ساعة الصلاة) فرقتين ، فرقة أمرها بعدم مباشرة الصلاة وأن تقف في وجه العدوّ ثم صلىّ هو بالفرقة الثانية ركعة ، وعند قيامه للركعة الثانية فارقته الفرقة التي كانت تصلي معه وأتمت بقية صلاتها منفردة ثم انسحبت من المصلىّ ووقفت في وجه العدوْ محل الفرقة الأولى التي لم تصلّ والتي اتجهت الى المصلى حيث اقتدت بالنبي (ص) الذي كان في ركعته الثانية فأدّت خلفه ركعة ، وفي التشهد الأخير من صلاة النبي (ص) تركته هذه الفرقة جالساً ينتظرها حتى أتمت بقية صلاتها ثم لحقته في جلوس التشهد اياه فسلّم بها ، وهذه الكيفية هي في الصلاة الرباعية التي أمر الاسلام باختصارها ركعتين في السفر دائماً .

تحقيق الحملة أغراضها

وهكذا انصرف النبي (ص) من غزوة ذات الرقاع دون أن يلقى حرباً ، إلاّ ان حملته العسكرية هذه قد حققت

---

(٣٨) النساء ١٠٢ .

أغراضها كاملة .

وذلك انه بحركته العسكرية السريعة هذه قد تمكن من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درساً بأن المسلمين ليسوا قادرين (فقط) على سحق من تحدّثه نفسه بالاقتراب من المدينة بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدوّ نفسه وضربه في عُقْر داره .

وهذا هو الذي جعل قبائل نجد المشركة تتبخر من رؤوس زعمائها جميعاً فكرة غزو المسلمين في عقر دارهم فلم يجرأوا على غزو المسلمين إلاّ عندما طلب منهم اليهود المشاركة (مع قريش) في غزوة الاحزاب التي هي موضوع كتابنا هـذا .

وهكذا انصرف النبي بجيشه من ديار غطفان وقد سجّل نصراً ساحقاً كان له أبلغ الأثر لا في نفوس قبائل غطفان وحدها بل في نفوس جميع القبائل النجدية التي كانت تطمع في المسلمين وتحدّث نفسها بالاغارة عليهم متوهمة ضعفهم بعد الانتكاسة التي أصابتهم في معركة أُحُد .

والنصر الساحق هذا يتجسد في أن النبي (ص) استطاع بحركته السريعة هذه الى ديار نجد أن يرهب أعظم القبائل النجدية (غَطَفان) ويشتت جموعها العظيمة تلك التي ما كانت لتنفضّ حتى تغير على المدينة لولا أن الله تعالى ألهم

الرسول القائد المحنّك فقام بتلك الحركة السريعة وباغت (كما هي عادته في تأديب الأعراب) تلك الجموع الغطفانية وهي لمّا تزل في ديارها.

محاولة اغتيال النبي للمرة الرابعة

وفي غزوة ذات الرقاع (هذه) تعرّض الرسول (ص) لمحاولة إغتيال رابعة، وذلك أنه بينما كان الفريقان متواقفين في أرض غطفان، إذ أقبل رجل من بني محارب واسمه (غورث)، وكان تعهد لقومه بقتل النبي (غيلة). أقبل هذا الرجل (غورث) الى النبي (ص) في صورة المسالم حتى وقف عليه (ص) وهو مدجج بسلاحه وفي حجره السيف.

فطلب من النبي (ص) أن يسمح له بالنظر الى سيفه وفحصه قائلاً.. يا محمد أنظر الى سيفك هذا؟. قال نعم.. وكان السيف جميلاً باتراً ومحلّى بفضة.

قال ابن هشام فأخذ السيف غورث ثم استله وجعل يهزه ويهم برسول الله (ص) فيدب الرعب في نفسه فيتخاذل وبعد أن كبته الله ورجع عن تنفيذ مخطط اغتيال الرسول (ص) قال:

يا محمد أما تخافني؟. قال.. لا، وما أخاف منك؟، قال.. أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال.. لا.. يمنعني

الله منك .

وبعد ذلك أرجع غورث السيف الى رسول الله (ص) ، وبعد أن أخذ الرسول (ص) السيف قال لغورث .. من يمنعك مني ؟.

فقال (يا محمد) .. كن خير آخذ .

قال .. تشهد أن لا اله الا الله ، وأني رسول الله .

قال .. أعاهدك على أني لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلّى النبي (ص) سبيله ، فجاء الى قومه ، فقال جئتكم من عند خير الناس. وأسلم بعد ذلك وكانت له صحبة .

حادثة مثيرة

وفي غزوة ذات الرقاع هذه حدثت حادثة لا بد من سرد ذكرها لأنها تعطي درساً للشباب المسلم في الايمان والرجولة والثبات على العقيدة والتمسك بالنظام ، وتكشف للقارىء عن سر قيام الدولة الاسلامية وانتشار العقيدة الاسلامية على أيدي أولئك الرجال من صحابة محمد بتلك السرعة التي أذهلت الدنيا .

ففي ليلة شاتية ذات ريح مزعجة من ليالي هذه الغزوة نزل النبي (ص) بجيشه في شعب من شعاب نجد فطلب انتخاب من يقوم بالحراسة ، فقال .. من يكلؤنا هذه الليلة ؟.

فقام عبّاد بن بشر(٣٩) وعمّار بن ياسر(٤٠) (رض) فقالا.. نحن نكلؤكم ، ثم رابطا على فم الشعب، فقال عبّاد بن بشر لعمار بن ياسر : أنا أكفيك أول الليل وتكفيني آخره. فنام عمار وقام عبّاد يصلي وكان أحد رجال العدو يتربص قريباً من المعسكر (وكان قد حلف أن لا ينثني حتى يصيب محمداً أو يهريق في أصحابه دما)، فلما رأى سواد عبّاد قال.. هذا ربيئة القوم (أي حرسهم) فصوّب نحوه سهماً فأصابه، فانتزعه عبّاد فرماه دون ان يخرج من صلاته، فرماه بسهم

(٣٩) هو عباد بن بشر بن وقش بن زغبة الاشهلي الانصاري ، كان من السابقين الاولين الذين أسلموا على يد سفير الاسلام الاول الى المدينة (مصعب بن عمير)، اسلم قبل سيد الخزرج سعد بن عبادة ، آخى الرسول (ص) بينه وبين ابي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، كان في الذروة من الفضل والشرف ، قالت عائشة.. ثلاثة من الانصار لم يكن احد يعتد عليهم فضلا كلهم من بني عبد الاشهل (أسيد بن حضير.. وعباد بن بشر وسعد بن معاذ). كان عباد بن بشر قائد الحرس النبوي ليلة الخندق ، وقد شهد مع رسول الله (ص) كل المشاهد بدراً وأحداً والخندق وغيرها ، وكان فيمن اشترك في قتل الطاغية كعب بن الاشرف ، وكان عباد كذلك (قائد الحرس النبوي في غزوة تبوك) قال ابن سعد في طبقاته ، استشهد عباد بن بشر في معركة اليمامة عام اثني عشر وهو ابن خمس واربعين سنة ، وكان عباد بن بشر في الذروة من الشجاعة والنجدة ، قال أبو سعيد الخدري نظرت الى عباد بن بشر يوم اليمامة وانه ليصيح : أخلصوا أخلصوا ، فأخلصوا أربعمائة رجل من الانصار ما يخالطهم احد، يقدمهم عباد بن بشر وأبو دجانة ، والبراء بن مالك حتى انتهوا الى باب الحديقة (مقر قيادة مسيلمة الكذاب) فقاتلوا أشد القتال، وقتل عباد بن بشر رحمه الله ، فرأيت بوجهه ضرباً كثيراً ما عرفته الا بعلامة كانت في جسده.

(٤٠) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) طبعة ثانية.

آخر فانتزعه واستمر في صلاته فلما ، غلبـه نزيف الدم خشي أن يغمى عليه فيبقى الجيش بدون حارس ، فنبّه عمّاراً وقال له (معتذراً) .. لولا أنني خشيت أن أضيع ثغراً أمرني به رسول الله (ص) ما أنصرفت ولو أتِيَ على نفسي (٤١) .

عودة النبي الى المدينة

وقد استغرقت العمليات العسكرية في غزوة ذات الرقاع خمس عشرة ليلة عاد بعدها النبي (ص) الى المدينة بجيشه ، وكان قد بعث أمامه رجلاً من أصحابه اسمه جعال بن سراقة مبشراً بقدومه وعودة الجيش الاسلامي سالماً ظافراً .

وقد سميت هذه الغزوة (بغزوة ذات الرقاع) لأن الجبل الذي نزل به الجيش الاسلامي في أرض غطفان كانت حوله أرض ذات ألوان تشبه الرقاع فيها بقع حمر وسود وبيض، ويقال سميت بهذا الاسم، لأن كثيراً من رجال الجيش كانوا حفاة لا نعل لهم فلفّوا على أقدامهم الخرق لمّا حصل لهم الحفاء ..

٥ ـ غزوة بدر الآخرة (شعبان السنة الرابعة للهجرة) .

وهي الحركة العسكرية الخامسة التي قام بها المسلمون

---

(٤١) السيرة الحلبية ج٢ ص ٦٣ .

ضد أعدائهم بعد معركة أحُد وقبل غزوة الأحزاب ، وقد كان هدف هذه الحملة هو تحدّي معسكر الشرك في مكة ووفاء بالوعد الذي أعطاه النبي القائد لزعيم قريش وقائدها أبي سفيان بن حرب يوم أحُد.

وذلك أن أبا سفيان بن حرب أشرف يوم أحُد من على جبل ونادى بأعلى صوته (متحدياً المسلمين).. الموعد بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول نلتقي بها فنقتتل ، فقال النبي (ص) لعمر بن الخطاب.. قل.. نعم إن شاء الله ، فافترقوا على ذلك.

وقد أخذ الفريقان يستعدان لخوض معركة ثانية في بدر ، وكان المتوقع أن تكون رهيبة أعنف من معركة بدر الأولى ، لضخامة القوات التي كان الجانبان قد جهزاها لخوضها ، لولا أن أبا سفيان قائد عام جيش مكة قد تخاذل وجبن عن اللقاء بعد أن فصل من مكة (في اتجاه بدر) بجيش بلغ عدد رجاله ثلاثة آلاف مقاتل ، فرجع بهذا الجيش الى مكة قبل أن يتجاوز منطقة القضيمة. (٤٢)

أما جيش المدينة الذي بلغ ألفاً وخمسمائة مقاتل فقد تحرك من المدينة يقوده النبي (ص) بنفسه في اتجاه بدر وواصل زحفه حتى نزل بدراً وعسكر فيها وفاءً بالكلمة التي أعطاها النبي (ص) لقائد عام جيش مكة يوم أحُد.

---

(٤٢) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٥٩ .

مناورة أبي سفيان لتفادي المعركة

أما أبو سفيان فانه لما كان هو الذي تحدّى المسلمين وطلب منهم – تحت تأثير نشوة النصر الموقت الذي أحرزه في أحُد – الموافقة على ملاقاة جيش مكة في بدر ، فقد وجد نفسه – بعد أن ذهبت عنه سكرة الانتصار المزيف – ملزماً بأن يفي بوعده فيلاقي بجيش مكة جيش المدينة في بدر وفي الميعاد المحدد .

ولكنه كقائد مسئول يقدّر النتائج خشي ملاقاة المسلمين ، وكان شديد الرغبة في أن لا يحدث هذا اللقاء غير أنه كان على يقين بأن القائد الأعلى للجيش الاسلامي (النبي) لن يخلف الميعاد وأنه لا بد زاحف الى منطقة بدر وفاء بالكلمة التي أعطاها .

ولذلك فان أبا سفيان (وقبل أن يتحرك الجيش النبوي من المدينة) قام بمناورة قصد بها تخويف المسلمين لعلّهم يعدلون عن الخروج الى بدر فيحصل له ما أراد ، دون أن يفهم العرب أنه نكل عن الحرب .

فقد أرسل الى المدينة من يشيع بين المسلمين أن قريشاً قد خرجت الى بدر بجيش لم تشهد الجزيرة العربية مثله في الضخامة والتنظيم ، وذلك لتثبيط المسلمين وبث الرعب في نفوسهم .

أبو سفيان يستأجر نعيم بن مسعود للارجاف

وقد استأجر زعيم مكة أبو سفيان للقيام بهذه المهمة رجلاً اسمه نعيم بن مسعود (٤٣) اذ جعل له أبو سفيان مكافأة عشرين بعيراً إن هو قام بهذه المهمة .

حيث قال له .. إنه بدا لي أن لا أخرج وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا .. فيزيد المسلمين ذلك جرأة ، فلأن يكون الخُلف من قبلهم أحبّ اليّ من أن يكون من قبلي ، فالحق بالمدينة وأعلمهم أنّا في جمع كثير ولا طاقة لهم بنا ولك عندي من الابل كذا وكذا أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو (٤٤) .

وبعد أن ضمن سهيل بن عمرو لنعيم بن مسعود ما تعهد أبو سفيان بدفعه من الابـــل له ، سافر الى المدينة وأخذ يرجف بين المسلمين بكثرة جموع أبي سفيان ، وصار يطوف بذلك بين المسلمين في المدينة حتّى أثّر إرجافه تأثيراً كبيراً على المسلمين ساعده في ذلك اليهود والمنافقون .

تأثر المسلمين بالارجاف

ولقد قذفت إشاعة نعيم بن مسعود الرعب في نفوس المسلمين حتّى لم يبق لهم نية في الخروج (٤٥) وشاع ذلك

---

(٤٣) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد) .
(٤٤) انظر ترجمة سهيل بن عمرو (رض) في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .
(٤٥) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٧ .

في المدينة فسرّ اليهود والمنافقون سروراً عظيماً ، وقالوا .. محمد لا يفلت من هذا الجمع .

وغاظ أبا بكر وعمر ما سمعا من إرجاف وتثبيط بين المسلمين فجاءا مشجعين الى النبي (ص) يحضّانه على الخروج الى بدر لئلا يطمع المشركون فيهم ، فقالا له :

يا رسول الله .. إن الله مظهر نبيه ومعزّ دينه ، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحب أن نتخلّف عنه ، فيرون أن هذا جبن ، فَسِرْ لموعدهم ، فوالله إنّ في ذلك لخيرة ، فسرّ النبي (ص) بذلك وأعلن أنه خارج الى بدر قائلاً .. والذي نفسي بيده لأخرجنّ وإن لم يخرج معي أحد. ثم أعلن التعبئة ، فأذهب الله عن المسلمين ما كان قد أصابهم من الخوف نتيجة إرجاف نُعَيم بن مسعود ، وتسابق المسلمون الى حمل السلاح فاجتمع منهم حوالي ألف وخمسمائة مقاتل ، تحرّك بهم النبي (ص) نحو بدر ، وقد أعطى النبي (ص) راية الجيش لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) .

الأمير النائب على المدينة

وقبل ان يغادر الرسول (ص) المدينة أصدر مرسوماً عيّن بموجبه عبدالله بن عبدالله بن أبيّ بن سلول (٤٦) أميراً على المدينة ينوب عنه مدة غيابه في هذه الحملة .

---

(٤٦) انظر ترجمة عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول في كتابنا (غزوة أحد)

وقد وصل الجيش الاسلامي (فعلاً) الى بدر في اليوم المحدد، وعسكر بها ثماني ليال في انتظار جيش مكة، كما هو الاتفاق بين الفريقين.

ولكن قادة الجيش المكي جبنوا عن ملاقاة المسلمين وخافوا الاصطدام بهم بالرغم من أن قواتهم تبلغ ضعف قوات المسلمين التي خرجت للقائهم.

جيش مكة ينكل عن المعركة

فقد خرج أبو سفيان بالجيش المكي إلاّ انّ قادة هذا الجيش (وتحت تأثير عقدة الخوف المستحكمة في نفوسهم من المسلمين) آثروا السلامة وقرروا العودة بالجيش الى مكة بعد أن قطعوا في اتجاه بدر عدة مراحل، وكان عُسْفان هو المكان الذي عادوا منه الى مكة.

ففي هذا المكان اجتمع قادة الجيش المكي وزعماؤه وانتهى اجتماعهم بقرار يقضي بعودة الجيش والتوقف عن مواصلة الزحف الى بدر، والحجة التي برروا بها هذا التراجع هي أن الظروف غير ملائمة للحرب لأنها ظروف جدب وجفاف لا تتناسب وتحركات جيش ضخم مثل ذلك الجيش الذي عليه أن يقطع أكثر من ٢٥٠ ميلا.

أبو سفيان يخطب في الجيش

فقد وقف القائد العام للجيش المكي (أبو سفيان بن

حرب) خطيباً في الجيش معلناً أوامره بعودة الجيش الى مكة والعدول عن ملاقاة المسلمين وشارحاً الأسباب قائلاً :

يا معشر قريش .. إنه لا يصلحكم إلاّ عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا .

فأطاع الجيش الأوامر ، وعاد أدراجه الى مكة مفضلاً عار النكول على الهزيمة الساحقة الّتي يتوقع نزولها به لو أنه أقدم على ملاقاة المسلمين في بدر .

أما المسلمون فقد أقام بهم النبي (ص) في بدر ثماني ليال في انتظار الجيش المكي لخوض المعركة الفاصلة ، ولكنهم بعد أن بلغتهم أنباء انخذال الجيش المكي ونكوله عن الحرب ورجوعه من عُسْفان الى مكة عادوا الى المدينة .

ولقد محا الجيش الاسلامي بوصوله الى بدر آخر أثر من الآثار السيئة الّتي تركتها انتكاسة المسلمين في معركة أُحُد في السنة الماضية .

محو آثار هزيمة أُحد

لقد كانت تحركات الجيش الاسلامي من المدينة حتّى بدر مناورة رائعة ناجحة أثبت بها وجوده وأعطى الدليل القاطع لأعداء الاسلام — (داخل المدينة وخارجها) أنه أصبح أقوى قوة مرهوبة ، لا في منطقة يثرب فحسب بل

في جزيرة العرب بأجمعها .

ولا أدلّ على ذلك من أن جيش مكة ، وهو من أعظم الجيوش في الجزيرة من حيث كثرة العدد وقوة التنظيم وجودة التسلح قد هاب الجيش الاسلامي ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعاد سابق حدده (في تحدٍ) قائد عام جيش مكة نفسه .

ولا شك أن حملة بدر (الآخرة) التي قادها النبي (ص) قد كانت تحدياً صارخاً مهيناً لمعسكر قريش الوثني ، كما أنها كانت –كذلك– بمثابة إرهاب وتأديب لجميع القبائل العربية المعادية للاسلام ، والتي كانت –بعد ما أصاب المسلمين في أُحُد– تحدّث نفسها بالاعتداء عليهم .

فقد لزمت قريش الهدوء ولم تقم بأية حركة عسكرية ضد المسلمين بعد حملتهم هذه التي قاموا بها الى بدر حتى موقعة الأحزاب الفاصلة التي اشتركت فيها أكثر القبائل العربية المشركة .

ومما يدل على نجاح المناورة الكبيرة التي قام بها الجيش الاسلامي حتى بدر وأن المنطقة الشاسعة الممتدة من المدينة حتى بدر وما حواليها أصبحت تخشى بأس المسلمين ، بعد أن كان زعماؤها يُعِدّون العدة لسحقهم، هو أن مخْشِي بن عمرو الضّمري أحد زعماء قبائل منطقة بدر قد جاء الى النبي (ص) وهو معسكر بها في انتظار جيش مكة ، قال لـــه

(جاساً النبض وكالمحتج) .. يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء ـ أي ماء بدر الواقع في اراضي بني ضمرة ؟ ـ

فأجابه النبي (ص) ـ بلهجة القوي الواثق من نفسه وجيشه ـ نعم يا أخا ضمرة وإن شئت رددنا اليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك .

وكان النبي (ص) ـ قبل معركة بدر الكبرى ـ قد عقد بينه وبين قبائل بني ضِمْرة معاهدة عدم اعتداء، وذلك أثناء قيامه باحدى الدوريات الاستطلاعية في منطقة (وِدّان) في السنة الأولى من الهجرة .

لقد أسمع النبي (ص) سيد قبائل بني ضمرة هذا الجواب الذي عرض فيه إنهاء المعاهدة بينه وبين بني ضِمْرة ـ في منطقة تموج بالمسلحين من هذه القبائل ـ ولكن سيد بني ضِمْرة (مَخْشِي بن عمرو) قال للنبي (ص) ـ في تلطف ووجل ـ لا والله يا محمد ما لنا بذلك من حاجة ، وهذا دليل على أن قوة المسلمين العسكرية يوم ذاك بلغت درجة لم تخش معها أحداً من هذه القبائل وأن كل آثار انتكاسة أحد قد زالت .

٦ ـ غزوة دومة الجندل.. (المحرم السنة الرابعة للهجرة)

تقع دومة الجندل هذه في الطرف الشمالي الغربي للجزيرة العربية مما يلي الشام وعلى بعد ست عشرة ليلة من المدينة

وخمس ليال من دمشق .

وغزوة دومة الجندل هذه ، هي الحملة العسكرية السادسة التي قام بها المسلمون قبل معركة الاحزاب وبعد غزوة أُحُد .

وسبب تجريد هذه الحملة هو أن استخبارات الجيش النبوي حصلت على معلومات مفادها أن قبائل دومة الجندل قد أخذوا في التجمع لغزو المدينة ، وأنهم يخيفون الناس ويقطعون الطريق ويظلمون من يمر بهم .

وعلى عادة النبي المتبعة في سلوك خطة المباغتة وتأديب الأعراب بنقل المعركة الى مضاربهم بسرعة، جهز قوة خفيفة قوامها ألف مقاتل وأسرع بها في اتجاه دومة الجندل .

ولما كان المسلمون يجهلون تلك المسالك الشاسعة البعيدة اتخذوا أحد العذريين الخبيرين بتلك المناطق واسمه (مذكور) دليلاً الى دومة الجندل .

أمير المدينة بالنيابة

وقبل مغادرة النبي المدينة أصدر مرسوماً نبوياً عيّن بموجبه سبّاع بن عرفطة (٤٧) الغفاري أميراً على المدينة ينوب عنه حتّى عودته من هذه الغزوة .

---

(٤٧) هو سباع بن عرفطة الغفاري ويقال الكناني ، قال البخاري في التاريخ الصغير ، عن ابي هريرة انه قال .. قدمت المدينة والنبي (ص) بخيبر وقد استخلف على المدينة سباع بن عرفطة فشهدنا معه الصبح وجهرنا ، وهذا يعني أن النبي (ص) استعمله اميراً على المدينة مرتين .

وقد تحرك النبي (ص) بجيشه بأقصى سرعة ممكنة لكي يأخذ المحتشدين من الأعداء على حين غِرّة، وكان (زيادة في اخفاء خبر هذه الحملة يسير الليل ويكمن النهار حتى وصل مكان التجمع .

ولكن المحتشدين في دومة الجندل نقلت اليهم استخباراتهم خبر تحركات المسلمين قبل وصولهم اليهم بيوم تقريباً ، فبمجرد علم هؤلاء الأعراب المجتمعين في دومة الجنـدل بدنو الجيش الاسلامي من بلادهم انتابهم الرعب والخوف فتفرّقوا بسرعة تاركين منازلهم فراراً بأرواحهم .

وكان الدليل العذري ، قد أرشد المسلمين الى المراعي التي فيها سوائم بني تميم، فداهم الجيش تلك المراعي فاستولى على عدد كبير من مواشيهم ، وقد فر الرعاة بما أمكنهم الفرار به من المواشي .

نجاح الحملة

ثم واصل الجيش تقدمه حتى نزل منازل القوم فلم يجد بها أحداً ، فعسكر بها أياماً وبث الدوريات العسكرية لتتعقب فلولهم ، فانتشرت في المنطقة ، ولكنها وجدتهم قد تفرقوا واختفوا، ولم تجد الدوريات الا رجلاً واحداً أتوا به رسول الله (ص) فسأله عن قومه ، فأخبره أنهم هربوا قبل وصول الجيش بيوم واحد ، فعرض عليه الرسول (ص) الاسلام فأسلم .

المغزى البعيد للحملة

ولا يستبعد أن يكون الرسول (ص) قد قصد بهذه الحملة العسكرية التي قطع بها الى دومة الجندل ست عشرة ليلة .. لا يستبعد أن يكون قصد بها إرهاب الرومان الذين تقع المنطقة التي وصل اليها بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليال من عاصمة ملكهم الثانية دمشق.

بل لقد أكد الواقدي هذا في مغازيه ، كما نقل عنه ابن كثير في البداية والنهاية حيث قال .. قال محمد بن عمر الواقدي باسناده عن شيوخه عن جماعة من السلف قالوا .. أراد رسول الله (ص) أن يدنو الى أدنى الشام ، وقيل له .. إن ذلك مما يفزع قيصر.

مدة الحملة

وقد عاد الرسول (ص) من هذه الغزوة الى المدينة بعد غيبة استغرقت حوالي خمسين يوماً ، واثناء عودته من غزوة دومة الجندل عقد مع الزعيم الفزاري المعروف (عيينة بن حصن) معاهدة عدم اعتداء ، وبموجب هذه الموادعة سمح النبي (ص) لعيينة بن حصن أن يرعى بأرض تابعة للمسلمين تقع على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة ، لأن الزعيم الفزاري هذا اشتكى للنبي جدب أرض فزارة بنجد.

٧ - غزوه بني المصطلق ... (٤٨) .

(أول شعبان سنة أربع من الهجرة) .

وبنو المصطلق بطن من خزاعة الحجاز. تقع منازلهم ناحيه (قُدَيد) وعلى بعد حوالي مائة وسبعين ميلاً من المدينة .

وسبب هذه الغزوة أن الاستخبارات الاسلامية نقلت الى النبي (ص) نبأ مفاده أن سيد بني المصطلق (الحارث بن أبي ضرار) (٤٩) قد أخذ يحشد قومه ومن أطاعه من قبائل العرب المجاورة لحرب رسول الله (ص) وأنه قد جمع جموعاً كبيرة يريد بها غزو المدينة .

فسارع الرسول (ص) وأرسل أحد رجال استخباراته الأذكياء المحنكين ليستطلع له وينظر فيما اذا كان الخبر الذي تلقاه صحيحاً أم لا ، وكان الذي وقع عليه الاختيار لهذه المهمة هو بريدة بن الحصيب الأسلمي (٥٠) .

---

(٤٨) بنو المصطلق (بطن من خزاعة من القحطانيين الذين نزحوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب) واسم المصطلق ، جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة ، كانت لهم في الجاهلية وقائع حربية شهيرة ، مع هذيل من العدنانية .

(٤٩) هو الحارث بن ابي ضرار بن خبيب بن عائذ بن مالك بن المصطلق الخزاعي ، قائد هذه القبيلة العظيمة في تلك المعركة الخاسرة ، وهو والد جويرية أم المؤمنين ، أسلم بعد غزوة بني المصطلق ، وحسن اسلامه .

(٥٠) هو بريدة بن الحصيب بن عبدالله الاسلمي ، قال ابن السكن ، أسلم حين مر به النبي (ص) - مهاجراً - بالغميم .. من فضلاء الصحابة ، وفي الصحيحين أنه غزا مع رسول الله (ص) ست عشرة غزوة ، وكان من قادة الفتح الاسلامي ، غزا خراسان في خلافة أمير المؤمنين عثمان ، وتوفي في خلافة يزيد بن معاوية .

وقبل أن يغادر رجل الاستخبارات النبوية المدينة طلب من الرسول (ص) ان يسمح له باللجوء الى الكذب على العدوّ إذا ما اضطر الى ذلك أثناء قيامه بمهمته في أرض العدو، فسمح له بذلك كضرورة يلجأ اليها رجل الاستخبارات في مثل هذه المواقف.

وبأقصى سرعة انطلق رائد الاستخبارات النبوية (بريدة) ولم تمض أيام قليلة حتّى كان بين بني المصطلق في مضاربهم، وبعد إجراء التحري اللازم وجد الخبر صحيحاً.

وقد استقى الحقيقة من مصدرها اذ قابل قائد الحشد الحارث بن أبي ضرار نفسه، وبعد أن عرّفه بنفسه منتحلاً إسماً غير اسمه ومنتسباً الى غير قبيلته وأنه جاء للانضمام الى الحشد لحرب محمد، سأل الحارث هل هو مصمم على غزوالمدينة، فأكد له ذلك قائلاً: فنحن على ذلك فعجّل علينا بأصحابك، فصافحه بريدة مودعاً على أن يأتي بقومه للانضمام الى الحشد ثم أركض فرسه وانصرف.

طار بريدة على فرسه (وبأقصى سرعة) وصل المدينة وأخبر الرسول الخبر وأطلعه على تفاصيل ما رأى، فاستنفر الرسول قوات الجيش وأعلن انـه ذاهب الى ديار بني المصطلق لضربهم وتأديبهم، فتمت التعبئة بسرعة، وفصل النبي (ص) من المدينة بجيش كبير فيه من سلاح المطاردة ثلاثون فرساً.

أمير للمدينة بالنيابة

وقبل مغادرته المدينة عين عليها أميراً زيد بن حارثة . وقد قسم النبي (ص) جيشه الزاحف علــى بني المصطلق الى قسمين :

آ .. المهاجرون ، واعطى رايتهم لأبي بكر الصديق(رض).

ب .. الأنصار ، وأعطى رايتهم لسيد الخزرج سعد بن عبادة (رض) .

المنافقون في الجيش

وفي هذه الحملة خرج مع الرسول جمع كبير من المنافقين لم يخرج مثله في غزاة مثلها قط ، وكان من بين هؤلاء المنافقين رأس النفاق (عبدالله بن أبيّ بن سلول) .

سار النبي (ص) بجيشه يحث السير لكي يأخذ بني المصطلق على حين غِرّة ، وأثناء تحركات الجيش الاسلامي قبض رجال استخبارات هذا الجيش على رجل اشتبهوا في أمره ، فجاؤا به الى النبي القائد(ص)، ولدى استجوابه اتضح أنه جاسوس للعدوّ أرسله زعيم بني المصطلق للاستكشاف ومعرفة تحركات الجيش الاسلامي ، وبعد استجوابه عرض النبي على هذا الجاسوس الاسلام فأبى ، فأمر بإعدامه في الحال ، وكان الذي تولى إعدامه (ضرباً بالسيف) عمر بن الخطاب (رض) بأمر خاص من النبي (ص) .

وفد بلغ قائد الحشد في بني المصطلق نبأ إعدام جاسوسه فانزعج لذلك، وشاع خبر مقتل الجاسوس بين القبائل التي كانت قد تجمعت مع الحارث لحرب النبي، وبلغها خبر زحف النبي بجيشه عليهم فخافوا خوفاً شديداً. فتفرق لذلك عن الحارث كثير ممن اجتمعوا اليه لحرب النبي (ص).

وواصل النبي (ص) السير بجيشه حتى فاجأ بني المصطلق في مكان تحشدهم في قُدَيد بالقرب من ساحل البحر الأحمر على ماء لهم يقال له المريسيع (٥١) فعسكر هناك.

نشوب المعركة وانهزام العدو

وبعد أن تصاف الفريقان وقبل أن يعطي الرسول (ص) شارة الهجوم أمر عمر بن الخطاب أن يتوجه الى بني المصطلق بنداء يدعوهم فيه الى الدخول في الاسلام ليحتنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم.

فوقف ابن الخطاب ونادى.. يا بني المصطلق. قولوا لا اله الا الله تمنعوا بها أنفسكم (٥٢) وأموالكم.. فرفضوا وأبوا إلاّ الكفر والحرب.

ثم ترامى الفريقان بالنبل. وبعدها أعطى الرسول إشارة

---

(٥١) قال في مراصد الاطلاع (بالضم ثم الفتح وياء ساكنة وسين مهملة مكسورة وياء أخرى وآخره عين مهملة) ورواه بعضهم بالغين المعجمة.. ماء من ناحية قديد الى الساحل، به غزوة النبي (ص) الى بني المصطلق.

(٥٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٧٠.

الهجوم فحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد ثم أحاطوا بهم فما أفلت منهم رجل واحد .

فقد استسلموا جميعهم للأسر بعد أن سقط منهم عشرة قتلى ، ثم استولى الجيش الاسلامي على منازلهم وعلى كل ما فيها واستاق كل ما يملكون من الخيل والشاة والابل ، وسبي نساءهم وذراريهم .

الأسرى والغنائم

وقد كانت الغنائم في هذه الغزوة عظيمة جداً ، فقد بلغت الغنائم من الابل ألفي رأس وخمسة آلاف شاة ، كما ان عدد السبي من النساء والذراري بلغ سبعمائة (٥٣) بينهم جويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق وقائد الحشد المهزوم ، وقد تزوجها رسول الله (ص) بعد أن افتداها أبوها وأسلمت وأسلم أبوها .

وبعد أن تم جمع الغنائم ووضْعُ الأسرى من الرجال في القيود ، وفي مكان للمعركة قسم الرسول (ص) الغنائم بين المحاربين حسب النظام المتبع في قانون الحرب الاسلامي .

فأعطى لفارس ثلاثة أسهم ، سهمان للفرس وسهم لصاحبه، وأعطى للراجل سهماً واحداً بعد أن أخذ (ص) خُمُس

---

(٥٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٧٠ .

الغنيمة ليتصرف فيها وفق المصلحة العامة وتمشياً مع النص الثابت في القرآن الكريم وهو قوله تعالى: (واعلموا أن ما غنمتم من شيء ، فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية (٥٤).

أما الاسرى والسبايا من النساء والذرية فقد أطلق النبي (ص) سراح بعضهم (مناً) والبعض الآخر دفع أهله فديته فأطلق سراحه في مكان المعركة.

وقد حمل الجيش معه الى المدينة بعض الأسرى والسبي ، ولكن أهلوهم لحقوا بهم فافتدوهم (اي دفعوا مقابل اطلاق سراحهم مبلغاً معلوماً من المال) ، فلم تبق إمرأة من بني المصطلق وقعت في السبي الا رجعت الى أهلها ، اللهم إلا جويرية بنت الحارث التي تزوجها النبي (ص).

ولم يقتل النبي (ص) أحداً ممن وقع في الأسر من بني المصطلق ، .

اطلاق سراح جميع الاسرى

ولما علم المسلمون بتزوج النبي (ص) من جويرية بنت الحارث ، قالوا (في حق بني المصطلق) .. أصهار رسول الله (ص) ثم أعتقوا كل من بقي في أسرهم من الرجال

(٥٤) الانفال ٤١ .

والنساء إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الذين تم عتقهم بلا فدية من بني المصطلق أهل مائة بيت، فكانت عائشة (رض) تقول.. لا أعلم إمرأة أعظم بركة على قومها من جويرية، أُعتِقَ بتزويجها لرسول الله (ص) أهل مائة بيت (٥٥).

المنافقون يثيرون الفتنة داخل الجيش

وفي غزوة بني المصطلق هذه كادت تنشب حرب أهلية طاحنة بين المسلمين وهم في ديار بني المصطلق. وذلك أن رجلاً من غِفار حليف للمهاجرين إسمه جهجاه، وسنان بن وبر الجهني حليف الخزرج تخاصما على الماء، فصرخ الغفاري مستغيثاً.. يا لكنانة، وصرخ الجهني يا للانصار، وعندها أقبل جمع من الفريقين (الأنصار وقريش) وقد شهروا السلاح حميّة فكادت تحدث فتنة ومعركة دامية لولا أن الرسول (ص) بادر بالخروج الى مكان الحادث وقضى على الفتنة بحكمته المعروفة.

حيث وقف (ص) في ذلك الحشد من المسلمين مستنكراً ما حدث قائلاً.. ما بال دعوى الجاهلية، (أي تلك الكلمة القبلية التقليدية: يا لفلان)؟ فقالوا.. رجل من المهاجرين ضرب رجلاً من الأنصار، فقال.. دعوها (اي دعوى

(٥٥) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٥.

العنصرية الجاهلية) فإنها منتنة ، من دعا دعوى الجاهلية كان من محشي جهنم ، قيل يا رسول الله .. وان صام وان صلى وزعم أنه مسلم ؟ قال .. وان صام وان صلى وزعم أنه مسلم (٥٦) .

وقد انتهت هذه الفتنة ، لا سيما وأن الانصاري المضروب تنازل عن حقه لدى المهاجري ، فماتت بذلك الفتنة .

رأس الفتنة يتكلم

ولكن انتهاء الفتنة الأهلية بهذه السرعة لم يرق لرأس النفاق عبدالله بن أبي الذي كان موجوداً في الجيش مع المسلمين ، فقد اعتبر مثـــل ذلك الحادث فرصة المنافقين الذهبية لاذكاء نيران الفتنة بين أصحاب محمد ، ولكن هذه الفرصة فاتت عـــلى المنافقين بتصالح الرجلين وانصياع الفريقين لتوجيهات نبيهم عليه السلام . فغاظ ذلك عبدالله بن أبي فقال : (وهو في رهط من قومه الخزرج في المعسكر وفيهم ، زيد بن أرقم ـ وكان غلاماً صغيراً) ، قال (في حنق وعصبية وغيظ) .. أو قد فعلوها ـ يعني المهاجرين ـ ما رأيت كاليوم مذلة قط .. قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا .. والله ما اعدّنا وجلابيب قريش هذه إلاّ كما

---

(٥٦) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٧٦ .

قال الأول (سمّن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» .

ثم أقبل رأس النفاق على من حضر من قومه — مذكياً في نفوسهم روح العداء للمهاجرين — قائلاً .. هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا الى غير داركم (٥٧) .

ثم قال الخبيث (وكلامه موجهاً للانصار).. ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه (يعني النبي — ص —) فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضّوا من عند محمد ...

وفي الحال نقل زيد بن أرقم (٥٨) هذا الكلام الخطير الذي فاه به رأس النفاق الى رسول الله (ص) ، وقد غضب الرسول (ص) لهذا الخبر غضباً شديداً وتغيّر وجهه .

إلا انه (ص) (ولئلا تتسع الشقة وتحدث فتنة في المعسكر من جديد) أحب تلطيف الأمر وأظهر شكه في صدق ما نقل اليه زيد بن أرقم (وكان شاباً صغير السن) فقال له .. يا غلام لعلك غضبت عليه، قال .. والله يا رسول الله .. لقد سمعته منه .. قال .. لعله أخطأ سمعك .

---

(٥٧) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩١.
(٥٨) انظر ترجمته في كتابنا غزوة أحد .

وقد لام الغلام رجال من قومه الخزرج ، فقالوا له .. عمدت الى سيد قومك تقوّل عليه ما لم يقل ، فقال زيد والله لقد سمعت ما قال ، ولو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها الى رسول الله (ص) واني لأرجو أن ينزل الله تعالى على نبيه (ص) ما يصدق حديثي .

حكمة الرسول تنقذ الموقف

وكان عبدالله بن أبي سيداً في قومه الخزرج ، وما كانت عداوته للنبي وبغضه للمسلمين لتخفى على النبي (ص) ولكنه (ص) لم يشأ التوسع في الموضوع ، بل حاول إسدال الستار عليه خوف الفتنة .

وعندما طلب عمر بن الخطاب من رسول الله (ص) أن يسمح له بضرب عنق رأس النفاق عبدالله بن أبي — وهم لمّا يزالوا في ديار بني المصطلق — رفض النبي هذا الطلب قائلاً .. فكيف يا عمر إذا تحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه ؟؟. فقال عمر .. إن كرهت أن يقتله مهاجريّ فأمرْ أنصارياً يقتله ، فلم يوافق النبي (ص) على ذلك . بل رفض هذا الاقتراح أيضاً قائلاً لعمر .. ترعد له (إذن) أُنُفٌ كثيرة بيثرب ، .. يعني النبي (ص) بقوله هذا إن قتل عبدالله بن أُبيّ على هذه الصورة قد يكون سبباً في إثارة حرب أهلية بين المسلمين لأنه كان يتوقع غضب رجال كثيرين من الخزرج لقتل زعيمهم عبدالله بن أبي ، لا سيما وأن كثيراً منهم لا يعلمون حقيقة نفاقه .

خطوة حكيمة حاسمة

غير أن النبي (ص) كقائد أعلى للجيش ورئيس دولة مسئول لمَّا رأى تطور الموقف وازدياد الخطر نتيجة للكلام الذي فاه به عبدالله بن أُبي وحرّض به على الفتنة في المعسكر مارع الى اتخاذ خطوة سريعة حاسمة بها أشغل الناس (تماماً) عن الخوض في الحديث الذي كان بالأمس من عبدالله بن أبيّ.

فقد أمر (ص) بأن يتحرك الجيش بسرعة في اتجاه المدينة وأمر بأن يسير الجيش حوالي ثلاثين ساعة دونما توقف، وكان يقصد بذلك أن يتعب الناس فلا يجدوا مجالاً للحديث عن الموضوع الخطير الذي أثاره رأس النفاق وهم في ديار بني المصطلق.

قال ابن كثير في البداية والنهاية — يصف ذلك — .. ثم مشى رسول الله (ص) بالناس يومئذ حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذنتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياما، وانما فعل رسول الله (ص) ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أُبيّ (٥٩)

---

(٥٩) انظر ترجمة هذا المنافق في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

هو والله الذليل وأنت العزيز

وقال ابن اسحاق .. فلما استقل رسول الله (ص) وسار، لقيه أُسيد بن حضير (٦٠) — من سادات الخزرج — فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه، ثم قال يا نبيّ الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له (وكان أُسيد من خاصة أصحابه) .. أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟. قال .. وأي صاحب يا رسول الله ؟، قال ... عبدالله بن أُبيّ، قال .. وما قال ؟ قال .. زعم أنه إن رجع الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلّ، قال .. فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال .. يا رسول الله .. ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه فانه ليرى أنك قد استلبته ملكاً (٦١) .

ولم يشأ النبي (ص) أن يجري أي تحقيق فيما نسب الى رأس النفاق من قول خطير أو يتخذ أي اجراء ضده للمقالة القبيحة التي قال، الا إن وجوه قوم ابن أُبيّ من الخزرج

(٦٠) انظر ترجمته في كتابنا غزوة بدر الكبرى الطبعة الثانية .

(٦١) هذا الكلام الذي رواه ابن اسحاق عن النبي (ص) يدل على أن النبي القائد واثق من صدق الغلام زيد بن أرقم فيما نقل اليه من كلام المنافق عبدالله بن أبي الا انه (ص) أحب أن لا يتسع الحديث والنقاش حول هذا الموضوع الخطير ولذلك قال لزيد بن ارقم .. لعلك غضبت عليه، أو لعله أخطأ سمعك ثم امر (فوراً) بالرحيل لينسى الناس هذا الحديث الخطير .

جاءوا اليه وقالوا له .. يا ابا الحُباب ، إن كنت قلت ما نقل عنك فأخبر به النبي (ص) فليستغفر لك ولا تجحده فينزل فيك ما يكذبك وان كنت لم تقله فائت رسول الله (ص) فاعتذر له .

فحلف لقومه بالله العظيم أنه ما قال من ذلك شيئاً ، ثم مشى الى رسول الله (ص) وأخذ يحلف له بالله انه لم يقل شيئاً مما نقله اليه زيد بن أرقم .

هكذا تصنع العقائد الرجال

وقد كان لهذا المنافق الكبير عبدالله بن أبيّ ، إبن صالح بار ، فلما بلغه مقالة أبيه الخبيثة وما أُشيع من استئذان ابن الخطاب في قتله ، جاء الى رسول الله (ص) فقال :

« يا رسول الله إنه قد بلغني انك تريد قتل عبدالله (يعني والده) فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلاً فمرني أن أحمل لك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبرّ بوالده مني ، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر الى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار » .

فقال رسول الله (ص) لهذا الشاب المؤمن .. ما أردت قتله ولا أمرت به ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا . وكان لهذا الموقف الحكيم الذي وقفه النبي (ص) من رأس

النفاق أثر كبير في الحد من شرور هذا المنافق ، فكان قومه ـ بعد ذلك ـ إذا أحدث الحدث هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه .

يمنع أباه من دخول المدينة

وذكر عكرمة أن عبدالله هذا لما بلغته مقالة أبيه الخبيثة وقف له ـ اثر عودة الجيش من بني المصطلق ـ عند مضيق المدينة ثم قال له .. قف فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله (ص) في ذلك ، فلما جاء رسول الله (ص) استأذنه في ذلك فأذن له فأرسله حتى دخل المدينة .

وبعد أن عرف قوم ابن أبيّ حقيقة هذا المنافق وقف منه ابنه وقومه ذلك الموقف حيث صاروا هم يتولون تعنيفه وتبكيته ، وقد أحب الرسول (ص) أن يبين لعمر بن الخطاب نتائج الموقف الحكيم الذي وقفه من رأس النفاق ساعة أن قال تلك المقالة الخبيثة، فقال (ص) .. يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت لي ، لأرعدت له أنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته فقال عمر .. قد والله علمت لأمر رسول الله (ص) أعظم بركة من أمري .

مقالة ابن أبيّ في القرآن

وأنزل الله تعالى سورة من القرآن ـ بعد المقالة الخبيثة التي قالها رأس النفاق ـ وهي سورة المنافقين ، فضح فيها

أمر هذا المنافق الكذاب ومن ذلك قوله تعالى :

« يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » (٦٢) .

ولما نزلت هذه السورة وفيها (بالطبع) تأكيد ما قاله الغلام زيد بن أرقم عن رأس النفاق ، أخذ النبي (ص) بأذن الغلام زيد ، ثم قال — مؤكداً صدقه — هذا الذي أوفى الله بأذنه (٦٣) .

وقد عاد النبي (ص) الى المدينة من غزوة بني المصطلق في غرة شهر رمضان ، فاستغرقت غيبته عن المدينة في هذه الغزوة ثمانية وعشرين يوماً . وقد كان بعض المؤرخين يسمونها (بغزوة العجائب) لكثرة ما حدث فيها من الأمور العجيبة .

المعركة الكبرى .. حديث الإفك

وأثناء عودة الرسول (ص) من غزوة بني المصطلق هذه ، قال المنافقون في أم المؤمنين عائشة (رض) تلك المقالة الخبيثة من الإفك ، الذي به نالوا عِرض رسول الله (ص) حتى آذوه أشد الايذاء وجعلوه عرضة لأعنف الآلام النفسية وأشدها .

---

(٦٢) المنافقون آية ٨ .

(٦٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٢.

الشرارة الأولى

كان رأس النفاق ، ممثل عصبة اليهود والمنافقين ، عبدالله بن أبيّ بن سَلُول ، موجوداً ضمن الجيش الاسلامي الذي غزا بني المصطلق ، وكان هذا المنافق المجرم ، لا يجد فرصة يكيد فيها للاسلام ويحط من شأن حامل رسالته إلاّ اغتنمها .

وبينما هذا المنافق الأكبر موجوداً في المعسكر بين قومه الخزرج ، إذا بالصحابي الجليل صفوان بن المعطّل يمر بهودج أم المؤمنين عائشة (رض) ، فيقول هذا المنافق (إبن أبَيّ) : من هذه ؟. فيقولون : عائشة (رض) ، فيقول المنافق الأكبر : والله ما نجت منه ولا نجى منها ، ثم يعقب على ذلك بقوله : إمرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها .

هذه القولة الخبيثة المنكرة ، هي الشرارة الأولى التي أشعلت حديث الإفك ، فكانت (بسببها) معركة كبرى من الآلام خاضها النبي (ص) طيلة شهر كامل .

لقد كان حديث الافك من تدبيرات المنافقين القاتلة ، وهو أحد الأسلحة السياسية الكبيرة الفتاكة التي تلجأ اليها عصابة النفاق للكيد للاسلام وتفريق كلمة المسلمين وتفتيت وحدتهم .

ولقد نظّم المنافق الأكبر وحزبه حملات واسعة أشاع بها هذا الحديث المفترى ، وروّج له بدقة وإحكام حتى

انخدع به كثير من المسلمين ، فخاض فيه منهم من خاض حتّى وصل البعض منهم في الخوض في هذا الحديث المفترى ، الى الدرجة التي بها أقيم عليه الحد ، كحسّان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، ومسطح بن أثاثة ، وقد تضخم حديث الافك هذا حتّى صار شغل أهل المدينة الشاغل .

ولقد آتت مساعي عصبة الافك والنفاق ثمارها الى حد بعيد ، فقد فعلت حملات الافك الظالمة فعلها المخيف في نفوس المجتمع الاسلامي .. وحتّى ذلك القلب الكبير النقي الطاهر ، قلب النبي محمد (ص) صار عرضة لنزوع الشك والحيرة والقلق ، فقد أثّرت تلك الاشاعات الكاذبة في نفسه فأعرض عن زوجته الطيبة الطاهرة الحنون ، مما اضطرها الى الانتقال الى بيت أبيها الصديق (رض) مشكوكاً فيها من زوجها العظيم وظلت هناك حتّى نزلت براءتها من السماء قرآناً يتلى أبد الآبدين .

وكانت محنة (بل أعظم محنة نفسية شاقة مضنية) تعرض لها النبي محمد (ص) في حياته ، وهل هناك أعظم وأشد إيلاماً من أن يُطْعَنَ الانسان في عرضه ، وخاصة من هو على مستوى النبوة والقيادة للأمة كلها ؟.

ولقد استمرت المحنة (التي تكلّف فيها صاحب أطهر نفس في تاريخ الانسانية من الآلام ما تنهد له الجبال) شهراً كاملاً انقطع خلاله اتصال السماء بالأرض ، وظل فيه

ذلك القلب الكبير النقي معلقاً بحبال الشك تعتصره الآلام التي أخف منها آلام طعن الرماح ووقع السيوف .

أمّا آل الصديق ، أمّا بنت الصديق ، أمّا زوج الصديق ، أمّا الصديق نفسه ، ذو الوقار المتناهي والحساسية المرهفة والطيبة الكاملة ، فقد كانت مصيبتهم أعظم من أن توصف ، ويا لها من مصيبة ، وهل هناك أعظم من أن يصاب بيت كريم رفيع العماد بالطعن في عرض ابنته .. وزوجة من ؟؟.. زوجة محمد بن عبدالله النبي ، حبيب أبيها ورفيقه في النضال والجهاد منذ بزغت شمس الاسلام على هذه الأرض .

ولقد عقد هول الفاجعة ألسنة أهل ذلك البيت الطيب الطاهر ، بيت الصديق الأكبر ، فكانوا أمام تلك الاشاعات الظالمة الكاذبة المدبرة المغرضة التي أغرقت المدينة ، لا يحيرون جوابا . وماذا عساهم أن يقولوا ، والشك في ابنتهم ، قد تسرب الى قلب زوجها النبي (ص) نفسه ، ولقد انطوى أهل البيت الطيب الوادع الكريم على أنفسهم ، يهدّ منهم الألم بعنف وضراوة وهم لا يدرون ما يصنعون أو يقولون ، أمام هذه النازلة التي امتحنهم الله بها ، ولقد فاض الألم المدمر على لسان ذلك الرجل الوقور الصابر المؤمن ، الذي استفزته ضراوة ألم تلك الاشاعات القاتلة مرة فقال : والله ما رُمينا بهذا في جاهلية ، أفنرضى به في الاسلام ؟.

وعندما قالت له ابنته البريئة المعذبة المظلومة (والألم

يطحن قلبها الأبيض الطاهر) : أجب عني رسول الله (ص) قال – في ألم واشفاق – : والله ما أدري ما أقول لرسول الله (ص) .

حقاً لقد كان حادث الافك معركة آلام عنيفة طاحنة خاضها البيت النبوي الكريم ، وأضنت جروحها الثخينة قلوباً كبيرة طاهرة نقية ، وكادت تودي بنفوس بريئة كمداً وغمـــاً .

عائشة تروي القصة المؤلمة

ولـمـّا في هذا الحادث الخطير من عِبر وعظات وتربيات يمكن أن يستفيد منها الذين يتسرعون في رمي الأبرياء ، فإنا سندع أم المؤمنين عائشة (رض) تروي لنا قصة هذا الألم القاتل الذي عاشته طيلة شهر كامل .

فقد روى الزهري عن عروة وغيره عن عائشة (رض) قالت :

كان رسول الله (ص) إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها ، خرج بها معه ، وإنه أقرع بيننا في غزاة (وهي غزوة بني المصطلق) فخرج سهمي ، فخرجت معه بعد ما أُنزل الحجاب ، وأنا أُحمل في الهودج ، وأنزل فيه .

فسرنا حتّى إذا فرغ رسول الله (ص) من غزوته تلك و قفل . ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين

آذنوا بالرحيل حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت من شأني أقبلت الى الرحل فلمست صدري فاذا (عقد) لي من جزع أظفار قد انقطع .

فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني ، فاحتملوا هودجي ، فرحلوه على بعيري ، وهم يحسبون اني فيه ، وكان النساء ، إذذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم ، وانما نأكل العلقة (٦٤) من الطعام .

فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج ، فحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منزلهم ، وليس فيه أحد منهم ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون اليّ .

فبينما أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت ، وكان صفوان بن المعطل (٦٥) السلَمي ، ثم الذكواني ، قد عرّس (٦٦)

---

(٦٤) العلق (بضم ففتح) : جمع علقة ، وهي ما فيه بلغة من الطعام الى وقت الغداء .

(٦٥) هو صفوان بن المعطل بن ربيعة (بالتصغير) بن خزاعي بن محارب السلمي ثم الذكواني ، من السابقين في الاسلام ، شهد الخندق والمشاهد كلها (في قول الواقدي) ، كان في غزوة بني المصطلق اميراً على ساقة الجيش ، ولذلك كان آخر من ارتحل من رجال الجيش ، في تلك الغزوة ، وقد عاش الى ايام الخليفة الفاروق ، فغزا مع المسلمين حتى استشهد في معركة بأرمينية سنة تسع عشرة ،

(٦٦) قال في (اللسان) : والتعريس نزول القوم في السفر من آخر الليل=

وراء الجيش ، فأدلج ، فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد انسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رآني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه (٦٧) حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها .

فانطلق يقود بي الراحلة ، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين (٦٨) قالت : فهلك في شأني من هلك ، وكان الذي تولى كِبْر الاثم عبدالله بن أُبيّ بن سَلُول .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيت (٦٩) بها شهرا ، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ، ولا أشعر ، وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من النبي (ص) اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف ، فذلك الذي يريبني منه ، ولا أشعر بالشر حتى نقهت (٧٠) .

فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهو متبرّزنا ،

=يقعون فيه وقعة للاستراحة ثم ينيخون وينامون نومة خفيفة ثم يثورون مع انفجار الصبح سائرين .

(٦٧) الاسترجاع هو قوله (انا لله وانا اليه راجعون) .

(٦٨) سبق تفسير التعريس .

(٦٩) كناية عن المرض ، فاذا مرض الانسان قالوا : (اشتكى) .

(٧٠) يعبر بالنقاهة عن قرب العهد بالمرض .

وكنا لا نخرج إلاَّ ليلاً الى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكُنُف ، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط .

فأقبلت أنا وأم مسطح – وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبدمناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبدالمطلب – حين فرغنا من شأننا نمشي ، فعثرت أم مسطح في مِرْطها (٧١) فقالت : تَعِسَ مسطح ! فقلت لها : بئس ما قلت . أتسبين رجلا شهد بدراً ؟ فقالت : يا هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ فقلت : وما قال ؟

فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً الى مرضي ، فلما رجعت الى بيّي دخل رسول الله (ص)

فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : ائذن لي أن آتي أبويَّ وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي .

فأتيت أبويَّ فقلت لأمي : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به ؟.

فقالت : يا بنيّة هوّني على نفسك الشأن ، فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها .

فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدّث الناس بهذا ؟ قالت :

---

(٧١) المرط (بكسر الميم) الكساء .

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، حتى أصبحت أبكي .

فدعا رسول الله (ص) علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد ، حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله ، قالت : فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه من الود لهم ، فقال أسامة : هم أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم والله الا خيراً .

وأمّا علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيّق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تخبرك ، قالت : فدعا رسول الله (ص) بريرة فقال : أي بريرة ، هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟.

فقالت : لا والذي بعثك بالحق نبياً إن رأيت (أي ما رأيت) منهـا أمراً أغمصه (٧٢) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن (٧٣) فتأكله .

النبي يطلب كف أذى رأس النفاق

قالت : فقام رسول الله (ص) من يومه ، واستعذر من عبدالله بن أُبيّ بن سَلُول «كبير مجرمي الافك والناشر

---

(٧٢) أغمصه : أعيبه .
(٧٣) الداجن : الشاة في البيت .

له » فقال — وهو على المنبر — : (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي) .

قالت : فقام سعد بن معاذ (رض) فقال : يا رسول الله أنا والله أعذرك منه . إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وان كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك .

فقام سعد بن عبادة (رض) وهو سيد الخزرج ، وكان رجلاً صالحاً ولكن أخذته الحميّة ، فقال : لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على ذلك ، فقام أُسيد ابن حضير (٧٤) — وهو ابن عم سعد بن معاذ — فقال لسعد بن عبادة (٧٥) : كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين .

كادت الفتنة أن تنشب بين الأوس والخزرج

قالت : فثار الحيّان الاوس والخزرج حتّى همّوا أن يقتتلوا « وهذا أغلى ما يتمناه ويسعى اليه عبدالله بن أُبيّ وحزبه من المنافقين واليهود » ورسول الله (ص) على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتّى سكتوا ونزل .

---

(٧٤) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .
(٧٥) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

قالت : وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم . ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، فأصبح أبوايَ عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالق كبدي ، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار ، فأذنت لها فجلست تبكي معي .

فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله (ص) ، ثم جلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل فيّ ما قيل قبلها، وقد مكث شهراً لا يُوحى اليه في شأني بشيء .

فتشهد حين جلس ، ثم قال : « أمّا بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وان كنت ألمت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي اليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله تعالى عليه » .

قالت : فلما قضى رسول الله (ص) مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه بقطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله (ص) فيما قال .

قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله (ص) ، فقلت لأمي : أجيبي عني رسول الله (ص) قالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله (ص) .

قالت عائشة : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ، فقلت : اني والله أعلم أنكم سمعتم حديثاً تحدّث الناس به . فلئن قلت لكم : إني بريئة لا تصدّقوني

بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة ، لتصدقني ، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلاّ أبا يوسف إذ قال : « فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون » . ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحياً يُتلَى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى فيَّ بأمر يُتلى .

نزول الوحي ببراءة عائشة

قالت : ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله (ص) في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها ، فوالله ما رام مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل الله تعالى على نبيّه (ص) فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، فسري عنه ، وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : يا عائشة احمدي الله تعالى فإنه قد برّأك ، فقالت أمي : قومي الى رسول الله (ص) فقلت : والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد إلاّ الله تعالى ، هو الذي أنزل براءتي .

قالت : فأنزل الله تعالى « إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم .. العشر آيات »

قالت عائشة : وكان رسول الله (ص) سأل زينب بنت جحش عن أمري ، فقال : (يا زينب . ما علمت وما رأيت ؟) فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ،

والله ما علمت عليها إلاَّ خيراً ، وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي (ص) فعصمها الله تعالى بالورع ، قالت: فطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الافك . اهـ

وقصة الإفك هذه أخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري ، وهكذا رواها ابن اسحاق كذلك مع اختلاف يسير .

آيات التبرئة

وكانت الآيات التي نزلت لتبدد غيوم فتنة الافك عشر من سورة النور وهي قوله تعالى :

«إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره (٧٦) منهم له عذاب عظيم.. لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا

---

(٧٦) أي تحمل أكبر قسط من اثم الافك: وهو رأس النفاق عبدالله بن أبي، رأس كل فتنة وأساس كل ارجاف ، وحامل لواء الكيد للاسلام ونبي الاسلام ، فقد روي أن هذا المنافق (وكان ضمن الجيش) لما رأى صفوان بن المعطل يمر بهودج أم المؤمنين، (قال في ملأ من قومه الخزرج): من هذه ؟ فقالوا عائشة (رض) .. فقال المجرم : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها. وهي قولة شنعاء نجح رأس النفاق الى حد بعيد في الترويج لها ، وكادت تصيب من المجتمع الاسلامي كله مقتلا لولا أن الله كان من وراء هذا المنافق وعصابته المجرمة محيطاً ، فحفظ دينه وعصم رسوله ورعى أمته ، ففضح هذا المنافق وحزبه في قرآن يتلى ابد الآبدين .

هذا إفك مبين (٧٧) . . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم .. إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم .. ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم .. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إنْ كنتم مؤمنين .. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم .. إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون.. ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم.. يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتّبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكّي من يشاء والله سميع عليم .. ولا يأتَلِ أولوا الفضل منكم والسّعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين

(٧٧) هذه الآية تعني أبا أيوب الانصاري وزوجته رضي الله عنهما ، فقد روى الامام محمد بن اسحاق: أن أبا أيوب – خالد بن زيد – قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال نعم ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ماكنت لافعله ، قال : فعائشة خير منك ، وفي تفسير الامام الزمخشري (الكشاف) : أن أبا أيوب الانصاري قال لأم أيوب : ألا ترين ما يقال ؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله (ص) سوءاً ؟ قال : لا . قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة ، ما خنت رسول الله (ص) فعائشة خير مني وصفوان خير منك ، فذلك الذي عنى الله تعالى بقوله : « لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون » الآية .

في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ والله غفور رحيم (٧٨) إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعِنُوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم .. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.. يومئذ يوفّيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين .. الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرّأون مما يقولون (٧٩) لهم مغفرة ورزق كريم (٨٠) .

القضاء على الفتنة

وبذلك انتهى حديث الافك وبطل مفعوله المدمّر فقُضِيَ على تلك الفتنة الاجتماعية التي كادت تذهب بوحدة المسلمين ، بل وتثير بينهم حرباً أهلية طاحنة ، فتزلزل بنيان هذا الدين الوليد .

---

(٧٨) نزلت هذه الآية (ولا يأتل اولوا الفضل منكم) في ابي بكر الصديق الذي كان ينفق على مسطح بن أثاثة لانه قريبه ، ثم امتنع عن الانفاق عليه ، وآلى على نفسه أن لا ينفع مسطحاً لانه ممن خاضوا في حديث الافك ، بل ممن أدينوا ، وأقيم عليهم الحد (ثمانين جلدة) ، وكان مسطح من فقراء المهاجرين ولكنه انزلق مع المنزلقين ، وقد ذكر القرآن الصديق أنه من الخير الصفح عن مسطح والاستمرار في الانفاق عليه ففعل الصديق الاكبر ، وواصل الانفاق على مسطح بالرغم مما حدث.

(٧٩) وهذه الكلمة (اولئك مبرأون مما يقولون) خاصة بأم المؤمنين عائشة التي رميت بما هي منه بريئة .

(٨٠) النور آية ١١ الى آية ٢٦ .

وما قصدت عصبة النفاق (والله) من تضخيم حديث الإفك والتنظيم لإشاعته إلاّ تفريق كلمة المسلمين باثارة النزاعات بينهم ، لأن هذه العصبة الخبيثة تعلم أن إشاعة مثل هذا الحديث الخطير سيكون مثار جدل واختلاف بين المسلمين ، يصل بهم الى درجة التلاحي وإثارة النعرات القديمة مما قد يكون سبباً في إثارة حرب قبلية بين الخصمين القديمين العنيدين (الأوس والخزرج) ، ولقد كاد يحدث ذلك فعلاً ، وذلك هو الغاية الكبرى التي يهدف الى تحقيقها حزب النفاق الذي حمل لواء حديث الإفك وقام (بطرق مدروسة ملتوية) باشاعته ، فباعث الحديث هذا (في حد ذاته) هو باعث سياسي خبيث ذو مرامي بعيدة ، ويكفي لتأكيد ما نقول أن مُطلِق شرارة فتنة حديث الإفك ، هو رأس النفاق عبدالله بن أبَيّ ، الذي منذ وطئت قدما الرسول الأعظم تراب المدينة المنورة ، وهو يُحيك الدسائس وينظم المؤامرات ضد هذا النبي الكريم والدين القويم الذي جاء به .

إقامة الحدّ على المفترين

وبعد نزول القرآن بتبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أُجري التحقيق مع الذين لهم ضلع في إشاعة حديث الإفك ، فلم يُثبِت التحقيق سوى إدانة ثلاثة نفر .. رجلين وامرأة ، وهم (حسّان بن ثابت) و (حمنة بنت جحش) و (مسطح بن أثاثة) . وقد أقيم حدّ القذف على هؤلاء

الثلاثة (ثمانين جلدة جلد بها كل واحد منهم).

والغريب في الأمر أن كل الذين تعرضوا لعقاب الجلد ليس بينهم منافق واحد، بل كلّهم مسلمون تأثروا بقوة الأراجيف فجرفهم تيار الاشاعات الكاذبة، فنطقوا بما أوقعهم تحت طائلة العقوبة من صريح الكلام في عرض زوج نبيهم الطهور.

ولقد نجا عبد الله بن أبيّ وعصبته المنافقة من عقوبة القذف، لأن التهمة لم تثبت عليه قانوناً، بالرغم من أن الناس يعلمون (في قرارة أنفسهم ويشعرون ومنهم النبي الأعظـــم) أن المحرك الأول لحديث الإفك إنما هو هذا المنافق (إبن أُبيّ وحزبه)، ولكن الشعور والاعتقاد شيء، والقانون واجراءاته الرسمية شيء آخر.

ولهذا نجا رأس النفاق وعصابته من العذاب (عذاب السياط التي أصابت غيرهم حدّاً) لأن هذا المنافق كان يعلم عقوبة القذف الصريح، فكان لذلك أحذر من أن يقع تحت طائلة القانون، بكلام صريح مشهود يفوه به من حديث الإفك الذي لم يكن له سواه باعثاً ومروّجاً، ولهذا أفلت من العقوبة بعد أن أوقع غيره لينال عذابها.

أضخم معركة يخوضها الرسول

قال في ظلال القرآن: «لقد كانت ــ حادثة الإفك ــ

معركة خاضها رسول الله (ص) وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك، وخاضها الاسلام، معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها الرسول (ص) وخرج منها منتصراً كاظماً لآلامه الكبار محتفظاً بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره، فلم تؤثَر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله، والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته، والخطر على الاسلام من تلك الفرية من أشد الاخطار التي تعرّض لها في تاريخه.

وإن الانسان ليقف متململاً أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول (ص) وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة زوجته المقرّبة وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة، تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة.

فها هي ذي عائشة الطيبة الطاهرة، ها هي ذي في براءتها ووضاءة ضميرها ونظافة تصوراتها، ها هي ذي تُرْمَى في أعز ما تعتز به، تُرْمَى في شرفها وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرفيع. وتُرْمَى في أمانتها. وهي زوج محمد بن عبد الله من ذروة بني هاشم. وتُرْمَى في وفائها وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير.. ثم تُرْمَى في إيمانها وهي المسلمة الناشئة في حجر الاسلام، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة. وهي زوج

رسول الله (ص).

ها هي ذي تُرْمَى وهي بريئة غرة غافلة، لا تحتاط لشيء، ولا تتوقع شيئاً، فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو في جناب الله، وترقب أن يرى رسول الله (ص) رؤيا تبرئها مما رميت به، ولكن الوحي يتلبث لحكمة يريدها الله شهراً كاملاً، وهي في مثل هذا العذاب.

ويا لله لها وهي تفاجأ بالنبأ من أم مسطح، وهي مهدودة من المرض، فتعاودها الحمّى وهي تقول لأمها في أسى: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا، وفي رواية أخرى تسأل: وقد علم به أبي؟.

فتجيب أمها: نعم!.

فتقول: ورسول الله (ص)؟. فتجيبها أمها كذلك نعم.

ويا لله لها ورسول الله (ص) نبيها الذي تؤمن به ورجلها الذي تحبه يقول لها: «أمّا بعد فانه بلغني عنك كذا، فان كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت ألممت بذنب *فاستغفري الله تعالى وتوبي اليه، فان العبد إذا اعترف* بذنبه ثم تاب تاب الله عليه».

فتعلم أنه شاك فيها، لا يستيقن من طهارتها، ولا يقضي في تهمتها. وربه لم يخبره بعد، ولم يكشف له عن براءتها التي تعلمها ولكن لا تملك إثباتها، فتمسي وتصبح وهي

متهمة في ذلك القلب الكبير الذي أحبها ، وأحلّها في سويدائه .

وصف محنة الصديق الأكبر وأهل بيته

وها هوذا ابوبكر الصديق — في وقاره وحساسيته وطيب نفسه — يلذعه الألم وهو يُرْمَى في عرضه في ابنته زوج محمد — صاحبه الذي يحبه ويطمئن اليه ، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل ، لا يطلب دليلاً من خارجه .. وإذا الألم يفيض على لسانه ، وهو الصابر المحتسب القوي على الالم ، فيقول : والله ما رُمِينا بهذا في جاهلية، أفنرضى به في الاسلام ؟.

وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل . حتى إذا قالت له إبنته المريضة المعذبة : أجب عني رسول الله (ص) قال ، في مرارة هامدة : والله ما أدري ما أقول لرسول الله (ص) .

وأم رومان — زوج الصديق — وهي تتماسك أمام ابنتها المفجوعة في كل شيء، المريضة التي تبكي حتى تظن أن البكاء فالق كبدها ، فتقول لها : يا بنية هوّني على نفسك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها .

ولكن هذا التماسك يتزايل وعائشة تقول لها : أجيبي عني رسول الله (ص) فتقول كما قال زوجها من قبل : والله ما أدري ما أقول لرسول الله (ص) .

ابن المعطل يضرب حسّاناً بالسيف

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله ، صفوان بن المعطل . وهو يُرْمَى بخيانة نبيه في زوجه . فيُرْمَى بذلك في إسلامه ، وفي أمانته ، وفي شرفه ، وفي حميّته ، وفي كل ما يعتز به صحابي ، وهو من ذلك كله بريء .

وهو يفاجأ بالاتّهام الظالم وقلبه بريء من تصوّره ، فيقول : سبحان الله ! والله ما كشفت كتف أنثى قط ، ويعلم (وهو الشجاع) أن حسان بن ثابت يروج لهذا الإفك عنه .

فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودي به . ودافعه الى رفع سيفه على امرىء مسلم ، وهو منهي عنه ، أن الالم قد تجاوز طاقته فلم يملك زمام نفسه الجريح (٨١) .

ثم ها هو ذا الرسول (ص) وهو رسول الله ، وهو في الذروة من بني هاشم .. ها هو ذا يُرْمَى في بيته وفي من ؟ في عائشة التي حلّت من قلبه في مكان الابنة والزوجة الحبيبة .

---

(٨١) قال ابن اسحاق : ثم ان صفوان بن المعطل اعترض حسان بن ثابت بالسيف حين بلغه ما كان يقول فيه ، وقد كان حسان قال شعراً مع ذلك يعرض بابن المعطل وبمن أسلم من مضر ، فاعترضه صفوان بن المعطل فضربه بالسيف ثم قال : (تلق ذباب السيف عني فانني غلام اذا هوجيت لست بشاعر) اهـ . ولقد ألقى رهط حسان القبض على صفوان فذهبوا به الى رسول الله (ص) فأخمد الفتنة بحكمته ، بعد أن كادت تشتعل بين الانصار والمهاجرين أنفسهم ، لان صفواناً مهاجري وحساناً أنصاري .

وها هو ذا يُرْمَى في طهارة فراشه ، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة ، وها هوذا يُرْمَى في صيان حرمته ، وهو القائم على الحرمات في أمتـــه ، وها هو ذا يُرْمَى في حياطة ربه له ، وهو الرسول المعصوم من كل سوء .

ها هو ذا (ص) يُرْمَى في كل شيء حين يُرْمَى في عائشة (رض) .. يُرْمَى في فراشه وعرضه وقلبه ورسالته ، يرمى في هذا كله ، ويتحدث الناس به في المدينة شهراً كاملاً ، فلا يملك أن يضع لهذا كله حداً .

والله يريد لحكمة يراها أن يدع هذا الأمر شهراً كاملاً ، لا يبين فيه بياناً ، ومحمد الانسان يعاني ما يعانيه الانسان في هذا الموقف الأليم ، يعاني من العار ، ويعاني فجيعة القلب ، ويعاني فوق ذلك الوحشة المؤرقة ، الوحشة من نور الله الذي اعتاد أن ينير له الطريق .

والشك يعمل في قلبه — مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله ، ولكنه لا يطمئن نهائياً الى هذه القرائن — والفرية تفوح في المدينة ، وقلبه الانسان المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك ، فلا يملك أن يطرد الشك لأنه في النهاية (بشر) ينفعل في هذه انفعالات (البشر) ، وزوج لا يطيق أن يمس فراشه .. ورجل تتضخم بذرة الشك في قلبه متى استقرت ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم .

وها هوذا يثقل عليه العبء وحده ، فيبعث الى أسامة

بن زيد ، حبه القريب الى قلبه ، ويبعث الى علي بن أبي طالب ، ابن عمه وسنده ، يستشيرهما في خاصة أمره.

ورسول الله (ص) - في لهفة الانسان ، وفي قلق الانسان يستمد من حديث أسامة ، ومن شهادة الجارية مدداً وقوة يواجه بهما القوم في المسجد ، فيستعذر ممن نالوا عرضه ، ورموا أهله ، ورموا رجلاً من فضلاء المسلمين لا يعلم أحد عليه من سوء.

فيقع بين الأوس والخزرج من تناور - وهم في مسجد رسول الله - (ص) ، وفي حضرة رسول الله (ص) ويدل على هذا الجو الذي كان يظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة الغريبة ، وقد خدشت قداسة القيادة.

ويحز هذا في نفس الرسول (ص) والنور الذي اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق! فاذا هو يذهب الى عائشة نفسها يصارحها بما يقول الناس ، ويطلب منها (هي) البيان الشافي المريح.

وعندما تصل الآلام الى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه ، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة ، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع ، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم » اهـ.

الفصل الثاني

- مخطط اليهود لغزو المدينة .
- طواف زعماء اليهود بين القبائل العربية لتحريضها على الغزو .
- اليهود يرشون زعماء الأعراب .
- قيام التحالف بين الأحزاب – قريش – غطفان – اليهود – لاحتلال المدينة .
- رسم الخطط واستعداد الفريقين للمعركة الفاصلة .
- المسلمون يحفرون الخندق كخط رئيسي للدفاع عن العاصمة .

كما قلنا في مقدّمة هذا الكتاب ، – إن غزوة الأحزاب الخطيرة هذه هي وإن كانت في الشكل والمظهر ، غزوة قرشية غَطَفانية ، إلاّ أنها في أهدافها البعيدة ومراميها العميقة هي غزوة يهودية لحماً ودماً ، فاليد الحقيقية التي تكمن وراء هذه الحملة المخيفة الموجهة لإبادة المسلمين

إبادة كاملة هي يد يهودية .

فغزوة الأحزاب الموجهة لاحتلال المدينة والقضاء على المسلمين وهدم الاسلام في عُقر داره ، قد جاءت وفق تصميمات مدروسة وضعها مفكرون إسرائيليون ، كما أن تمويل هذه الحملة الخطيرة قد ساهم اليهود فيه مساهمة كبيرة .

لقد كان اليهود — وهم مصدر الفتن والقلاقل ومثيرو الحروب في كل عصر وزمان — هم الذين حزّبوا تلك الأحزاب وحشّدوا عشرة آلاف مقاتل من أعراب الجزيرة العربية لغزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين فيها .

كما أن قريشاً — العدو العربي التقليدي للمسلمين — لها يد كبيرة في تنسيق هذا الغزو والتشجيع عليه والترحيب بفكرته التي جاءت من جانب اليهود .

أما قريش فقد كان نزاعها مع النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته نزاعاً قديماً قدم الدعوة الاسلامية ، وكان صراعها من أجل القضاء على الاسلام والمسلمين صراعاً قديماً مزمناً يرجع عهده الى أول ظهور الاسلام ، وقد خاضت قريش — في سبيل تحقيق هذا الهدف — مع المسلمين معارك رهيبة أولها معركة بدر الكبرى وآخرها معركة أُحُدْ التي — بالرغم من انتصارها الوقتي فيها — لم تحقّق لها هدفها المنشود .

أما اليهود فقد كانت العداوة والكره لكل من سواهم

من البشر طبيعة متأصلة في نفوسهم ، فما ظنك بمن جاء يحمل رسالة سماوية فيها الخطر كل الخطر على كيان هؤلاء اليهود المبني على الغش والدس والوقيعة والاستغلال .

حقد اليهود على النبي

لقد كان اليهود (دونما جدال) يضمرون للنبي ودعوته من الحقد والبغض والحسد ما هو أعمق مما تضمره قريش وأحلافها من أعراب الجزيرة، فكان اليهود - لذلك - أحرص من أعراب الجزيرة على محو الاسلام والقضاء على المسلمين .

واذا كانت قريش في مكة قد استطاعت أول الأمر - لقوتها وضعف المسلمين - أن تنكل بهم وتفتن البعض منهم عن دينه تحت وسائل التعذيب ، بل وتُجبِر النبي (ص) على مغادرة وطنه الأصلي (مكة) لجرأتها على الائتمار بقتله ، فإن اليهود الذين يودّون أن يفعلوا ذلك وأكثر بالنبي وصحبه ، لم يكن في مقدورهم أن يفعلوا شيئاً من ذلك بمفردهم عندما جاءهم النبي (ص) الى يثرب .

لأنه (ص) لم يصل الى المدينة إلاّ وقد سبقه تكوين جبهة عسكرية قوية مشكلة من جميع القبائل القحطانية (الأوس والخزرج) في يثرب .

بالاضافة الى مهاجري قريش المسلمين الذين تركوا

وطنهم فراراً بدينهم ، وانضموا الى معسكر يثرب ، فكانت هذه الجبهة العسكرية القوية درع الرسول الحربي الواقي الذي يحتمي به .

الأمر الذي غاظ اليهود وقهرهم ، وجعلهم يعجزون عن القيام منفردين بأي عمل عسكري أو شبه عسكري ضد المسلمين كما كانت تفعل قريش ، لأن هؤلاء اليهود بالرغم من قدمهم في الجزيرة هم عنصر أجنبي دخيل على الأمة العربية لم يستطع الامتزاج بهذه الأمة بالرغم من إقامته بينها آلاف السنين .

وكل ما قام به اليهود في يثرب ضد النبي – قبل غزوة الأحزاب – هو عمليات دس وتفريق بين المسلمين ومحاولات لاثارة الحرب الأهلية بينهم ، وحركات عصيان ضيقة النطاق .. عمليات كلها باءت بالفشل .

وآخر محاولة جريئة قام بها اليهود هي محاولة بني النضير اغتيال النبي (ص) وهو بين منازلهم ، فكانت نهاية هذه المحاولة الفاشلة هي طرد يهود هذه القبيلة وإجلاءهم عن المدينة نهائياً .

تفكير اليهود في تحزيب الأحزاب

من أجل ذلك ازداد حقد اليهود على النبي (ص) ، وصار زعماؤهم يفكرون في رسم خطة محكمة تكون نهايتها سحق

المسلمين سحقاً كاملاً وهدم كيان الاسلام من الأساس ، فكانت ثمرة هذا التفكير اليهودي (غزوة الأحزاب) الخطيرة هذه التي كادت (فعلاً) ان تعصف بكيان الاسلام والمسلمين .

فقد توالت اجتماعات زعماء يهود بني النضير في « خيبر » لبحث الوضع الذي آل اليه اليهود في الجزيرة العربية بعد انهيار مركزهم الرئيسي في المدينة وقيام الدولة الاسلامية قوية متماسكة في يثرب .

بعد بحثٍ شامل دقيق للموضوع من جميع نواحيه قرر برلمان اليهود في خيبر وضع خطة محكمة لغزو شامل كامل ساحق ضد المسلمين يشترك فيه أكبر عدد ممكن من القبائل العربية القوية ، وخاصة قبائل نجد وكنانة وقريش ، على أن تتولى خيبر اليهود الدعوة الى هذا الغزو وتنظيمه بل وتحمّل جانب كبير من نفقاته المالية .

وفد اليهود يطوف بين الأعراب

ونتيجة لهذا القرار الخطير ، قرَّر برلمان خيبر تشكيل وفد من أعضائه البارزين للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، والاتصال بالقبائل العربية المطلوب الاتصال بها للقيام بذلك الغزو .

وقد تكوَّن هذا الوفد اليهودي على النحو التالي :

١ ـ حُيَيّ بن أخطب ، رئيساً .

٢ ـ سلاَّم بن مشكم ، عضواً .

٣ – كنانة بن أبي الحقيق ، عضواً .

٤ – هوذة بن قيس الوائلي ، عضواً .

٥ – أبو عامر الفاسق ، الذي كان قائد فصيلة خونة الأوس في معركة أُحُد ضد المسلمين ، عضواً .

وقد غادر هذا الوفد اليهودي مدينة خيبر في أوائل شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة – أي بعد مرور حوالي سنة على معركة أُحُدْ ، وبعد مرور أربعة أشهر (فقط) على إجلاء بني النضير من المدينة .

الوفد اليهودي في مكة

وبالرغم من أن قبائل غَطَفان النجدية – التي ألَّفت فيما بعد العمود الفقري لغزوة الأحزاب – كانت منازلها أقرب الى هؤلاء اليهود من قبائل الحجاز ، فان الوفد اليهودي قد توجّه رأساً الى مكة .

فاتصل (أولاً) بزعمائها وقادتها وعرض عليهم كامل المخطط الذي يحمله لإنشاء الاتحاد العسكري القبلي الكبير لغزو المدينة ووضع حدّ لسلطان المسلمين باستئصال شأفتهم .

ولدى اطلاع زعماء مكة على المخطط اليهودي سُرّوا سروراً عظيماً ، وأبدوا موافقتهم الكاملة عليه واستعدادهم لتنفيذه بكامله ، بعد أن شكروا لليهود مجهودهم الكبير في وضع هذا المخطط والسعي من أجل تنفيذه .

اليهود في برلمان مكة

فعند وصول الوفد اليهودي الى مكة عقد برلمانها جلسة خاصة لبحث المخطط اليهودي الموضوع لانشاء الاتحاد العربي الوثني اليهودي لمحاربة الاسلام والقضاء على المسلمين .

وبعد أن ألمّ أعضاء دار الندوة (برلمان مكة) بالمشروع اليهودي ودرسوه من جميع نواحيه وعرفوا أن في تنفيذه هدم الاسلام والقضاء على المسلمين أبدوا للوفد اليهودي سرورهم العظيم وموافقتهم الكاملة ، ووقف قائد عام جيش مكة (أبو سفيان بن حرب) خطيباً في البرلمان الذي سمحت مكة للوفد اليهودي بحضور جلسته الخاصة لأنها تتعلق ببحث مشروعهم لغزو المدينة .

وقف وأعلن أبو سفيان في خطبته باسم برلمان مكة وجيشها الترحيب بفكرة اليهود الداعية الى انشاء الاتحاد العربي اليهودي العسكري لغزو المدينة وسحق المسلمين فيها سحقاً كاملاً ، فقال ــ مرحباً باليهود ــ.. أهلاً ومرحباً، وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد (٨٢) .

وقد جرت داخل برلمان مكة بين زعمائها وأعضاء الوفد اليهودي مناقشات حول الاسلام والوثنية ، وتقدم بعض نواب مكة الى أحبار اليهود في الوفد بأسئلة يسألونهم فيها (بصفتهم أهل كتاب والأكثر معرفة بالأديان منهم)

---

(٨٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٩٦ طبعة الحلبي .

عن دين محمد ودين الوثنية وأيهما أحق بالاتباع .

قال ابن اسحاق — يصف محادثات الوفد اليهودي مع قريش للتأليب على رسول الله (ص) — وهم (اي اليهود) الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله (ص) ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة .

فدعوهم الى حرب رسول الله (ص) وقالوا .. إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت قريش .. يا معشر يهود.. إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خيرٌ أم دينه ؟

وهنا تجلت طبيعة اليهود في الكذب والتزوير والتحريف حيث أجابوا قريشاً بعكس الحقيقة التي يعلمون إذ قالوا لقريش .. بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه لانكم تعظّمون هذا البيت وتقومون على السقاية وتنحرون البُدْن وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم ، بل إن اليهود لم يكتفوا بهذا الكذب والافتراء إذ سجدوا لأصنام قريش إرضاءً لهم عندما طلبوا منهم ذلك ليطمئنوا إلى قولهم الذي قالوا بشأن الوثنية والاسلام (٨٣) .

وذكر ابن اسحاق أن الله تعالى أنزل في هذا الوفد اليهودي قوله تعالى: (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من

---

(٨٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٩٦ .

الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) (٨٤) .

الوفد اليهودي في ديار غطفان

وبعد أن ضمن الوفد اليهودي موافقة قريش على مشروع غزو المدينة وحدّد موعداً لهذا الغزو ، توجه هذا الوفد الشرير الى ديار غَطَفان بنجد لعرض مخططه على زعماء تلك القبائل، وعندما وصل الى منازل غطفان صار يتنقل بين مضارب البدو وخيامهم للدعاية لمشروعه الخبيث وإيغار صدر الأعراب على النبي (ص) وشحن نفوسهم بالكره للمسلمين .

ثم شرع في محادثاته مع زعماء هذه القبائل العظيمة ، فعرض عليهم مشروع غزو المدينة وأطلعهم على مخطط هذا الغزو ، وأبلغهم موافقة قريش عليه ، وأنّها قد أخذت تتجهز للزحف على المدينة وفق هذا المخطط .

وقد دارت محادثات الوفد اليهودي الرئيسية مع عيينة بن حصن (٨٥) الفزاري لأنه أقوى شخصية مُطاعة بين قبائل

---

(٨٤) النساء ، آية ٥١ — ٥٢ .

(٨٥) هو عيينة بن حصن بن بدر ابو مالك سيد بني فزارة (من غطفان) ، قال ابن السكن له صحبة ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، شهد فتح مكة وحنيناً والطائف مع النبي (ص) ، وكان يتميز بالغلظة وجفاء الاعراب ، اخرج الطبراني ان عيينة بن حصن دخل على النبي (ص) ، فقال (وعنده عائشة) .. — قبل ان أن ينزل الامر بالحجاب — من هذه الجالسة الى جانبك ؟ ، فقال النبي (ص) .. هذه « عائشة » قال .. أفلا أنزل لك عن خير منها يعني امرأته ؟ ، فقال له النبي=

غطفان ، وهو الذي وصفه النبي (ص) بالأحمق المطاع لأنه مع (حمقه) من جراري الجيوش المشهورين تتبعه عشرة آلاف قناة ..

كما حضر محادثات الوفد اليهودي من زعماء قبائل غطفان كل من (الحارث بن عوف) قائد بني مرة ، و (ابي مسعود بن رخيلة) قائد بني أشجع ، و (سفيان بن عبد شمس) قائد بني سليم ، و (طليحة بن خويلد) (٨٦) قائد بني أسد.

وقد وافق زعماء هذه القبائل الغطفانيـــة على المشروع اليهودي وأعجبهم المخطط المرسوم لغزو المدينة ، وتم الاتفاق بينهم وبين اليهود على تنفيذه بحذافيره .

نجاح اليهود في إنشاء الاتحاد ضد المسلمين

وهكذا نجح اليهود في محادثاتهم مع قبائل غَطَفان نجاحاً

=(ص).. اخرج فاستأذن. فقال.. انها يمين علي أن لا أستأذن على مضري، فقالت عائشة .. من هذا .. فقال النبي (ص) هذا الاحمق المطاع (يعني في قومه) ، لانه كان (فعلا) مطاعاً في قومه ، تتبعه (كما هو مشهور بين العرب) عشرة آلاف مقاتل ، كان عيينة بن حصن ممن ارتد عن الاسلام في عهد الخليفة ابي بكر وقاتل المسلمين تحت قيادة طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة ، ثم عاد الى الاسلام ، ويقول ابن حجر العسقلاني في كتابه الاصابة .. انه قرأ في كتاب الام للشافعي أن عمر بن الخطاب قتل عيينة بن حصن الفزاري هذا على الردة ، وانه لم ير من قال ذلك غير الشافعي ، والله اعلم .

(٨٦) تقدمت ترجمته فيما مضى من هذا الكتاب .

كبيراً .. هذه القبائل التي لم تكن أقلّ تحمساً من قريش لفكرة قيام الاتحاد العربي الوثني اليهودي العسكري ضد المسلمين .

فكم حاولت قبائل غطفان هذه القيام بغزو المسلمين في المدينة منفردة فتفشل ، حيث يحبط النبي القائد محاولاتها بضربها (بسرعة) في ديارها فيشتت جموعها قبل أن تتحرك .

ولهذا فقد كان ما عرضه اليهود في مشروعهم على هذه القبائل من المشاركة مع قريش واليهود في غزو المدينة أمنية تتمناها هذه القبائل .

اتفاقية الاتحاد وشروطها

وقد أبرم الوفد اليهودي مع زعماء أعراب غطفان اتفاقية الاتحاد العربي الوثني اليهودي العسكري ضد المسلمين ، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو :

١ ـ أن تكون قوة غَطَفَان في جيش الاتحاد هذا ستة آلاف مقاتل .

٢ ـ أن يدفع اليهود لقبائل غطفان (مقابل ذلك) كل تمر نخل خيبر لسنة واحدة .

وهكذا لم يعد الوفد اليهودي الشرير إلاّ بعد أن حشّد عشرة آلاف مقاتل من قبائل قريش وغطفان وجمعها على حرب النبي (ص) ، وهو جمع لم يسبق للمسلمين أن

واجهوا مثله في حروبهم مع الأعداء ، وقد أبلغ الوفد اليهودي قادة قريش بتفاصيل الاتفاقية التي تمت بينه وبين قبائل غَطَفان ليكون تنسيق الغزو بموجبها ، فاغتبطت قريش غاية الاغتباط بذلك .

الأحزاب يتجهزون

وقد شرع قادة الأحزاب في التجهيز ، وبذلوا جهوداً جبارة لحشد جيوشهم وتنظيمها وتموينها لكي يكون الغزو مركزاً ناجحاً محققاً أهدافه .

أما قريش فقد استطاعت أن تحشد أربعة آلاف مقاتل بما في ذلك حلفاؤها ، وكان جيشها في هذا الغزو أحسن جيش من حيث دقة التنظيم وجودة التسليح ووفرة التموين .

فقد كان لقريش من سلاح النقليات ألف وخمسمائة بعير ، ومن سلاح المطاردة ثلاثمائة فرس .

وفي دار الندوة عقدت قريش اللواء وأعطته لعثمان بن طلحة (٨٧) العبدري ، أما قيادة الجيش فقد أسندت الى أبي سفيان بن حرب الأموي ، وتسلّم خالد بن الوليد المخزومي قيادة سلاح الفرسان ، وهذا كله تم ويتم بموجب نظام أبدي تسير عليه قريش في حروبها منذ عهود سحيقة .

---

(٨٧) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد) .

حيث كان النظام المتفق عليه بين قبائل قريش أن تكون القيادة العامة للجيش في بني أمية ، والسقاية والرفادة في بني هاشم ، وحمل اللواء في الحروب يختص به بنو عبدالدار مع الحجابة ، وقيادة الفرسان (ضمن القيادة العامة) تكون دائماً في بني مخزوم .

تحالف قريش عند أستار الكعبة

وزيادة في التصميم من قريش على حرب النبي (ص) خرج من بطونها خمسون رجلاً الى الحرم فتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها وتعاهدوا (وهم كذلك) على أن لا يخذل بعضهم بعضاً ، ويكونوا يداً واحدة على محمد ما بقي منهم رجل واحد (٨٨) .

قادة جيوش غطفان

أما قبائل غطفان فقد حشدت ستة آلاف مقاتل منها ومن أحلافها ، ولما كانت غطفان ليس لها نظام ثابت تسير عليه في الحروب كما هو الحال عند قريش التي يكون القائد العام لجيوشها رجل من بني أمية (دائماً) فقد تحركت قواتها تحت أربع قيادات ، وذلك حسب القبائل الرئيسية في غطفان وهي :

١ ــ بنو فزارة ، وقائدها (عيينة بن حصن بن حذيفة

---

(٨٨) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٩٦ .

بن بدر) .

٢ — بنو أسد .. وقائدها (طليحة بن خويلد) .

٣ — بنو أشجع .. وقائدهم (مسعود بن رُخَيلة بن نويرة) .

٤ — بنو مرّة .. وقائدهم (الحارث بن عوف) .

الموقف في المدينة

ولم تكن المدينة غافلة عما يجري ضدها في مكة وبين مضارب البدو في نجد ، فقد كانت استخباراتها العسكرية على غاية من التيقظ والنشاط .

فقد كان رجالها يتتبّعون حركات الوفد اليهودي منذ فصل من خيبر في اتجاه مكة ، وكانت على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش (أولاً) ثم غطفان ثانيـــاً .

فكان رجال هذه الاستخبارات يبعثون بمعلوماتهم الخطيرة عن مفاوضات الاحزاب ، أولاً بأول .

فظل المسلمون على غاية من الحذر والترقب ينتظرون النتائج النهاية للمساعي التي كان يقوم بها وفد خيبر لدى تلك القبائل العربية المعادية للمسلمين .

وبمجرد حصول الوفد اليهودي على موافقة قريش وغطفان على انشاء الاتحاد العسكري الثلاثي المؤلف من اليهود وغطفان

وقريش تلقت المدينة من رجال استخباراتها هذا النبأ الخطير ، كما تلقت المدينة بعد ذلك من رجال استخبارات جيشها ما يجب أن تحصل عليه من معلومات دقيقة عن مبلغ قوة جيوش الاحزاب وعدد جنوده وأسماء قادته ومتى سيكون ميعاد تحركه نحو المدينة .

وفور حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدوّ ، شرع الرسول (ص) في اتخاذ الاجراءات الفورية الدفاعية اللازمة ، ودعا الى اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيشه من المهاجرين والأنصار ، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعي اليهود الخبيثة .

خطة الدفاع عن المدينة

ولما كانت المعلومات قد أكدت أن الهدف الرئيسي من الغزو هو احتلال المدينة نفسها ، فقد دار البحث في مجلس الرسول العسكري (بصفة رئيسية) حول ما يجب اتخاذه من خطوات فعالة حاسمة للدفاع عن العاصمة ، وهل يخرج المسلمون للقاء الأحزاب خارج المدينة كما فعلوا في غزوة أُحُدٌ أم يبقون متحصنين داخل المدينة ؟.

وأخيراً ، تقرر أن يتحصن المسلمون في المدينة للدفاع عنها ، لا سيما وأن الجيش الذي جاء لغزوهم لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل ، بينما لا يزيد جيش المدينة (في أكبر تقدير) على ثلاثة آلاف مقاتل: بينهم كثير من المنافقين الذين

لا يُؤْمَنُ جانبهم (ساعة الحرب).

ولقد اختيرت المنطقة الشمالية من المدينة لتكون خطاً للدفاع الرئيسي فيها.

المشكلة الكبرى

وبالرغم من توفق القيادة الاسلامية في اختيار ذلك المكان للدفاع عن المدينة، والذي لا يوجد أصلح منه للصمود في وجه الغزاة، فان مشكلة (لدى وضع الخطط) قد اعترضت القادة المسلمين وأقلقت بالهم، وهي أنهم فكّروا (لدى وضع خطة الدفاع عن المدينة) كيف يمكنهم الصمود في وجه جيوش الاحزاب الجرارة ومنعها من احتلال المدينة إذا ما شدّت عليهم شدة رجل واحد والتحموا معها في معركة فاصلة في ذلك المكان الواسع الواقع عند مداخل المدينة الشمالية ؟.

فجيش المسلمين وإن كان رجاله يمتازون بالشجاعة النادرة التي مبعثها قوة العقيدة الصادقة، إلا أن كثرة العدد الغامرة الساحقة التي يتفوق بها جيش العدوّ، لا بد من أن يُحسَبَ حسابها بتعقل لأنّ الكثرة في أغلب الأحيان تغلب الشجاعة (كما يقولون).

صاحب فكرة الخندق

ولهذا كان المسلمون (وهم يبحثون خطة الدفاع عن

المدينة) يفكّرون في إيجاد وسيلة فعّالة يتحاشون بها الالتحام الشامل المباشر مع جيوش الأحزاب الجرارة المتفوقة (عدداً وعُدّة) في معركة فاصلة ليتسنى لهم تجميدها وتعطيلها عن الحركة على النحو الواسع الذي تريد وترغب .

ولدى بحث هـــذا الموضوع ، كـــان سلمان الفارسي موجوداً ضمن هيئة أركان حرب الجيش الاسلامي للتشاور ، فتقدم الى القائد الأعلى النبي (ص) بمشروع مُهمّ عظيم ، وافق عليه النبي (ص) واغتبط به القادة من أصحابه الكرام .

ولقد كان لتنفيذ هذا المشروع الدفاعي أكبر الأثر في تجميد نشاط جيوش الأحزاب وشل حركتها ثم فشل الغزو في النهاية .

الخندق أعظم خط للدفاع عن المدينة

فقد اقترح سلمان الفارسي أن يسارع المسلمون الى حفر خندق عميق يشمل كل المنطقة التي يتوقع أن ترتادها جيوش الاحزاب لاقتحام المدينة منها ، على ان يتم حفر هذا الخندق قبل وصول جيوش الأحزاب الى المكان الذي تبلّغت القيادة في المدينة أنها قررت الوصول اليه ، وهو السهل الواقع شمال غرب المدينة .

فقد قال سلمان الفارسي ـ بعد أن تقدم بمشروعه ـ .. يا رسول الله، إنّا كنّا بأرض فارس إذا تخوّفنا الخيل خندقنا علينـــا .

تفاصيل خطة الدفاع

وهكذا تم الاتفاق بين قادة الجيش الاسلامي على خطة الدفاع عن المدينة ، وهي كما يلي :

١ ــ أن يبقى المسلمون في المدينة للدفاع عنها وأن لا يخرجوا الى الأحزاب خارجها .

٢ ــ أن تكون خطوط الدفاع الرئيسية في الطرف الشمالي من المدينة ، والواقع أمام جبل (سلع) على أن يكون هذا الجبل خلف ظهر القيادة الاسلامية .

٣ ــ أن يقوم المسلمون بحفر خندق عميق يكون حاجزاً بينهم وبين جيوش الأحزاب .

٤ ــ أن يقوم المسلمون بإخلاء المدينة من النساء والأطفال والعجزة ، على أن يجمعوهم في الحصون والآطام المنيعة ، بعيدين عن العدوّ ، ولتسهل حمايتهم (وخاصة من يهود بني قريظة الواقعة منازلهم في المدينة والذين لا يأمن المسلمون جانبهم) .

٥ ــ أن تقوم الدوريات الاسلامية بحراسة المدينة على التوالي، طول الليل حتّى الصباح .

استراتيجية موقع الجيش الإسلامي

لقد كان اختيار المنطقة الشمالية من المدينة لتكون موقعاً رئيسياً للجيش الاسلامي ، اختياراً موفّقاً من الناحية الاستراتيجية .

فقد كان ذلك المكان هو أصلح مكان يجب أن يعسكر فيه من يريد الدفاع عن المدينة لأنه الناحية الوحيدة المكشوفة التي لا بد لأي غازٍ يريد احتلال المدينة من أن يتجه إليها .

لأن الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة الأخرى، والأبنية المتشابكة والحواجز الطبيعية الصعبة التي لا تسمح لقوات الأحزاب الكبيرة أن تقوم باجراء أي قتال على نطاق واسع كما تريد ، الأمر الذي يجعل قادة الاحزاب لا يفكرون في ارتياد تلك الجهات للهجوم على المدينة منها .

فالناحية الوحيدة الصالحة للقتال على أوسع نطاق (كما يريد قادة الاحزاب) هي الناحية الشمالية للمدينة حيث المسالك الواسعة والميادين الفسيحة ، دونما حواجز طبيعية تذكر ، وهذه الناحية هي التي قررت القيادة الاسلامية حفر الخندق فيها بصفة رئيسية .

كيف وأين حفر الخندق ؟ .

لقد كانت الخارطة التي وضعت (على أساس مشروع سلمان الفارسي) لحفر الخندق تقضي بحفر خندق رئيسي يمتد من الطرف الغربي لجبل (سلع) حتى طرف (حرّة الوبرة) المطبقة على المدينة من الناحية الغربية ، على أن يمر هذا الخندق بشكل قوس في الطرف الشرقي للحرة المذكورة ، ثم يمتد على خط (شبه مستقيم) أمام

جبل سلع متجهاً نحو الشرق حتى أطراف (حرّة واقم) المطبقة على المدينة من الناحية الشرقية ، فيفصل (تماماً) بين معسكر الأحزاب الواقع في الناحية الشمالية حول (أحُد ومجمع الأسيال) وبين معسكر الاسلام الواقع امام جبل سِلع وعند مداخل المدينة الشمالية الواقعة ما بين الحرّتين .

كما يتناول المشروع حفر خنادق جزئية ثانوية يرتبط بعضها ببعض تمتد من طرف الخندق الرئيسي عند الطرف الغربي لجبل سلع وتتجه جنوباً حتى مجمع وادي بطحان ورانونا بحيث تجيء هذه الخنادق المترابطة خلف المسجد النبوي من الناحية الغربية (٨٩) .

وبموجب الخريطة الموضوعة للخندق شرع رجال الجيش في حفره فوراً ، وكان الرسول القائد (ص) يشترك معهم في الحفر ، فكان يعمل كأي فرد من المسلمين حتى انتهى حفر الخندق .

وقد باشر جند الاسلام في الحفر بجدٍ وتصميم ومثابرة ، وكانت قيادة المدينة قد قررت بذل الجهد لانجاز حفر الخندق قبل أن تصل جيوش الأحزاب الى ضواحي المدينة ، وذلك أن هذا الخندق هو الذي سيكون خط الدفاع الرئيسي عن العاصمة ، ولهذا كان لا بد من انجازه قبل وصول جيوش العدوّ .

---

(٨٩) انظر خارطة المعركة مفصلة في آخر الكتاب .

الجيش هو الذي حفر الخندق

وكان الذي قام بحفر الخندق هم افراد الجيش الاسلامي فقط (بما فيهم النبي القائد) لأنهم ليس لهم خدم ولا عبيد (كالأمم الأخرى) يسخرونهم لمثل هذا العمل العسكري الشاق.

وبالرغم من أن يهود بني قريظة هم من سكان يثرب ومواطنون ملزمون (بموجب المعاهدة المعقودة بينهم وبين المسلمين) بالمشاركة في حفر الخندق، كعمل من أعمال الدفاع عن المدينة، فإن هؤلاء اليهود لم يشارك منهم أحد في عملية حفر الخندق، وكان هذا أول عمل (غير ودي) ومخالفاً لنصوص المعاهدة قام به يهود بني قريظة.

ومن أجل إنجاز حفر الخندق (قبل وصول جيوش الأحزاب) أجهد الجيش نفسه في العمل، فكانوا يعملون في الحفر طيلة النهار ولا يستريحون الا في الليل، وكان النبي القائد (ص) يشرف بنفسه على أعمال الحفر، ويحفر بيده الكريمة مع المسلمين حتى تم إنجاز الخندق.

ظروف صعبة

وبالاضافة الى أن عملية حفر الخندق (الذي لا يقل طوله عن خمسة آلاف ذراع) كانت — في حد ذاتها — عملية شاقة للغاية، فان الظروف المعيشية التي قام المسلمون

فيها بحفر الخندق ، كانت ظروفاً صعبة جداً .

فقد كان ذلك العام (بالنسبة للمسلمين) عام مجاعة ، فكان أكثر المسلمين الذين يقومون بأعمال الحفر لا يجدون القوت الضروري الذي يسدّون به جوعتهم ، بما في ذلك النبي الأعظم (ص) الذي كان (وهو يقوم بأعمال الحفر) يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وكان الطعام الرئيسي للذين يجدونه ، هو التمر فقط .

ومما يدلّ على أن المسلمين كانوا عند حفر الخندق في ظروف معيشية صعبة ، وفي حالة مجاعة شديدة ما رواه ابن اسحاق عن سعيد بن مينا أنه حدّث : أن ابنة لبشير ابن سعد ــ أخت النعمان بن بشير ــ قالت دعتني أمّي عمرة بنت رواحة ، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ، ثم قالت : أي بنيّة ، اذهبي الى أبيك وخالك عبدالله بن رواحة بغدائهما .

قالت : فأخذتها ، فانطلقت بها ، فمررت برسول الله الله (ص) وأنا ألتمس أبي وخالي فقال : تعالي يا بنيّة ما هذا معك؟ قالت : فقلت : يا رسول الله ، هذا تمر بعثتني به أمّي الى أبي بشير بن سعد ، وخالي عبدالله بن رواحة يتغديانه .

قال : هاتيه ، قالت : فصببته في كفيّ رسول الله (ص) فما ملأتهما ، ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دعا بالتمر عليه ، فتبدّد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده : أصرخ في أهل

الخندق : أن هلّم الى الغداء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه ليسقط من أطراف الثوب .

وبالاضافة الى حالة المجاعة الشديدة التي كان عليها المسلمون عند حفر الخندق ، كان البرد قارصاً والرياح شديدة مزعجة .

قال البخاري راوياً عن سهل بن سعد قال : كنا مع النبي (ص) في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتافنا فقال رسول الله (ص) :

اللهم لا عيش إلاّ عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

وفي البخاري أيضاً عن أنس ، فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون (في غداة باردة) ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

أللهم لا عيش إلاّ عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهـــاد ما بقينا أبدا

النبي يحمل التراب في الخندق

ولقد كان النبي القائد صلى الله عليه وسلم يعمل في حفر الخندق ويحمل التراب على ظهره كأنشط واحد في الجند ، فقد روى البخاري من حديث البراء ، قال : لما

كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله (ص) رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بشعر ابن رواحة وهو ينقل التراب ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينةً علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

الصخرة التي حطمها الرسول

وقد جاء في صحيح البخاري عن جابر قال : إنّا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كُدْية (٩٠) شديدة (وعند النسائي : صخرة لا تأخذ منها المعاول) فجاءوا الى النبي (ص) فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقام — وبطنه مشدود بحجر (من الجوع) — ولنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ، فأخذ النبي (ص) المعول فضرب ، فعادت (أي الكدية) كثيباً أهيل .

وعند أحمد والنسائي ، فاشتكينا ذلك لرسول الله (ص) ، فجاء فأخذ المعول فقال : بسم الله ، فضرب ضربة فنثر ثلثها ، وقال : ألله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله اني لأبصر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية فقطع

(٩٠) الكدية (بضم الكاف وتقديم الدال المهملة على التحتانية) هي القطعة الصلبة .

ثلثاً آخر فقال : ألله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس ، واني والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر فقال : الله اكبر أُعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة ا هـ .

وهذا القول النبوي الكريم أثبتت الأحداث (فيما بعد) صدقه فصار من أعلام النبوة التي لا تخطىء ، فقد تم استيلاء المسلمين على كل الأماكن التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ـ عند تفتيت هذه الصخرة في الخندق ـ أنه أُعطي مفاتيحها (الشام واليمن وفارس بعاصمتها المدائن وقصرها الأبيض) وتم فتح كل ذلك في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر .

وبالرغم من الهول وجوّ الرعب والفزع الذي يحيط المنطقة التي أصبحت كلها آذان في انتظار وصول جيوش الأحزاب التي سبقتها سيول من التخويف و الترويع لأهل المدينة ، بالرغم من ذلك كله ، فقد كان المسلمون يعملون في حفر الخندق بثقة واطمئنان وثبات ، قُدوتهم الكبرى في ذلك نبيهم الأعظم (ص) الذي (وهو بينهم يعمل) يتبسط معهم في الحديث ، ويداعب ويمازح في روح حلوة حانية لا يقول صاحبها إلاَّ حقاً .

وإنه لمنظر رائع حقاً ، محمد بن عبدالله النبي والقائد يحفر التراب بالمسحاة في الخندق ويضرب بالفأس والمعول ،

وينحني ليجرف التراب ويحمله في المكتل على ظهره .

ويختلط بأصحابه كواحد منهم ، ويرفع صوته مع المرتجزين وهم يرفعون أصواتهم بالرجز في أثناء العمل ، فيشاركهم الترجيع ، وقد كانوا يتغنون بأغان ساذجة من وحي الحوادث الجارية .

كان هناك رجل من المسلمين اسمه جعيل ، فكره رسول الله (ص) اسمه وسماه عمرا ، فراح العاملون في الخندق يغنون جماعة بهذا الرجز الساذج :

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوماً ظهرا

فاذا مروا في ترجيعهم بكلمة «عمرو» قال : رسول الله (ص) «عمرا» واذا مروا بكلمة «ظهر» قال رسول الله (ص) «ظهرا» .

ولنا أن نتصور هذا الجوّ الذي يعمل فيه المسلمون ، والرسول (ص) بينهم يضرب بالفأس ، ويجرف بالمسحاة ؛ ويحمل في المكتل ، ويرجّع هذا الغناء (إن صح تسميته غناء)، ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها هذا الجو في أرواحهم ، وأي ينبوع يتفجر في كيانهم بالرضى والحماسة والثقة والاعتزاز (٩١).

ابو رقاد

ولم يخل ذلك الجوّ الجاد من ممازحة ومداعبة وتبسط ،

---

(٩١) في ظلال القرآن ج ٢١ ص ١٤٧ .

فقد كان زيد بن ثابت (٩٢) غلاماً صغيراً، وكان فيمن يعمل بنقل التراب في الخندق ، وقد أثنى عليه النبي (ص) عندما رآه (على صغر سنه) يعمل في الخندق ، فقال : أما انه نعم الغلام .

وغلبت الغلام (زيد) عيناه فنام في الخندق — بعد أن أحسّ بالدفء، وكان البرد شديداً — فأخذ عمارة بن حزام سلاحه (مازحاً) وهو لا يشعر، فلما قام الغلام ولم يجد سلاحه ، فزع ، وكان النبي (ص) حاضراً ، فقال له (مداعباً) : «يا أبا رقاد !! نمت حتى ذهب سلاحك» ثم قال : «من له علم بسلاح هذا الغلام؟» فقال عمارة : يا رسول الله هو عندي، فقال : رده عليه ، ونهى (ص) أن يروّع المسلم ويؤخذ متاعه لاعباً .

وما أحلاها روح الدعابة واللطف التي مازح بها النبي الأعظم والقائد الأعلى ذلك الغلام الصغير الذي غلبه النوم أثناء العمل ، فنام حتى أُخذ منه سلاحه «يا أبا رقاد ! نمت حتى ذهب سلاحك» . وجرس الدعابة الحلوة الحانية يتجلى في كلمة «يا أبا رقاد» التي داعب بها النبي القائد (ص) ذلك الغلام الصغير ، وصدق الله الذي يقول في هذا النبي الكريم (وإنك لعلى خلق عظيم) .

---

(٩٢) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد) .

عمل المنافقين التخريبي في الخندق

وبينما العمل يجري بجد ونشاط واجتهاد واخلاص لحفر الخندق من جانب النبي (ص) والصفوة من أصحابه ، وبالرغم من حرص قيادة المدينة على إنجاز حفر الخندق ، حتّى يتم قبل وصول جيوش الأحزاب ، فإن قيادة المدينة قد واجهت (منذ اللحظة الأولى) متاعب وأعمال عليها طابع التخريب والتفتيت ، من فئات ينتسبون الى الاسلام وهم ليسوا منه في شيء (وهم المنافقون) قد كان لهم (منذ بدأت الاستعدادات لمعركة الخندق) أدوار غير مشرّفة وسيئة .

فقبل وصول الأحزاب ، وأثناء عملية حفر الخندق كان هؤلاء المنافقون (الذين كانوا بحكم الظاهر جزءاً من الجيش الاسلامي) يتكاسلون في العمل أثناء عملية الحفر ، وإن عملوا مع الجند ، لا يعملون إلاّ الضعيف التافه من العمل .

وكانوا بالاضافة الى هذا التكاسل ، يقومون بأعمال تخريبية ، يشجعون بها ضعاف النفوس على التهاون في العمل في الخندق ، بغية تأخير إنجاز الخندق حتّى تصل جيوش الأحزاب .

فقد كان هؤلاء المنافقون (بالرغم من الاوامر العسكرية المشددة التي تقضي بأن لا يترك أحد مكانه في العمل في

الخندق إلاّ بأذن خاص من النبي القائد – ص –) يتركون العمل ويتسللون منه الى أهليهم دون أن يستأذنوا الرسول القائد (ص) ، فيكون لأعمالهم التخريبية هذه آثار سيئة على سير العمل في حفر الخندق .

أما المسلمون الصادقون فقد كانوا يقدّرون الظروف الاستثنائية الخطيرة التي تستلزم مواصلة الحفر لانجاز الخندق بأسرع ما يمكن ، فكانوا لذلك ، لا يتركون العمل في الخندق إلاّ لضرورة قصوى تستدعي ذلك .

ومع ذلك فقد كانوا إذا نابت أحدهم نائبة من الحاجة التي لا بد منها ، لا يتركون العمل لقضائها ، إلاّ بعد أن يأخذوا إذناً خاصاً من النبي القائد (ص) امتثالاً لأمر الله تعالى الذي جاء فيه « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم » .

فيأذن لهم النبي (ص) في اللحاق بحاجتهم ، فاذا قضوها عادوا الى ما كانوا عليه من العمل في الخندق بأقصى سرعة رغبة منهم في الخير وحرصاً على إطاعة أوامر نبيهم الكريم .

أمّا المنافقون فقد كانوا يتسللون من الخندق ويتركون العمل فيه ، ويذهبون الى حيث شاءوا دون أن يستأذنوا

النبي القائد (ص) (يفعلون ذلك بقصد التخريب والتثبيط) ، لأنهم لا يؤمنون في قرارة أنفسهم بالنبي (ص) ولا بما يدعو اليه بالرغم من تظاهرهم بالاسلام وانخراطهم في سلك جيشه ، ذلك التظاهر الذي لم يكن إلاّ (تقية) تجعلهم – فقط – يتمتعون بحقوق المواطن المسلم ، وهم في حقيقتهم ليسوا بمسلمين ، ولهذا فإن هؤلاء المنافقين يشعرون في أعماق نفوسهم بأنهم غير ملزمين باطاعة أمر النبي (ص) ، وعلى أساس هذا الشعور كان تصرفهم المشين أثناء عملية حفر الخندق .

تنديد القرآن بالمنافقين

ولقد ندّد القرآن الكريم بهؤلاء المنافقين الذين يتركون العمل في الخندق بدافع التخريب ، فيتركونه دون أن يستأذنوا النبي القائد (ص) ، فقال تعالى :

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (٩٣) .

وبالرغم من عمل المنافقين التخريبي وتكاسلهم عن العمل في الخندق ، فإن عملهم الخبيث هذا لم يؤثر (كثيراً) على سير عملية الحفر ، فقد أجهد الصحابة أنفسهم في العمل

---

(٩٣) النور ٦٣ .

حتى تم حفر الخندق كما أراد الرسول القائد (ص) وقبل وصول جيوش الأحزاب بعدة أيام.

ورغبة من القيادة العامة في إنجاز حفر الخندق بأسرع ما يمكن لجأت الى بث روح التنافس الشريف بين المسلمين في الحفر.

طول الخندق

فقد قسّم الرسول (ص) المساحات المطلوب حفرها خندقاً، بين أصحابه لكل عشرة منهم أربعين ذراعاً، عليهم أن ينجزوا حفرها، (في حدود العمق والعرض الذي حدّدته القيادة لهم)، بأسرع ما يمكن.

وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، أما عمق الخندق فلا يمكن أن يكون أقل من سبعة أذرع، والعرض (كذلك) لا يمكن أن يكون أقل من تسعة أذرع، لأن الخيل باستطاعتها أن تقتحم ما هو أقل من هذه المسافة.

وقد استغرق حفر الخندق (كما يقول إبن القيم في الهدي النبوي) شهراً كاملاً.

فعالية الخندق في الدفاع عن المدينة

وبعد حفر الخندق أصبحت المدينة كالحصن المنيع الذي لا يمكن الوصول اليه إلاّ عن طريق المغامرات الانتحارية، وبعد تضحيات باهظة جسيمة.

فقد كانت المدينة ـ بالاضافة الى الخندق وهو خط

الدفاع الرئيسي – مشبكة بالبنيان ومحاطة بأشجار النخيل الكثيفة ولمسافات بعيدة ، وغير النخيل من الزروع الأخرى ، بالاضافة الى الحواجز الطبيعية الصعبة الكبرى ، وهي الحرار الثلاث التي تكتنف المدينة من جهاتها الثلا ث .. حرة من الجنوب وحرة واقم من الشرق ، وحرة الوبرة من الغرب .

والحوار في منطقة المدينة تشكل حواجز طبيعية فعالة لا يستطيع أحد (راجلاً كان أم راكباً) اجتيازها إلا بصعوبة كبيرة لأنها مزروعة بحجارة سوداء محروقة يكون لها (غالباً) رؤوس جارحة كأطراف الآلات الحادة .

وهكذا وبحفر الخندق استطاعت قيادة الجيش الاسلامي أن تعزل جيوش العدوّ عن مكان تجمع الجيش الاسلامي المدافع عن المدينة عزلاً تاماً وأن تحول بينه وبين اقتحام مداخل المدينة كما يريد لأن هذه المداخل صارت بعد حفر الخندق خلفه ممنوعة به .

فقد حال الخندق بين الجيشين وبين أي التحام جدي شامل ، وهذا هو الذي تهدف اليه القيادة الاسلامية ، وتكرهه ولا تريد حدوثه قيادة جيوش الاحزاب التي ما حشّدت تلك الحشود التي لم تشهد الجزيرة مثلها الا لتشتبك مع المسلمين في معركة فاصلة تهدف من ورائها الى محو الكيان الاسلامي الى الأبد.

لقد تحصّن المسلمون وراء الخندق الواسع العميق الذي يبلغ طوله حوالي إثنين من الكيلومترات ، الخندق الذي لا يجرؤ على اقتحامه إلاّ فارس فذّ زاهد في الحياة ، أمّا

المشاة فلا سبيل لهم الى اقتحامه ابداً .

وقد استفاد الجيش الاسلامي من مناعة جبل سلع الذي جعله خلف ظهره ، كما استفاد من وعورة حرة الوبرة لحماية جناحه الأيسر ووعورة حرة واقم لحماية جناحه الأيمن ، والحرة الجنوبية لحماية مؤخرته .

فأمن كلياً من خطر أي التفاف يقوم به العدو ، فظهره الى جبل سلع ومن ورائه المدينة وأبنيتها المتشابكة ونخيلها المتلاصق مع الحرة وجناحاه محميتان بالحرتين مع جزء من الخندق ، أما صدره فقد واجـه به جيوش الأحزاب التي صار الخندق فاصلاً بينه وبينها .

وهكذا نجحت خطة الدفاع التي اتبعها المسلمون نجاحاً كاملاً ، حيث صاروا بعد تطبيقها وكأنهم في قلعة منيعة يكون الموت مصير من تحدّثه نفسه بالاقتراب منها من ناحية الخندق الشمالية التي لا يمكن لجيوش الأحزاب أن تقوم بأي قتال جدّي وعلى نطاق واسع كما تريد إلاّ عن طريقها .

فكان الخندق بحق من أعظم الأعمال الدفاعية التي قام بها المسلمون لاحباط هجوم الأحزاب على المدينة ، فقد وجد قادة الاحزاب المكان الذي حدّدوه ليكون هدف هجومهم الرئيسي وهو مداخل المدينة الفسيحة الواقعة بين الحرتين ، وجدوا هذا المكان تعسكر فيه جيوش الاسلام رابضة ليوثها وراء الخندق العميق ، فتحطمت آمالهم وانهارت خططهم التي رسموها لاقتحام المدينة من الأساس .

الفَصْلُ الثَالِث

- وصول جيوش الأحزاب الى مشارف المدينة .
- ضرب الحصار على المدينة .
- بنو قريظة ينقضون العهد ويحاولون ضرب المسلمين من الخلف .
- انسحاب المنافقين من الجيش الإسلامي وارجافهم ضد المسلمين .
- تشديد الحصار الى درجة الاختناق .
- اقتحام الفرسان الخندق وقتل فارس قريش .
- اشتداد الكرب وبلوغ القلوب الحناجر .
- النبي يحاول عقد صلح منفرد مع غطفان ويعرض عليهم ثلث ثمار المدينة .
- الأنصار يرفضون فكرة عقد هذا الصلح ويقررون المقاومة حتى النهاية .

بعد أن أتم المسلمون حفر خندقهم حول المدينة بقيت قواتهم خلفه مرابطة متيقظة في انتظار جيوش الأحزاب

بينما انتشرت دورياتهم المسلحة تطوف بمشارف المدينة مظهرة التهليل والتكبير لحراسة المدينة من أية مباغتة، وخاصة من ناحية يهود بني قريظة الذين (بالرغم من الحلف المعقود بينهم وبين المسلمين) كان المسلمون يتوقعون منهم الشر.

النبي يستعرض جيشه

وكان النبي (ص) بعد حفر الخندق قد استعرض جيشه وقام بتنظيمه (كما هي عادته) فقسّم الجيش الى فرقتين:

١ ــ المهاجرون وأعطى لواءهم لمولاه زيد بن حارثة (٩٤)

٢ ــ الأنصار، وأعطى لواءهم لسعد بن عبادة.

وكانت أغلبية الجيش تتألف (كما هي العادة) من الأنصار.

وعند استعراض الجيش، عُرِض عليه فتْيان المسلمين الذين حاولوا الاشتراك في معركة الدفاع عن المدينة. وبعد استعراضهم أمر من لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بأن يرجع الى أهله ولم يسمع له بالانخراط في سلك الجيش، وأجاز من الفتيان من بلغ الخامسة عشر، ومن هؤلاء الذين سمح لهم بالاشتراك في المعركة: عبدالله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري والبراء بن عازب (٩٥).

---

(٩٤) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).
(٩٥) انظر ترجمة هؤلاء الأربعة في كتابنا (غزوة احد).

أمير المدينة بالنيابة

وكما هي عادته عند العزم على خوض المعارك أصدر مرسوماً عينّ بموجبه إبن أم مكتوم (٩٦) ليكون أميراً على المدينة حتّى تنتهي معركة الأحزاب .

كما انتخب لحراسة المدينة قوة خاصة ، قسمها الى فصيلتين. فصيلة (٩٧) أعطى قيادتها لزيد بن حارثة ، والأخرى أعطى قيادتها لمسلمة بن أسلم وأمر ، هاتين الفصيلتين بأن تقوما بأعمال الدورية داخل المدينة وعلى مشارفها وخاصة ناحية الجنوب حيث تقع منازل بني قريظة الذين لم يكن المسلمون على ثقة منهم بالرغم من الحلف العسكري المعقود بين الفريقين .

وكان أخشى ما يخشاه المسلمون من ناحية يهود بني قريظة هو تعرضهم للنساء والذراري ، ولذلك فإن الرسول (ص) أمر بأن ترفع النساء والصبيان في الحصون والآطام ليمتنعوا فيها .

تحركات الأحزاب نحو المدينة

أما جيوش الأحزاب فبعد أن تكامل حشدها وتمّ تجهيزها تحرك بها قادتها نحو المدينة . ففصل من ديار غطفان وأحلافها

---

(٩٦) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد) .

(٩٧) مسلمة بن أسلم بن حريش بمهملة بوزن (عظيم) الانصاري ، قال في الاصابة .. ذكره ابن عبد البر ، وقال قتل شهيداً يوم الجسر في فارس .

ستة آلاف مقاتل يقودها أربعة من زعمائهم ، هم (كما تقدم) : عيينة بن حِصْن ، قائد بني فزارة ، وطليحة بن خويلد الأسدي ، قائد بني أسد ، ومسعود بن رخيلة ، قائد بني أشجع ، والحارث بن عوف ، قائد بني مرّة .

كما فصل من ديار قريش وأحلافها أربعة آلاف مقاتل يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وقد كان (ضمن الجيش القرشي) سبعمائة مقاتل من بني سليم (٩٨) ، يقودهم سفيان بن عبدشمس حليف بني أمية ، وقد وافى قريشاً بجيشه هذا بمر الظهران (٩٩) ، أما اليهود فقد كان جيشهم الذي كان من المتفق عليه بين الوفد اليهودي وقريش أن يشترك مع جيوش الأحزاب هو جيش بني قريظة الواقع في الطرف الجنوبي للمدينة ، والذي تعهد حُيي بن أخطب لقادة الأحزاب أن يوجه ضربته المميتة من الخلف للمسلمين ساعة الصفر .

القائد العام لجيوش الأحزاب

وقد اتفق قادة جيوش الأحزاب على إسناد القيادة العامة لكل هذه الجيوش إلى أبي سفيان (صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) .

وقد كان الميعاد المتفق عليه بين قادة الاحزاب للتجمع حول المدينة هو شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة .

---

(٩٨) انظر ترجمة هذه القبيلة في كتابنا (غزوة أحد) .

(٩٩) قال في مراصد الاطلاع .. مر الظهران ، مكان على مرحلة من مكة .

ففي أول هذا الشهر تكامل حشد جيوش الأحزاب حول المدينة ، فرابطت هناك عشرة آلاف مقاتل من قريش وأحلافها وغطفان وأحلافها ، يساندهم حوالي ألفين من اليهود داخل المدينة وخارجها ، ظلوا لهم كالاحتياطي ، بينما لا يزيد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل على أكثر تقدير .

حقيقة عدد قوات المسلمين

وذكر ابن حزم في كتابه (جوامع السيرة) ص ١٨٧ (وصحّحه) أن جيش المسلمين لم يزد على تسعمائة في غزوة الاحزاب .

وأقول .. هذا أقرب الى الصواب، وخاصة بعد انسحاب المنافقين الذين كانوا يشكلون جزءاً كبيراً من الجيش وتركهم المسلمين وشأنهم عند ما اشتد الكرب وتأزمت الحالة ، وتصويبنا لرأي الامام ابن حزم يستند الى الأمور المنطقية التاليـــة :

أ ــ ان الجيش الذي اشترك في معركة أُحُدْ (وهو كل القوة التي لدى الدولة في المدينة) لا يزيد على سبعمائة مقاتل ، حيث لم يتخلف عن معركة أُحُدْ من يقدر على حمل السلاح .

ب ــ من المؤكد أن المدة بين معركة الأحزاب وغزوة

أُحُد لا تزيد على سنة واحدة (١٠٠) ، ولم تكن هذه السنة إلاّ فترة صراع مرير بين الاسلام والوثنية في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وخاصة المناطق المحيطة بالمدينة .

ج ـ لذلك يكون من المؤكد أن الداخلين في الاسلام (في تلك المدة) هم قليلون جداً ، وعلى هذا يكون من المستبعد أن يرتفع عدد الجيش الاسلامي (في فترة الصراع العصيبة تلك) من سبعمائة مقاتل الى ثلاثة آلاف مقاتل .

د ـ مما يعضد الرأي الذي ذهب اليه ابن حزم هو أن المصادر التاريخية (كما في حديث حذيفة بن اليمان في البداية والنهاية) ذكرت أنه في الليالي الأخيرة الحاسمة من ليالي الخندق ، لم يبق مع النبي (ص) في وجه الأحزاب أمام

---

(١٠٠) أختلف اصحاب المغازي والسير في تاريخ غزوة الاحزاب ، فقال إبن اسحاق إنها كانت في شوال سنة خمس للهجرة ، وبذلك صرح غيره من المؤرخين ، ولكن الذي رجحه البخاري ومال اليه هو قول (موسى بن عقبة) إنها كانت في شوال سنة أربع للهجرة ، وقد رجح الامام ابن حزم ما ذهب اليه الامام البخاري من أن هذه الغزوة كانت في السنة الرابعة، لا الخامسة، وقد استند الامام البخاري ومن تبعه على القول بأنها كانت سنة أربع ، بقول عبدالله بن عمر بن الخطاب الذي روي عنه بسند صحيح ، إن النبي (ص) عندما استعرض الفتيان الذين أرادوا الاشتراك في معركة أحد (وهي سنة ثلاث للهجرة) رد عبدالله بن عمر ولم يجزه لانه كان ابن اربع عشرة سنة وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فاجازه (اي سمح له بالاشتراك في القتال لبلوغه) سن الرشد ، فيكون (على هذا) بين غزوة أحد وبين الاحزاب سنة واحدة ، وغزوة أحد كانت سنة ثلاث ، فتكون الاحزاب (بالتأكيد) سنة أربع ، والله أعلم .

الخندق سوى ثلاثمائة مقاتل أو نحوهم (١٠١) .

هـ ـ لو كان جيش المسلمين الذي ظلّ صامداً في وجه الأحزاب طيلة ليالي الخندق ، هو ثلاثة آلاف مقاتل ، لما خاف المسلمون ذلك الخوف الشديد الذي بلغ حد الزلزال وبلوغ القلوب الحناجر ، كما أشار الى ذلك القرآن الكريم « وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونـــا ، هنالك ابتلي المـــؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديدا (١٠٢) .

ذلك أن نسبة المسلمين تكون إذا كان جيشهم ثلاثة آلاف مقاتل في غزوة الأحزاب) واحداً لثلاثة تقريباً ، وهذه ليست أول مرة تكون فيها نسبة المحاربين المسلمين واحداً لثلاثة من المشركين . ففي معركة أُحُدْ كانت النسبة أقل من ذلك ، حيث كانت نسبة المسلمين واحد لأربعة من المشركين (تقريباً) حيث خرجت من المدينة سبعمائة مقاتل اصطدموا في العراء (حيث لا خندق ولا أبنية ولا حِرار تحميهم) بثلاثة آلاف مقاتل فأنزلوا بهم في الجولة الأولى هزيمة منكرة كادت تكون ساحقة لولا غلطة الرماة .

فكيف (إذن) يبلغ الخوف والفزع بالمسلمين إلى تلك

---

(١٠١) سيأتي حديث حذيفة بن اليمان دذا مفصلا فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله .

(١٠٢) الاحزاب ١١ .

الدرجة وهم متحصنون داخل المدينة وكأنهم في قلعة منيعة ، ونسبة محاربيهم واحد لثلاثة فقط من محاربي الأحزاب ، وهي نسبة أكثر من نسبتهم في معركة أحد التي قابلوا فيها جيش العدو ، دون أن يشعروا بخوف أو فزع ؟.

فهل انخفضت نسبة الشجاعة والثبات والاقدام بين المسلمين بعد معركة أحد ، حتى يبلغ بهم الخوف والفزع الى تلك الدرجة في معركة الأحزاب ، ونسبة عددهم إزاء عسكر الأحزاب فيها أكثر من نسبته إزاء عسكر مكة في معركة أحد ؟.. الجواب الصحيح هي النفي (قطعاً) فالمسلمون بعد معركة أحد لم يزدادوا إلاّ شجاعة وثباتاً وإقداماً وتضحية .

(إذن) وقد ثبت أن الخوف والفزع قد بلغ بين المسلمين الى درجة الزلزال وبلوغ القلوب الحناجر في غزوة الأحزاب لا بد من القول (أو الترجيح على الأقل) بأنَ مصدر ذلك الخوف والفزع الأساسي ، هو أن المسلمين (على شجاعتهم) كانوا (لكثرة عدوهم وقلتهم) كالجزيرة الصغيرة التي يحيط بها البحر الهائج ويهددها بالابتلاع في كل لحظة ، وان كثرة العدوّ الغامرة الهائلة التي بلغت فيها النسبة واحداً من المسلمين لعشرة من المشركين مع تربص اليهود وتوقّع المسلمين منهم نقض العهد وضربهم من الخلف ، مع إرجاف المنافقين داخل الجيش ، هي السبب الأكبر في ذلك الخوف

والفزع الذي انتاب المسلمين بصورة لم يسبق لها مثيل .

وعلى هذا لا بد من ترجيح القول الذي قال به الإمام ابن حزم ، وهو أن جيش المسلمين الذي رابط وراء الخندق وصمد في وجه عشرة آلاف مقاتل من عساكر الاحزاب لم يزد على تسعمائة مقاتل .

ولا يستبعد أن يكون عدد الجيش الاسلامي أول الأمر – وعندما كان المنافقون يشكلون جزءاً منه – قد بلغ الألفين أو اكثر ، وانه بانخذالهم وتسللهم منه عندما بدأت جيوش الأحزاب تصل الى المنطقة – لم يبق فيه إلاّ تسعمائة من المؤمنين الصادقين الذين لم يجد الشك سبيلاً الى نفوسهم ، فيكون صحيحاً القول بأن الجيش الاسلامي الذي واجه الأعداء يوم الأحزاب لم يزد على تسعمائة مقاتل كما أكد ذلك الامام ابن حزم ، وبهذا (فقط) نستطيع أن نجد تفسيراً مقنعاً لذلك الخوف الشديد الذي بلغ بالقلوب الحناجر .

أول شهيدين من المسلمين

وكان النبي (ص) قبل وصول جيش الأحزاب قد بعث رجلين من رجال استخبارات الجيش الاسلامي للاستطلاع ومعرفة تحركات العدو والحصول على المعلومات الكافية عنه .

والرجلان هما (سليط) و (سفيان بن عوف) (١٠٣)

---

(١٠٣) ذكر ذلك في السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠١ فقال .. وأرسل سليطاً=

وقد وقع هذان الرجلان في قبضة العدو ، حيث التقيا وهما يقومان بعملية الاستكشاف ، التقيا بدورية كبيرة مسلّحة من دوريات جيوش الأحزاب الاستطلاعية ، فطوقهمـا رجال الدورية ثم قبضوا عليهما ، ثم سلموهما لقيادة الأحزاب ، وبمجرد علم هذه القيادة أن الرجلين عيناً لمعسكر المدينة أمرت بإعدامهما فأعدما فوراً ، وقد تمكن المسلمون من نقل جثّتي هذين الشهيدين الى المدينة فدفنهما النبي (ص) في قبر واحد ، فكانا اول شهيدين قتلا في معركة الأحزاب .

أين عسكر الأحزاب ؟

وبعد أن وصلت جيوش الأحزاب الى المدينة .. عسكر الجيش المكي في مجمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة، كما عسكرت غطفان بجيوشها بذنب نُقمى الى الطرف الغربي من جبل أُحد .

وكان الزعيم اليهودي الكبير محزّب الأحزاب ، حُيَي بن أخطب موجوداً مع الأحزاب يتنقل بين المعسكرين وعلى اتصال دائم بقادة الفريقين (غطفان وقريش) يرسم الخطط ويقدم المشورة .

= وسفيان بن عوف طليعة للاحزاب فقتلوهما ، غير أني لم أجد (فيما بين يدي من مصادر) ترجمة واضحة لهذين الشهيدين .

خطة الأحزاب لاحتلال المدينة

كانت الخطة التي وضعها قادة الاحزاب لاحتلال المدينة (باستشارة قادة اليهود) تقضي بأن يكون زحف جيوش الأحزاب على المدينة من الناحية الشمالية على هيئة قوس يمتد من الشمال الغربي حتى الشمال الشرقي، فيطبق هذا القوس – في زحف سريع ساحق عارم – على عسكر الاسلام المرابط عند مداخل المدينة الشمالية.

على أن يتحرك – ساعة الصفر – (كما هو المتفق عليه بين زعماء اليهود وقادة الأحزاب) تسعمائة مقاتل من يهود بني قريظة (حلفاء المسلمين) والواقعين في الطرف الجنوبي من المدينة وخلف ظهر الجيش الاسلامي، فيسددوا الى الجيش الاسلامي الصغير – ساعة الالتحام – من الخلف ضربة قاتلة، وبهذا (وكما تتصور قيادة الأحزاب) يتم استئصال شأفة المسلمين بسهولة.

الحلف بين المسلمين واليهود

ومن الجدير بالذكر أن حلفاً عسكرياً ومعاهدة دفاع مشترك كانت – حتى وصول جيوش الأحزاب – معقودة بين المسلمين وبين يهود بني قريظة، إلاَّ إن زعيم خيبر وسيدها حُيَي بن أخطب النضري قد أقنع يهود بني قريظة بنقض هذا العهد والانقضاض على المسلمين من الخلف ساعة الصفر كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

الخندق يحبط خطة الأحزاب

وكانت خطة الأحزاب خطة دقيقة رهيبة مُحكَمة، كان من الممكن (لو نجحت) أن يحقق الغزو أهدافه فتجني قيادة الاحزاب ثمار هذه الخطة (بسهولة) بسحق المسلمين واستئصال شأفتهم لو لم يهد الله المسلمون الى حفر الخندق.

إذ لولا هذا الخندق لكان من السهل على أحد عشر ألف مقاتل تحيط بتسعمائة مقاتل من كلّ مكان أن تقضي على هذه التسعمائة إذا ما اشتبكت معها في معركة فاصلة، وخاصة إذا كانت هذه التسعمائة بينها من يتربص بها الدوائر ويشيع روح الهزيمة بين صفوفها من المنافقين، كما هو واقع المسلمين في المدينة.

ولكن المسلمين بحفر الخندق نسفوا خطة الأحزاب المرسومة للمعركة من الأساس وأبطلوا مفعولها، إذ حال هذا الخندق بين جيوش الأحزاب وبين الالتحام مع عسكر الاسلام في معركة فاصلة كما تريد، وكما هي الخطة المرسومة سلفاً للمعركة.

فقد وقف قادة الأحزاب حائرين أمام هذه المكيدة الكبيرة (الخندق)، هذه المكيدة التي ما كان العرب يكيدونها ولا يعرفون عنها شيئاً في تاريخهم الطويل.

تجميد نشاط جيوش الأحزاب

فقد جمّد وجود هذا الخندق نشاط تلك الآلاف المؤلفة

من جيوش الأحزاب ، التي (كما سنفصله) لم تستطع مقاتلة المسلمين إلاّ عن طريق حركات تسلل انتحارية عبر (الخندق) كانت نتيجة الاقدام عليها إمّا القتل وإمّا الفرار كما حدث لفرسان عمرو بن ود الذين اقتحموا الخندق بأفراسهم كما سيأتي تفصيله إن شاء الله .

لقد ذهب قادة الأحزاب ومعهم رأس الفتنة ومثير عواصف هذا الغزو (حُيَيّ بن أخطب) ذهبوا بأنفسهم لارتياد واختيار مواقع الهجوم العام على المدينة ليوزعوا الكتائب ساعة الزحف على أساس هذا الاختيار .

مكيدة ما كانت العرب تكيدها

ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مفاجأة عسكرية وبدعة حربية ذهلوا لها وصعقوا .. وجدوا أنفسهم أمام خندق وكأنه أفعى تكاد تلف المدينة من جميع نواحيها (١٠٣) .. خندق يبلغ طوله حوالي ألفي متر في سعة أربعة أمتار وعمق ثلاثة ، ترابط على مشارفه وتتطوف بنواحيه ليل نهار كتائب من جند الله كأنها الأسد الضواري في انتظار الفرائس .

فأُسقط في أيدي أولئك القادة ، وأخذوا يطوفون بخيلهم (في ذهول وغيظ) حول الخندق لتفقده والكشف عليه فوجدوه أمنع خط دفاع أقامه المسلمون في وجههم .

---

(١٠٤) انظر موضع الخندق من الخارطة العامة للمعركة في هذا الكتاب .

فحاروا في هذه المكيدة الحربية العظيمة التي كانت سبباً في قَلْب خططهم رأساً على عقب ، وشَلّ حركاتهم الواسعة التي كانوا ينوون القيام بها والتي كانت مناط أملهم للاطباق على المدينة وسحق المسلمين فيها .

وبعد أن طاف قادة الاحزاب بجميع نواحي الخندق وتأكدوا من صعوبة اقتحامه ، وقفوا على مشارفه فقالوا (وقد أخذ الغيظ منهم كل مأخذ) .. إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .. وفعلاً فقد كانت عملية الخندق بدعة حربية ما كان العرب يعرفونها في تاريخهم الطويل بالرغم من أنهم شعب محارب منذ عرف .

ولكن المشركين بالرغم من أن الخندق قد شلّ حركة جيوشهم وجعلهم يقفون أمامه مكتوفي الأيدي حائرين ، فانهم قد صمموا على البقاء وفرض الحصار الخانق على المدينة ، والقيام بمناوشة المسلمين على الدوام بالتناوب ليلاً ونهاراً لارهاقهم ، وفي انتظار الفرص المواتية لاقتحام المدينة . لا سيما وأنهم كانوا يتوقعون من اليهود ضرب المسلمين من الخلف . .

أمّا المسلمون ، فبالرغم من تحصنهم وراء الخندق الذي كان أحسن وآمن خط دفاع أقاموه في وجه جيوش الأحزاب الجرارة الغامرة ، فإنهم ظلوا على حذر وخوف ، لأنهم كانوا يخشون غدر يهود بني قريظة الواقعة

حصونهم خلف خطوطهم . كما يخشون قيام المنافقين الموجودين بينهم بحملات تثبيط وارجاف يشيعون بها روح الهزيمة بين ضعاف الايمان داخل الجيش .

خوف المسلمين من غدر اليهود

وأخشى ما يخشاه قادة جيش المدينة (داخلياً) هو غدر يهود بني قريظة عندما تتحرج الحالة ، لأن ذلك يعني تعريض الكيان الاسلامي بأكمله لأشد الأخطار .

لأن انضمام يهود بني قريظة الذين توازي قواتهم (فقط) قوات الجيش الاسلامي بأكمله ، يجعل المسلمين بين نارين .. اليهود خلف خطوطهم ، والأحزاب – بآلافهم العشرة – أمامهم .

ودخول بني قريظة المعركة ضد المسلمين وضربهم من الخلف يقلل من أهمية الخندق بالنسبة لجيوش الأحزاب ، لأن الخندق إنما يكون ذا أهمية بالنسبة للدفاع عن المدينة إذا كان هناك قوة كافية من المسلمين تطوف حوله ليلاً نهاراً لضرب أية قوة تحاول المغامرة باقتحامه عن طريق القفز بالخيل أو عن طريق الردم .

فضرب بني قريظة المسلمين من الخلف ، وهم (أي بنو قريظة) قوة لا يستهان بها يجبر المسلمين أو قسماً كبيراً من قواتهم المرابطة في وجه الأحزاب على مشارف الخندق

يجبرهم على ترك مراكزهم حول الخندق لمواجهة الهجوم اليهودي الآتي من الخلف.

وهذا دونما شك يسهّل لقوات الاحزاب اجتياز الخندق ناحية المسلمين، بأعداد كبيرة، سواء عن طريق القفز بالخيل، أو عن طريق ردم الخندق في مواضع يستطيع رجال الأحزاب ردمها للعبور دون أن يجدوا مقاومة تُذكر من المسلمين لأن رجالهم سيكونون قليلين جداً بعد الهجوم اليهودي مما يجعل مراقبة الخندق وحراسته حراسة فعالة من الأمور الصعبة، لا سيما وأن الخندق يبلغ طوله حوالي ألفي متر، قد جندت قيادة المدينة كل جيشها (تقريباً) لمراقبته وحراسة مشارفه.

ولقد حدث ما كان المسلمون يتوقعون حدوثه ويخشونه، سواء من ناحية نقض اليهود العهد وانضمامهم الى جيوش الأحزاب، أو من ناحية انفضاض المنافقين من حول النبي (ص) وتسللهم من الجيش ساعة الشدة وقيامهم بعمليات الارجاف والتثبيط وبث روح الهزيمة بين المحاربين المسلمين.

كيف نقض اليهود العهد

لقد كانت استخبارات الجيش الاسلامي تراقب مناطق بني قريظة مراقبة شديدة وتتبع حركاتها وسكناتها لتأتي بما يجدّ من أخبارها الى النبي القائد (ص) أولاً بأول، وذلك لئلا يؤخذ المسلمون على حين غرّة.

فقد كانت القيادة الاسلامية في المدينة عند وصول جيوش الأحزاب على غاية من الحرج ، وموقفها بلغ من الدقة الى أبعد الحدود .

كان قادة جيش المدينة على يقين بأن شيطان بني النضير (حُيَيّ بن أخطب) سيتصل بيهود بني قريظة لتحريضهم على نقض العهد وحملهم على الانضمام الى جيوش الأحزاب .

وقد أجمع أصحاب المغازي والسِّيَرْ على أن زعيم يهود بني قريظة (كعب بن أسد) ما كان راغباً (مطلقاً) في نقض العهد الذي بينه وبين المسلمين ولم تكن له أية رغبة في الغدر بهم ، خوفاً على اليهود من النتائج المخيفة التي ستترتب على نقض العهد والغدر بالمسلمين في تلك الظروف الخانقة التي بلغت فيها حالة المسلمين من الدقة والحراجة أقصى الدرجات ، لأن اليهود لم يكونوا واثقين من تغلب الأحزاب على المسلمين .

شيطان خيبر في حصون بني قريظة

ولكن شيطان خيبر والعدوّ رقم (١) للاسلام والمسلمين ــ حُيَيّ بن أخطب ــ الذي تعهد لقادة قريش وغطفان ــ عندما حزّبها وشجعها على حرب النبي (ص) ــ وَفَدَ على بني قريظة يدعوهم الى اغتنام فرصة وجود جيوش الأحزاب وحسّن لهم الغدر بالمسلمين والمشاركة مع الأحزاب في استئصال شأفتهم ، هذا الاستئصال الذي

ما كان سيد خيبر اليهودي الحاقد يشك لحظة في نجاح عمليته .

ولقد قاوم سيد بني قريظة كعب بن أسد هذه المحاولة الخطيرة طويلاً، وقبّح لحيي بن أخطب فكرة ما يدعو اليه من الغدر بالمسلمين ، وذكَّره بالعواقب الوخيمة الّتي سيتعرض لها شعب قريظة نتيجة هذا الغدر الذي يلح حيي بن أخطب في القيام به .

ممانعة سيد قريظة في نقض العهد

حتّى إن كعباً هذا عندما علم بقدوم حُيَيّ بن أخطب إلى ديار بني قريظة لمقابلته أمر باقفال باب الحصن في وجهه ورفض (أول الأمر مقابلته) وطلب منه مغادرة ديار بني قريظة والعودة من حيث أتى .

لأنه يعلم أن مجيئه لم يكن إلاّ لحمل بني قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين ، فكعب هذا يعرف مدى العداوة الشديدة الّتي يحملها حُيَيّ بن أخطب للنبي (ص) خاصة .

ولكن هذا اليهودي الشرير (حيي بن أخطب) بالرغم من إقفال باب الحصن في وجهه وأمرِه بمغادرة ديار بني قريظة ظل (في مكرٍ وخبث) لاصقاً بباب حصن سيد بني قريظة ، طالباً منه (وبالحاح) أن يفتح له باب الحصن ليكلّمه ، حتّى خجل من كلامه القارص الذي كان يوجهه

اليه ، ففتح له .

المناقشة بين الزعيمين اليهوديين

ولقد دارت بين سيد بني النضير وسيد بني قريظة حول هذا الموضوع الخطير المناقشة التالية :

فعندما وقف حيي بن أخطب بباب الحصن ، نادى كعب بن أسد طالباً منه أن يفتح له (وقد تمنع) قائلاً :

« ويحك يا كعب .. إفتح لي » .

فقال له كعب .. « ويحك يا حيي إنك امروٌ مشؤوم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلاَّ وفاءً وصدقاً » .

فقال حيي .. « ويحك افتح لي أكلمك » .

فقال .. « ما أنا بفاعل » .

فغاظ ذلك حيياً ، فقال لكعب .. « والله ما أغلقت دوني إلاَّ تخوفاً على جشيشتك (١٠٥) أن آكل معك منها » . فخجل منه كعب (على أثر هذا الكلام اللاذع) ففتح له .

فقال له حيي .. ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بجمع الأسيال وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أُحد . قد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا

---

(١٠٥) الجشيشة ، البر يطحن غليظا .

حتّى يستأصلوا محمداً ومن معه .

فقال له كعب .. جئتني والله بذل الدهر ، وكل ما يُخْشَى ، فاني لم أر في محمد إلاّ صدقاً ووفاءً .. جئتني يا حيّي بجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء – يعني بذلك كعب : أن جيوش الأحزاب على كثرتها وعظمتها ليست إلاّ كالسحاب العظيم الذي تصلك رعوده الآذان ويخطف برقه الأبصار وليس فيه قطرة ماء – .

ثم اردف كعب قائلاً .. « ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلاّ صدقاً ووفاءً » .

ولما ألح حييّ بن أخطب في كلامه وأخذ بأسلوبه الخادع الماكر يؤثر في نفوس القوم دعا سيد بني قريظة كعب بن أسد الى اجتماع حضره جميع زعماء وقادة بني قريظة للتشاور في الأمر وبحث ما عرضه عليهم سيد بني النضير من الانضمام الى جيوش الأحزاب ونقض العهد الذي بين قريظة والمسلمين .

أحد زعماء اليهود يحذر من نقض العهد

وفي هذا المجلس تكلم أحد عقلائهم من القادة وهو عمرو بن سُعْدَى ، فنصح بني قريظة وحذّرهم مغبّة نقض العهد ، وذكّرهم بوفاء محمد الدائم وصدقه في معاملته لهم ، وأنهم ملزمون بالقتال الى جانبه ، فكيف يسوغ لهم (بدلاً من ذلك) أن يشهروا السلاح في وجهه ويعينوا

عدوّه عليه؟ ثم طلب منهم الثبات على العهد وألاّ يصغوا لكلام حيّي بن أخطب ، بل وطلب منهم حمل السلاح الى جانب المسلمين كما تفرض ذلك المعاهدة المعقودة بينهم ، وطلب عمر و بن سُعْدَى في هذا المجلس من قومه أن يقفوا على الأقل موقف الحياد إذا لم ينصروا النبي (ص) قائلاً : « اذا لم تنصروا محمداً فاتركوه وعدوّه » .

ولكن وساوس وتأثيرات حيّي بن أخطب كانت أقوى من كل معارضة حيث ما زال ـ كما قال ابن اسحاق ـ يستدرج زعماء بني قريظة ويفتل كعباً في الذروة والغارب حتى أجابوه الى ما طلب ، فوافقوا على نقض العهد والغدر بالمسلمين والانضمام الى جيوش الأحزاب .

وذلك بعد أن أخذوا العهد والميثاق على سيد بني النضير حيّي بن أخطب أن يبقى معهم في حصونهم ليصيبه ما أصابهم اذا رجعت قريش وغطفان دون أن تقضي جيوشها على المسلمين ، وبعد أن أخذت قريظة العهد على حيّي بن أخطب بهذا الخصوص ، أعلن زعيمها كعب بن أسد نقضه للعهد وبرىء ما كان بينه وبين النبي (صلى الله عليه وسلم) .

إعلان قريظة الغدر بالمسلمين

ثم استدعى كعب زعماء بني قريظة ، ومنهم ، الزبير بن باطا .. وعزّال بن ميمون .. وشاس بن قيس وعقبة بن

زيد وعمرو بن سُعدى ، وأحضر الصحيفة الّتي تتضمن نص العهد المعقود بين النبي (ص) ويهود بني قريظة وطلب منهم الموافقة على تمزيقها إيذاناً بنقض العهد والانضمام الى الأحزاب.

فوافق الجميع على ذلك ، إلاّ الزعيم القرظي (عمرو بن سُعْدَى) فانه ابى ذلك وأعلن رفضه المشاركة في جريمة الغدر هذه قائلاً : « والله لا اغدر بمحمد أبداً » وبقي على عهده ، وسانده في موقفه النبيل هذا ثلاثة من هؤلاء اليهود وهم ثعلبة وأسيد أبناء سَعْية ، وأسد بن عبيد .

وقد كان موقف عمرو بن سُعْدَى اليهودي هذا سبباً في نجاته عندما حاق بيهود بني قريظة مكرهم السيء وأعدمهم المسلمون بعد انصراف الأحزاب عن المدينة ، أما الثلاثة الآخرون فقد خرجوا الى النبي (ص) وأعلنوا إسلامهم كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

تمزيق صحيفة المعاهدة

أما كعب بن أسد فقد تغلب طيشه على عقله وحلمه فأصرّ مع زعماء قريظة على الغدر بالمسلمين فأخذوا الصحيفة الّتي تتضمن نص العقد الذي بينهم وبين المسلمين فمزقوها ، وبهذا أصبحوا حرباً على النبي (ص) وجزءاً من قوة الأحزاب .

ولما كانت ديار بني قريظة تحت مراقبة رجال الاستخبارات الاسلامية ، فقد علم هؤلاء الرجال بالحدث الخطير الذي

أحدثته قريظة الخائنة ، فسارعوا بنقل الخبر الى الرسول القائد (ص) .

فجاءوا اليه وهو في معسكره وراء الخندق ، وبلّغوه (سرّاً) هذا الخبر الخطير ، فشق عليه ذلك كثيراً ، إلاّ أنه كتم الخبر وأمر بأن لا يشاع منه شيء .

وفد النبي الى بني قريظة

ثم استدعى (ص) حليف بني قريظة وسيد الأوس (سعد بن معاذ) وهو شاب لم يبلغ الأربعين من عمره ، كما استدعى سيد الخزرج (سعد بن عبادة) وهما قطبا الأنصار وعبدالله بن رواحة وأسيد بن حضير ، والجميع من الأنصار ،وبعد أن حضروا كلّفهم النبي (ص) بأن يذهبوا إلى بني قريظة وأمرهم بأن يتصلوا رسمياً بزعماء هؤلاء اليهود ، ويسألوهم عمّا بلغهم من خبر نقضهم العهد .

وقد أمر النبي (ص) رجال هذا الوفد بأن يكتموا الخبر عن الجيش إذا ما صحّ أن يهود بني قريظة قد نقضوا العهد وأعلنوا الحرب ، وذلك لكي لا يؤثر هذا الخبر الخطير على معنويات الجند الاسلامي ، الذي هو في حالة كرب وشدة لمواجهته الأحزاب على مشارف الخندق ليلاً ونهاراً .

قال ابن اسحاق .. فقال (ص) .. انطلقوا حتى تنظروا أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً ، فالحنوا

لي لحناً أعرفه ، دون القوم ، ولا تفتّوا في عضد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس .

فذهب الوفد النبوي الى منازل بني قريظة لمعرفة الحقيقة ومراجعة هؤلاء اليهود ومحاولة إعادتهم الى الصواب إذا كانوا قد نقضوا العهد .

المشادة بين الوفد النبوي وبني قريظة

ولما وصل الوفد النبوي استقبلهم زعماء بني قريظة ودخلوا معهم حصنهم ، وهناك بدأوا المحادثات ، وقد بدأ الوفد الاسلامي هذه المحادثات بدعوة بني قريظة الى توثيق الحلف الذي بينهم وبين المسلمين ، أو الوقوف على الحياد على الأقل (بالموادعة) .

ولكن اليهود بمجرد سماعهم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والحديث عن العهد قالوا .. (في قحة وصفاقة » : « من هو رسول الله هذا ؟؟ » ثم أردفوا قائلين للوفد النبوي : « لا عهد بيننا وبين محمد » ، وقالوا للوفد (وقد تملكهم الغرور) ما معناه : « الآن جئتم تطلبون منا الوفاء بالعهد الذي بيننا وبين محمد ، وهو الذي كسر جناحنا وأخرج إخواننا بني النضير ؟؟ اذهبوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد » .

فغضب عند ذلك سيد الخزرج سعد بن عبادة (وكان

في طبعه حدة) وأخذ يشاتم اليهود فشاتموه وأغضبوه كثيراً .

غير أن سيد الأوس الشاب وحليف هؤلاء اليهود (سعد بن معاذ) تدخّل في الأمر ، وطلب من سعد بن عبادة أن يسيطر على أعصابه قائلاً : « دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة » .

سعد بن معاذ ينصح حلفاءه اليهود

ثم توجه سعد بن معاذ الى حلفائه (في محاولة أخيرة) ناصحاً إياهم بالرجوع عن غيّهم ومحذّرهم العواقب المخيفة التي ستترتب على إصرارهم على نقض العهد .

فقد قال سعد بن معاذ ليهود بني قريظة : « إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة وأنا اخاف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمرّ منه » .

فكان جواب هؤلاء اليهود لحليفهم الناصح على مستوى الخسة والسفاهة التي هي من طبيعتهم ، حيث قالوا لسعد ساخرين من نصحه : « أكَلْتَ أير أبيك » .

فقال لهم سعد (وكان حليماً ثبتاً) : « غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن يا بني قريظة » ، فتمادى بنو قريظة في غيهم وصاروا ينالون من النبي (ص) ويقعون فيه ، وهنا يئس سعد بن معاذ من عودة حلفائه الى جادة الصواب ، فعاد الوفد الاسلامي يحمل الى النبي (ص)

تأكيد غدر اليهود ونقضهم العهد .

كلمة السر بين النبي والوفد

وعند وصول الوفد الى المعسكر وراء الخندق سلّموا على النبي (ص) ، وأبلغوه (بواسطة كلمة السر) حقيقة الموقف وأن يهود بني قريظة (فعلاً) قد غدروا ونكثوا .

وكلمة السر هذه التي تبلّغ بها النبي (ص) هذا الخبر المزعج (دون أن يعلم أحد غيره في المعسكر) هي - عَضَل والقارة - فبمجرّد أن قال رئيس الوفد هذه الكلمة للنبي (ص) أدرك - حالاً - أن اليهود قد غدروا ونقضوا العهد .

وعَضَل والقارة هما قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النبي (ص) في ذات الرجيع من أرض الحجاز وهم في طريقهم للقيـــام بتعليم تلك القبائل أصول الدين الاسلامي - كما فصلناه فيما مضى من هذا الكتاب - .

الموقف بعد نقض اليهود العهد

لقد كان نشاط الأحزاب العسكري - قبل أن تنقض قريظة العهد الذي بينها وبين المسلمين - فاتراً الى حدّ ما فلم يكن هناك من عمل عسكري يذكر سوى الطواف بالخيل للاستكشاف والازعاج والارهاب ، لأن المشركين قد قطعوا الأمل في عبور الخندق بأعداد كبيرة تمكّنهم من الالتحام

في معركة فاصلة مع جيش المدينة ، لأن هذا الجيش قد أصبح بأكمله يقوم بأعمال الدورية وحراسة مشارف الخندق .

ولكن لما تلقت الأحزاب (رسمياً) انضمام يهود بني قريظة اليهم ازداد نشاطهم العسكري وصاروا يضاعفون من جولاتهم وتحفزاتهم الجدية حول الخندق حيث عاد اليهم الأمل في اقتحام مواقع المسلمين وراء الخندق بأعداد كبيرة بسهولة .

ذلك أن انضمام قريظة اليهم سيجبر أكثرية الجيش الاسلامي على ترك مواقعه التي يرابط فيها لحراسة مشارف الخندق ، واذا ما قامت القوات اليهودية - التي ليس بينها وبين المسلمين أي حاجز من خندق أو غيره - بالهجوم على معسكر المسلمين من الخلف كما هو المتفق عليه بين قادة قريش وغطفان وبين اليهود ، فسيؤدي ذلك الى إشغال عدد كبير من قوات المسلمين .

تدهور الحالة عند المسلمين

لقد كان موقف القوات الاسلامية منذ وصول جيش الأحزاب - وقبل نقض اليهود العهد - موقفاً حرجاً (دونما شك) .

لأنه مهما يقال عن مناعة خط الدفاع الأول (الخندق) ومهما يمتاز به المسلمون من شجاعة وثبات وإقدام ، فان

وجود تسعمائة مقاتل من هؤلاء المسلمين أمام عشرة آلاف مقاتل كلهم غيظ وحقد على المسلمين ، يتحفزون لابتلاعهم ، كما يتحفز البحر الهادر المحيط بالجزيرة الصغيرة جداً لابتلاعها ــ هو أمر من الخطورة بحيث يجعل مركز قوة المسلمين الصغيرة من الحراجة بمكان يقضّ مضاجع القيادة المسئولة عن هذه القوة ويجعلها في مركز حرج للغاية .

غير أن انضمام يهود بني قريظة الى معسكر الأحزاب قد عقّد الوضع داخل المعسكر الاسلامي وجعل الحالة فيه تسير من سيء الى أسوأ .

بلغت الحالة أعلى درجات الحراجة والتأزّم ، فأصبح مصير الكيان الاسلامي كلّه في مهبّ العاصفة .

بلوغ القلوب الحناجر

ولقد تحدث القرآن الكريم عن حالة الحرج والتدهور هذه ووصف ما وصل اليه المسلمون من جزع وخوف وفزع في تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف ، حيث قال الله تعالى في سورة الاحزاب :

(إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديدا) (١٠٦)

---

(١٠٦) الاحزاب ٩ — ١٠ .

فقد عظم البلاء على المسلمين وتضاعف الابتلاء ، واشتد الخوف وانتاب الفزع كل القلوب (تقريباً)،وبلغ الجزع بأفراد الجيش الصغير (كما حدّثنا القرآن) الى درجة الزلزال ، بعد أن أصبح هذا الجيش الاسلامي الصغير – بعد غدر اليهود – بين نارين .. الأحزاب من الأمام .. واليهود من الخلف .

وكأنّ الله تعالى أراد بهذا البلاء العظيم أن يمتحن هذه الأمة الناشئة التي سينشىء على كاهلها أعظم دولة عرفها التاريخ ، ويوكل اليها مهمة نشر أشرف عقيدة عرفتها الدنيا .

فقد ظهر بهذا الامتحان العظيم الطيب من الخبيث والصادق من الكاذب .

أمّا المؤمنون فقد ثبتوا على إيمانهم ولم يزدهم توتر الحالة وتدهور الموقف إلاّ تمسّكاً بدينهم والتفافاً حول نبيهم .

ظهور النفاق داخل جيش المدينة

أمّا الذين في قلوبهم مرض والذين يتسترون وراء التظاهر بالاسلام فقد كشفتهم هذه التطورات الخطيرة وظهروا – أمام هذا الامتحان العظيم – على حقيقتهم كذابين مخادعين يُظهرون ما لا يُبطنون .

فقد كانت فئات من هذا النوع الخبيث (كالطابور

الخامس) (١٠٧) داخل الجيش الاسلامي ، يتظاهرون بالاسلام وهم – في حقيقتهم – يعملون ضد الاسلام ويتمنون زوال المسلمين ، وهؤلاء هم المنافقون .

وكان ظهور هذا النوع الخبيث على حقيقته ، بل وتظاهره (داخل الجيش الاسلامي) بميله نحو الأحزاب وإطلاقه الاشاعات والأراجيف ضد مقدرة المسلمين على الصمود في وجه العدو ، كل ذلك ضاعف من بلاء المسلمين وجعل محنة جيش المدينة الصغير تستحكم حلقاتها .

ظهرت من داخل الجيش الاسلامي جماعـــة تناوئه وتتمرد على قيادته في تلك الساعات الحاسمة من تاريخه ، وهذا من أخطر الأخطار التي تواجهها الجيوش المحاربة وتهددها بالدمار – حتى وإن كانت ضخمة كبيرة – فكيف بجيش صغير تبلغ نسبة جنوده حيال أعدائه المحيطين به واحداً لأحد عشر .

لقد ظنت فئة المنافقين الموجودين داخل الجيش الاسلامي – وخاصة بعد غدر قريظة وانضمامها الى الأحزاب – ظنت هذه الفئة أن الكيان الاسلامي أصبح قاب قوسين

---

(١٠٧) الطابور الخامس ، أو الطابور [illegible] كما يطلق عليه في العراق ، هم جماعة من الناس يتآمرون معه [illegible] . وأول ما استعمل في الحرب الإسبانية [illegible] الشيوعيين ، وكانت النتيجة [illegible] قوة فرانكو .

أو أدنى من الانهيار .

ولذلك تجرّأت تلك الفئة المنافقة ، وصارت — داخل المعسكر الاسلامي — تتفوه بكلمات خطيرة من شأنها اشاعة الفزع وتحطيم الروح المعنوية بين صفوف الجيش التي استحكمت عليه حلقات المحنة .

مقالة المنافقين

وقف واحد من هؤلاء المنافقين داخل المعسكر الاسلامي وقال — في سخرية واستهزاء : — «كان محمد يعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط ، ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا » .

ويقول إبن اسحاق : إن الذي قال هذا القول المنكر ، هو معتّب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف ، غير أن الذي لا غبار عليه هو أن معتّب بن قشير هذا كان من البدريين ، وقد ذكر اسمه في عدادهم إبن اسحاق نفسه ، ولهذا عقب إبن هشام الراوي للسيرة على قول ابن اسحاق بقوله .. وأخبرني من أثق به من أهل العلم ، أن معتّب بن قشير لم يكن من المنافقين ، واحتج بأنه كان من أهل بدر .

وعلى العموم فقد تفوّه المنافقون بهذا القول المنكر ،وقد أشار القرآن الى الذين تفوّهوا به ، فقال تعالى :

(وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا) (١٠٨) .

وهكذا كان وجود فئات المنافقين داخل الجيش الاسلامي ابتلاءاً ثالثاً ابتُلِيَ به المسلمون .

القوة الثالثة ضد المسلمين

فقد كان هؤلاء المنافقون - بالاضافة الى قوة الأحزاب ويهود بني قريظة - قوة ثالثة ضد المعسكر الاسلامي ، صارت عن قصد وإصرار - وخاصة بعد نقض اليهود العهد - تقوم بأعمال تخريبية داخل صفوف المسلمين مما زاد الطين بلة (كما يقولون) وضاعف من متاعب القيادة العليا في الجيش الاسلامي .

فقد صار هؤلاء المنافقون (وخاصة بعد غدر اليهود واشتداد الحالة على المسلمين) صاروا وبصورة شبه علنية يبثون روح الفزع والتخاذل واليأس داخل صفوف جيش المدينة .

انسحاب المنافقين من الجيش

ولم تكتف فئات المنافقين بالارجاف والسخرية من الاسلام وبث روح الانهزام بين صفوف جيش المدينة ،

---

(١٠٨) سورة الاحزاب ١٢ .

بل لقد ذهبوا الى أبعد من ذلك حيث أخذوا في الانسحاب والتحريض على الانسحاب من الجيش في ذلك الظرف الدقيق الذي يمر به الكيان الاسلامي كله هادفين من وراء ذلك إلى مساندة الأحزاب وتسهيل مهمتهم بطريق غير مباشر ، وتحت ستار حماية منازلهم من غارات يهود بني قريظة.

ففي تلك الحالة التي بلغ فيها موقف المسلمين الذروة من الحرج ، تقدم أحد هؤلاء المنافقين الموجودين في الجيش الاسلامي ، فطلب – باسم ملأ من قومه – أن يسمح لهم الرسول القائد (ص) بالانسحاب من المعسكر المواجه للأحزاب على مشارف الخندق بحجة أنهم بحاجة إلى حماية بيوتهم المكشوفة الواقعة في أطراف المدينة.

وما كان قصد هؤلاء المنافقين حماية بيوتهم ، وإنما قصدهم الفرار ثم بثّ الفزع وروح الهزيمة والتذمر داخل الجيش الصغير الذي أحاط به عدوّه من كل مكان.

قال اوس بن قيظي – أحد بني حارثة بن الحارث – يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو ، (وذلك على ملأ من رجال قومه) فأذنْ لنا أن نخرج فنرجع الى ديارنا ، فانّها خارج المدينة.

وقد فضح القرآن الكريم هؤلاء المنافقين ، حيث صرح بأن طلبهم الانسحاب من الجيش في ذلك الظرف الدقيق ، لم يكن لحماية بيوتهم ، وإنما كان القصد منه ، الفرار وتفتيت

وحدة الجيش ، وبث مزيد من الخوف والفزع في نفوس الجند ، فبيوتهم لم تكن عورة (كما زعموا) وإنما هم كاذبون منافقون لا سيما وان دوريات المسلمين داخل المدينة قد كلّفت بحماية ديار هؤلاء ، فقال تعالى :

« وإذ قالت طائفة منهم يا أهـــل يثرب لا مقام لكـــم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة إنْ يريدون إلاّ فرارا » (١٠٩)

وهكذا ازدادت حالة المسلمين دقة وازداد موقفهم تحرّجاً ، بعد اكتشاف فئات المنافقين الذين ظهروا على حقيقتهم داخل صفوف الجيش ، وصاروا يسخرون من المسلمين ويبثّون روح الهزيمة واليأس داخل صفوفهم .

وبالرغم من أن الخندق قد جمّد نشاط جيوش الأحزاب ، وجعلها عاجزة عن القيام بأي هجوم جدّي واسع ، فان النبي كان (وخاصة بعد نقض اليهود العهد وانضمامهم الى الأحزاب ونجوم النفاق داخل الجيش الاسلامي) يشعر بحراجة مركز جيشه ويخشى عليه — مع قلة عدد رجاله — بين فكي الكماشة الرهيبة التي تمثّلها جيوش الأحزاب وبني قريظة ، هذه الكماشة التي بدأت — وخاصة بعد غدر يهود بني قريظة — تضغط بعنف على عنق جيش المدينة الصغير المرابط وراء الخندق .. بالاضافة إلى تدهور الحالة

---

(١٠٩) الاحزاب : ١٣ .

المعنوية داخل جيش المدينة نفسه الذي برزت – داخل صفوفه – فئات المنافقين ، تثبّط وتُخذّل وتنشر روح الهزيمة والعصيان داخل هذا الجيش الصغير الذي بلغت نسبته إلى أعدائه واحداً لأحد عشر .

محاولة النبي عقد صلح منفرد مع غطفان

ففي هذه الظروف الخانقة التي بلغت فيها الخطورة والاختناق بالجيش الاسلامي الذروة ، كان لا بد للقائد الأعلى النبي (ص) من أن يفكر في وسيلة تخفف (على الأقل) من الضغط الخانق الذي يتعرض له جيشه الصغير ، والذي ينتظر أن يتعرض لمزيد من الأخطار المزلزلة إذا ما وفت قريظة الخائنة بوعدها للأحزاب وشنّت قواتها الهجوم من الخلف على الجيش الاسلامي ، الذي كان قد جنّد كل إمكانياته المحدودة للمرابطة وراء الخندق ومنْع الاحزاب من اجتياز هذا الخندق .

ولهذا – وقبل أن تقوم قريظة بأي هجوم فِعليّ على المسلمين – فكّر النبي (ص) – كقائد عسكري وسياسي – فكّر في القيام بعمل يُحدِث به الفرقة والاختلاف بين قادة الأحزاب ، ليخَفّفَ من شدة وطأة الحصار العنيف المضروب على المدينة ، وليفتّ في عضد اليهود ليؤخّروا (على الأقل) عملية القيام بضرب المسلمين من الخلف ، هذه العملية المخيفة التي كان الجيش الاسلامي يتوقعها بين

لحظة وأخرى .

اتصال النبي بقيادة غطفان

فقد اتصل الرسول القائد (ص) بقائدي غطفان (سِرّاً) ، وهما (عُيَيْنَة بن حِصْن الفزَاري) و (الحارث بن عوف المرّي) . فقد أرسل اليهما (في جنح الظلام) أحد رجال استخباراته الأمناء الأذكياء ليبلغهما رغبته في الاجتماع بهما (سِرّاً) في مقر قيادته وراء الخندق .

وكان النبي (ص) —كقائد أعلى مسئول وكسياسي محنّك مجرّب— أعلم الناس بنفسيات الرجال ، وكان على علم تام بأهداف وغايات كل من القادة والزعماء الذين يقودون هذا الغزو الخطير الساحق .

فهو يعلم (مثلاً) أن غَطَفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته ، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء على ما يمكنهم الاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها .

ولهذا فان الرسول القائد السياسي المحنّك ، لم يحاول الاتصال بقادة الاحزاب من اليهود (كحُيَيّ بن أخطب وكنانة بن الربيع) او قادة قريش كأبي سفيان بن حرب ،

لأن هدف أولئك الرئيسي ، لم يكن المال وإنما كان هدفهم ، هدفاً سياسياً وعقائدياً يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الاسلامي من الأساس ، لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان ، الذين (فعلاً) لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي (ص).

فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عُيَيْنَة بن حِصْن والحارث بن عوف) لطلب النبي القائد (ص) وحضرا (مع بعض أعوانهما) إلى مقر قيادة النبي (ص) واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد.

بنود الصلح المقترح

ولدى وصولهما ، شرع النبي (ص) في مفاوضتهما ، وكانت هذه المفاوضة تدور – بصفة رئيسية – حول عرضٍ تقدّم به النبي (ص) يدعو فيه الى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان ، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة هي :

١ – عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب.

٢ – توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة).

٣ – تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها

عائدة الى بلادها .

٤ ـ يدفع المسلمون لغَطَفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلّها من مختلف الأنواع ، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة .
وقد وافق قائد غَطَفان (عيينة بن حصن والحارث بن عوف) على هذا العرض موافقة تامة إلاّ إنهما طلبا نصف ثمار المدينة بدل الثلث ، ولكن النبي (في هذه المفاوضة الأولية) أصر على الثلث .

فقبلت غطفان ذلك ورضوا بثلث ثمار المدينة ، وتم (مبدئياً) الاتفاق على عقد الصلح ، وفعلاً ، حُرّرت المعاهدة وسُجّلت بنودها ، وكان كاتبها عثمان بن عفان (رض) . ولم يبق لانفاذها الا توقيع الطرفين عليها وإشهاد الشهود .

استشارة الأنصار

ويظهر أن النبي (ص) قد اشترط موافقة سادة الأوس والخزرج من الأنصار على هذه الاتفاقية لتكون نافذة المفعول ، لأن ثمار المدينة هي ملك للأنصار وحدهم ، ولا يمكن التعهد بإعطاء أحد شيئاً من هذه الثمار دون موافقة مالكيها وخاصة إذا كان الأمر اجتهاداً سياسياً من النبي (ص) لا وحياً من السماء .

ولهذا ـ وقبل التوقيع على هذه الاتفاقية ـ استدعى النبي

(ص) سعد بن معاذ (سيد الأوْس) وسعد بن عبادة (سيد الخَزْرج) وشرح لهما ـ بحضور عُيَيْنة بن حِصْن والحارث بن عوف ـ ما دار بينه وبين هذين القائدين وما توصل اليه من اتفاق معهما تنسحب بموجبها وتفك الحصار عن المدينة جميع قبائل غطفان (التي يتكوَّن منها العمود الفقري لهذا الغزو الكبير) مقابل إعطائها ثلث ثمار المدينة .

ثم استشار النبي (ص) السعدين في الأمر ـ وخاصة البند المتعلق باعطاء ثلث ثمار المدينة لغطفان ـ وطلب منهما إبداء رأيهما الأخير في هذه الاتفاقية .

سادة الأنصار يرفضون الصلح

وبعد ان استمعا الى النبي (ص) واطّلعا على بنود الاتفاقية لم يعجبهما ولم يَرُقْ لهما البند المتعلق باعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة ، فلم يلق قبولاً من نفسيهما بل استعظماه .

إلاّ إنهما كمؤمنين صادقين لا يبيحان لأنفسهما الخروج على أمر النبي ـ حتى ولو كان فيه هلاكهما ـ أبلغا النبي القائد (ص) أنهما ـ باسم الانصار جميعاً ـ على اتم استعداد للموافقة على هذه الاتفاقية بكاملها اذا كان ذلك عن أمر الله ووحي منه .

أما اذا كان الأمر ، لا يعدو ان يكون رأياً فيه مجال للأخذ والرد فإن لهما رأياً غير الرأي الذي رآه النبي (ص)

وهو أنهما يرفضان (بصراحة) إعطاء قبائل غَطَفان تمرة واحدة من ثمار المدينة على هذه الصورة .

فقد قال السعدان .. يا رسول الله .. أمراً تحبه فتصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ، فإن كان أمراً من السماء فامض له، وإن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوًى فسمع وطاعة ، وان كان إنما هو الرأي ، فما لهم عندنا إلاّ السيف .

فقال رسول الله (ص) .. لو أمرني الله ما شاورتكما ، والله ما أصنع ذلك إلاّ لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما .

والله لا نعطيهم إلا السيف

فقال له سعد بن معاذ (سيد الأوْس) .. وكان شاباً لم يكمل الأربعين من عمره : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم — يعني غطفان — على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة ، الا قِرًى (١١٠) أو بيعاً ، وإنْ كانوا ليأكلوا العِلْهِز (١١١) في الجاهلية من الجهد .

---

(١١٠) القرى — بكسر القاف وفتح الراء — الضيافة .

(١١١) العلهز — بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه — وبر يخلط بدماء الحلم — بفتح الحاء واللام — كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجدب .

ثم قال سعد بن معاذ – معترضاً على الاتفاقية الآنفة الذكر –.. أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه ، نُقْطِعُهم أموالنا ، ما لنا بهذا من حاجة،والله لا نعطيهم إلاّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم (١١٢) .

ولما رأى رسول الله (ص) معارضة سيدَي الأنصار لهذه الاتفاقية التي كُتِبت ولم يبق إلاّ التوقيع عليها وشهادة الشهود (١١٣) عدل النبي (ص) عن رأيه ومال الى رأي السعدين قائلاً لسعد بن معاذ الذي تولى المناقشة .. فأنت وذاك .

وهنا أخذ سيد الأوْس – سعد بن معاذ – الصحيفة التي قد تم فيها تسجيل اتفاقية الصلح ومزّقها،ثم وجّه حديثه الى سيدي غطفان عيينة بن حصن والحارث بن عوف قائلاً – وقد رفع صوته في تحدّ – ارجعا ليس بيننا وبينكم غير السيف ، فانصرفا الى مقر قيادتهما في قيادة الأحزاب .

---

(١١٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠٣ وما بعدها .

(١١٣) قال ابن اسحاق .. فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله (ص) – كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم – عن محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهري ، الى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، والى الحارث بن عوف بن ابي حارثة المري ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما – اي عرض عليهما – ثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عنه وعن اصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح الا المراوضة ، فلما اراد رسول الله (ص) ان يفعل بعث الى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه .. الى أن ذكر ابن اسحاق كيف ان السعدين لم يوافقا في النهاية على الاتفاقية المذكورة .

وهكذا ازداد البلاء على المسلمين ، فقد ضاعف رفض سادة الأنصار فكرة عقد الصلح المنفرد مع غَطَفان مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة .. ضاعف هذا الرفض من متاعب المسلمين العسكرية ، وبدَّد الأمل في تخفيف الضغط عليهم ، هذا التخفيف الذي كان هو المقصود بالدعوة الى مصالحة غَطَفان .

إلاَّ إن هذا الرفض من ناحية أخرى ، أثبت للقادة المسئولين في كلا الجانبين — الأحزاب والمسلمين — أن هناك داخل الجيش الاسلامي الصغير ، رجالاً يعدون بالآلاف ، لا تزيدهم المحن إلاَّ قوة ، ولا البلايا إلاَّ إيماناً وثباتاً وتمسكاً بنبيهم والتفافاً حوله .

فارتفعت (لهذا الموقف المتصلب) نسبة الروح المعنوية بين المؤمنين الصادقين ، وخرج قادة غطفان من معسكر الجيش الصغير ، وصور أولئك الأسود الضواري الذين جاءوا ليقولوا لقادة أقوى قوة ضاربة تبلغ نسبة رجالها الى رجالهم (أحد عشر لواحد) وقفوا ليقولوا لقادة هذه القوة (التي تكاد تغرقهم بكتائبها المائجة من كل مكان وقفوا ليقولوا لها (في تحدّ واستخفاف) .. والله لا نعطيكم تمرة واحدة من ثمار المدينة الا ضيافة ، فافعلوا ما يحلو لكم .

موقف رائع

نعم عاد قادة غطفان من معسكر المسلمين ، وقد أدركوا حقيقة كانوا يجهلونها كل الجهل ، وهي أن الذي يصنع

الانتصارات الحقيقية ويبعث الأمن والطمأنينة في النفوس - ساعة الرّوع - ليس كثرة الجيوش وقوتها ، وانما الذي يصنع كل ذلك هو قوة العقيدة وزَخَم الايمان بالله تعالى ، عاد قادة غطفان من معسكر الجيش الصغير وهذه الكلمات تدوّي في آذانهم دويّ الرعود :

« يا رسول الله ، قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون في أن يأكلوا منا تمرة الا قِرًى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه ، نُقْطِعُهم أموالنا ؟؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نُعْطِيهم إلاّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » .

كلمة قالها سعد بن معاذ - سيّد الأوْس - أمام قادة غطفان ، في ذلك الظرف الحرج الدقيق الذي بلغت فيه قلوب المسلمين الحناجر من شدّة الكَرْب و تلاحق المحن وتقاطر البلايا ،.. كلمة ما كان ليقولها (لولا الإيمان الصادق) أمام قادة تلك القوة الضاربة ، إلاّ الذي يملك قياد عشرين ألف مقاتل على اقل .

ولكن محور العجب (هنا) هو أن الذي قال هذه الكلمة التي تتفجر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأنَفَة والايمان والثقة المتناهية بالنفس ، ليس وراءه أكثر من ثمانمائة مقاتل تقابلها في الجانب المعادي الآخر أحد عشر ألف مقاتل

ومن ورائها احتياطي لا يقل عن ثلاثة آلاف مقاتل في خيبر والمدينة .

ولعل هذه الكلمة التي قالها سعد بن معاذ للرسول القائد صلوات الله وتسليمه عليه بحضور قادة غطفان ، كانت من أكبر الأسباب التي جعلت قادة هذه القبائل يعيدون النظر في مخطّطهم العدواني ، فيتقلّون بشأن المجازفة في مقاتلة المسلمين ، فمن الجدير بالذكر أنه (بعد عودة عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرّي من معسكر المسلمين وسماعهم الذي سمعوا من سعد بن معاذ) لم يكن لغطفان أيّ دور حربي ضد المسلمين ، حيث ظلّت قوات هذه القبائل مرابطة في معسكراتها حتى أذّن القائد العام أبو سفيان بالرحيل وفكّت الأحزاب الحصار عن المدينة .

توتر الحالة ومضاعفة التيقظ

ومما لا جدال فيه ان التوتر بعد نقض قريظة العهد ورفض الأنصار فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان – كما اقترح النبي (ص) – قد بلغ الذروة .

وحسباناً للطوارىء التي ينتظر المسلمون حدوثها نتيجة هذه التطورات الخطيرة ، ضاعف المسلمون من يقظتهم واستعدادهم ، وصاروا يُرهقون أنفسهم بالعمل المتواصل للدفاع عن كيانهم .

فقد وضعت قيادة المدينة المواقع الضيقة من الخندق، المحتمل اقتحامها من جهة خيل الأحزاب ـ تحت المراقبة الشديدة المتواصلة، خوفاً من أن تدفع نشوة الفرح بانضمام اليهود الى جانب الأحزاب، بعض شجعانهم الى اقتحام الخندق قفزاً بالخيل.

حتى ان الرسول القائد (ص) قد رابط بنفسه حول أخطر نقطة يتوقع المسلمون اقتحامها من قبل خيل الأحزاب. كما ضاعفت القيادة النبوية من نشاط دوريات الحراسة المتجولة على طول الخندق. كما كلفوا قوة أخرى من احتياطيهم بالمرابطة خلف خطوطهم الخلفية لمراقبة اليهود والصمود في وجههم إذا ما حاولوا الهجوم.

ولقد تضاعف الخوف واشتد الفزع وركضت القلوب بين الجنوب (رعباً وهلعاً) حتى بلغت الحناجر، وأخذ المنافقون ـ في تلك الليالي المخيفة التي تحالفت فيها (على المسلمين) البلايا وتقاطرت فيها ضدهم الخطوب والرزايا ـ أخذ هؤلاء المنافقون يتسللون (هرباً) من مواقعهم داخل صفوف الجيش الاسلامي، تاركين هذا الجيش الصغير لمصيره في مهب العاصفة التي تنوشه رياحها الهوج بعنف وقسوة تنخلع لها القلوب.

ثبات العصبة المؤمنة

وظلت الصفوة المختارة من صحابة محمد صلى الله عليه

وسلم الأبرار بجانب الرسول القائد العظيم ، صامدة ثابتة ، في تلك الليالي الحاسمات المثقلات بالمحن والكروب ، في انتظار ما ستتمخض عنه هذه الليالي من أحداث خطيرة مقلقة ، لا يعلم مداها إلاّ الله ، وخاصة ما يتوقعه المسلمون من هجوم تقوم به قريظة الغادرة على الجيش الاسلامي من الخلْف ، كما هي الخطة المتفق عليها بين اليهود والأحزاب.

نقطة التحول في المعركة عسكرياً

وبعد نقض قريظة العهد وانضمامها الى الأحزاب ، دخلت (فعلاً) الحرب في مراحل أكثر جدّية من ذي قبل . فقد كانت مفاجأة قيادة المدينة لقيادة الأحزاب بحفر الخندق (كخط أول للدفاع عن المدينة) صدمة عنيفة جعلت قادة الأحزاب يفقدون الأمل في سحق المسلمين عن طريق الالتحام بهم في معركة فاصلة كما هي الخطة المرسومة للمعركة والمتفق عليها من الأساس .

ولكن الأمل في سحق المسلمين عن طريق الالتحام بهم في معركة فاصلة أخذ يعود الى نفوس قادة الأحزاب ، بعد ان تبلّغوا من يهود بني قريظة (رسمياً) انحيازهم اليهم واستعدادهم لضرب المسلمين من الخلف .

فأخذوا لذلك يضاعفون من تحفزاتهم ومحاولاتهم لاقتحام الخندق وعبوره نحو المسلمين ، وضاعفوا من دورياتهم الاستفزازية على طول الخندق لارهاب المسلمين وتحطيم

معنوياتهم تمهيداً للحظة الحاسمة التي يشنّون فيها الهجوم العام المرتقب عليهم بالاشتراك مع يهود بني قريظة .

ولذلك فقد اتفق قادة قريش (أبو سفيان بن حرب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب الفهري وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي هبيرة ، ونوفل بن عبد الله) اتفقوا على ان يقودوا عملية مناوشة المسلمين وازعاجهم بأنفسهم .

فقد اتفق هؤلاء القادة على أن يكون لكل واحد منهم يوم ، يقود فيه عمليات الاستفزاز والمناوشة على طول مشارف الخندق ، فصار رجال كل قائد من هؤلاء القادة يقوم بهذه العمليات لمدة يوم وليلة دونما انقطاع (١١٤) .

إلاّ ان هذه المناوشات الجديدة المنظّمة ــ بسبب وجود الخندق ــ لم تتعد الجولان بالخيل والرمي بالنبل والقذف بالحجارة ، مما لم يكن له أيّ أثر حاسم يذكر في سير المعركة .

---

(١١٤) قال ابن سعد في طبقاته الكبرى .. وكان عباد بن بشر على حرس قبة رسول الله (ص) مع غيره من الانصار يحرسونه كل ليلة ، فكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو ابو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً ويغدو خالد بن الوليد يوماً ، ويغدو عمرو بن العاص يوماً ويغدو هبيرة بن أبي وهب يوماً ويغدو ضرار بن الخطاب الفهري يوماً ، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ويناوشون أصحاب رسول الله (ص) ويقدمون رماتهم فيرمون .

واللغز العسكري في سير عمليات الأحزاب الحربية هو أن أحداً من المؤرخين لم يذكر أنه قد كان لقبائل غَطَفان النجدية – التي يشكّل رجالها العمود الفقري لهذا الغزو – أي عمل حربي بارز ضد المسلمين في هذه الغزوة المقصود بها استئصال شأفة المسلمين وهدم الاسلام.

فقد كان من المفروض أن يشارك قادة غطفان قادة قريش في عمليات الاستفزاز والمناوشة التي قادها أولئك القادة القرشيون بأنفسهم ضد المسلمين على مشارف الخندق، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث طيلة أيام الحصار.

وهذا يعني بالتأكيد أن قبائل غطفان (طيلة أيام الحصار) لم تطلق سهماً واحداً ضد جيش المدينة ولم يقم احد من رجالها بأي عمل حربي ضد المسلمين، فكل الذين جاء ذكرهم في كتب التاريخ أنهم قاتلوا وقاموا بمختلف العمليات الحربية ضد المسلمين طيلة أيام حصار المدينة إنما هم من قريش فقط.

ترى، ما هو السبب في هذا وما سرّ هذا اللغز ؟.

قد نتمكن في تعليقنا على المعركة في آخر الكتاب من الوصول الى حل هذا اللغز العجيب.

نقل المعركة الى معسكر المسلمين

ظل الحال هكذا مدة من الزمن قصيرة – ترامٍ بالنبل وجولان بالخيل (للارهاب) من جانب قريش، ودوريات مستمرة منتظمة تتطوف بالخندق من الجانبين – حتّى تطور القتال (قليلاً) من جانب الأحزاب.

فقد قام فريق من فرسانهم الأشداء المغامرين باقتحام الخندق بخيلهم من ناحية ضيقة به، فنقلوا المعركة (جزئياً) الى معسكر المسلمين وراء الخندق.

فقد اقتحم عمرو بن عبد ودّ العامري وعكرمة بن أبي جهل المخزومي وضرار بن الخطاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ونوفل بن عبدالله.. اقتحم هؤلاء الفرسان (وكلهم من قريش) بخيلهم مضيقاً في الخندق، فسارع الى ملاقاتهم ذوو النجدة والبأس من المسلمين، فأخذوا عليهم (أولاً) الطريق الذي اجتازوه، فقطعوا عليهم خط الرجعة، حيث احتلوا فم المضيق الذي اقتحموه، ثم اشتبكوا معهم في معركة سريعة عنيفة حتّى أبادوا اكثرهم، وأجبروا الباقين على الفرار.

قال ابن اسحاق.. فأقام رسول الله (ص) والمسلمون، وعدوهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال إلاّ أن فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد ودّ، أخو عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان وضرار

بن الخطاب الشاعر ، وابن مرداس ، اخو بني محارب بن فهر ؛ تلبسوا للقتال ، حتّى مرّوا بمنازل بني كِنانة ، فقالوا تهيئوا يا بني كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان ، ثم اقبلوا تُعنِقُ بهم خيلهم حتّى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا .. والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السبخة ، بين الخندق وسِلع ، وخرج علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في نفر معه من المسلمين ، حتّى أخذوا عليهم الثغرة التي اقحموا منها خيلهم ؛ وأقبلت الفرسان تُعنِق نحوهم (أي تسرع) اه .

مصرع فارس قريش

وكان عمرو بن عبد وِدّ العامري (وهو كبش الكتيبة) قد حضر معركة بدر الكبرى وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جرح في المعركة ، فنذر أن لا يمس رأسه دهناً حتّى يقتل محمداً ، ولهذا كان أول الفرسان المقتحمين بخيلهم الخندق نحو المسلمين ، فالتقى به علي بن ابي طالب فبارزه حتّى قتله .

قال إبن اسحاق .. وكان عمرو بن عبد وِدّ العامري (وهو كبش الكتيبة) قد قاتل يوم بدر حتّى أثبتته الجراحة فلم يشهد أُحُداً (لأنه كان لا يزال جريحاً) فلما كان يوم الخندق خرج مُعلَماً ليُرَى مكانه ، فلما وقف هو وخيله قال .. من يبارز ، فبرز اليه علي بن ابي طالب اه .

ولما مشى عليّ الى عمرو ليبارزه قال له .. يا عمرو إنك كنت تقول لا يدعوني أحد الى واحدة من ثلاث إلا قبلتها ، قال له .. اجل .

فقال له .. إنّي أدعوك أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، وتُسْلِم لرب العالمين .

فقال عمرو .. يا ابن أخي أخّر عني هذه .

قال علي .. وأخرى ، ترجع الى بلادك ، فإن يك محمد رسول الله صادقاً كنت أسعد الناس به وإن يك كاذباً كان الذي تريد .

فقال عمرو .. هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً ، كيف وقد قدرت على استيفاء ما نذرت .

ثم قال عمرو .. فالثالثة ما هي ؟.

فقال علي .. البراز ..

فضحك فارس قريش عمرو — وكان فارساً مشهوراً معمّراً قد جاوز الثمانين — ثم قال لعلي .. إنّ هذه الخصلة ما كنت أظن أحداً من العرب يروّعني بها .

ثم قال لعلي .. لِمَ يا ابن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

فقال عليّ كرّم الله وجهه .. ولكني والله أحب أن أقتلك . فغضب عند ذلك عمرو غضباً شديداً .

ولما كان عمرو فارساً وعلي راجلاً ، اقتحم عمرو عن

فرسه ، فعقره وضرب وجهه (١١٥) ثم أقبل على عليّ فتنازلا بالسيف حتّى قتله وأراح المسلمين من شره .

وقد جُرح علي بن أبي طالب جرحاً بسيطاً في رأسه أثناء المبارزة (١١٦)

قال الحافظ البيهقي في دلائل النبوة .. إن عمْراً لما التقى بعلي قال له .. من أنت ؟.

قال له .. أنا علي .

قال .. إبن عبد مناف ؟

فقال علي .. أنا علي بن أبي طالب .

فقال عمرو .. يا ابن أخي .. مِنْ أعمامك من هو أسنّ منك ، فاني أكره أن أهريق دمك .

فقال له علي .. ولكني والله لا أكره ان أهريق دمك .

فغضب عند ذلك عمرو ، فنزل وسلّ سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل نحو علي مغضباً واستقبله عليّ بدرقته فضربه عمرو في درقته فقدّها وأثبت السيف فيها وأصاب رأسه

---

(١١٥) وهذا من تقاليد العرب المرعية – حتّى في الجاهلية – وهو انه – وقت المبارزة – ولكي يتّم التكافؤ لا بد من ان ينزل الفارس من على فرسه ليبارز خصمه راجلا مثله .

(١١٦) سيرة ابن هشام ص ٢٢٤ وما بعدها .. والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٦ وما بعدها .. والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠٤ وما بعدها .

فشجّه ، وضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط وثار العجاج ، وسمع رسول الله (ص) التكبير ، فعرف الناس أن علياً قد قتل عمراً .

انهزام الفرسان الفدائيين

وبعد ان تم القضاء على فارس قريش قائد رعيل (١١٧) الفدائيين من فرسانهم (عمرو بن عبد ودّ) فرّ باقي أفراد الرعيل القرشي وخرجت بهم خيلهم مسرعة تسابق الريح منهزمة نحو المضيق الذي اقتحموه من الخندق .

فطاردهم بعض فرسان المسلمين ، ولحق الزبير بن العوّام بنوفل بن عبدالله فضربه بالسيف حتّى شقه نصفين ، ووصلت الضربة الى كاهل الفرس .

فقيل للزبير .. يا أبا عبدالله ما رأينا مثل سيفك ، فقال .. والله ما هو السيف ، ولكنه الساعد ، كما ان الزبير أيضاً طارد فارساً آخر من رعيل الفدائيين القرشيين – وهو هبيرة ابن ابي وهب – فضرب ثغر فرسه فقطعه ولكنه تمكن من الفـــرار .

وقد حاول فارسان فدائيان من فرسان قريش الفدائيين الانتقام لقائدهم – عمرو بن عبد ود – ، وهما ضرار بن الخطاب

---

(١١٧) الفصيل يطلق على مجموعـــة من المشاة (٣٠ – ٤٠) ، ويطلق على مثلها من الفرسان : رعيل .

محمود شيت خطاب

وهبيرة بن ابي وهب ، حاول هذا الفارسان الفتك بعليّ بن ابي طالب ، ولكنه صمد لهما وقاتلهما حتّى هزمهما .

وهكذا انتهت المعركة الجانبية – التي نقلها الفدائيون القرشيون الى حيث يرابط المسلمون وراء الخندق – انتهت هذه المعركة الجانبية بالقضاء على كل أفراد رعيل الفرسان الفدائيين ، ما عدا ثلاثة منهم تمكنوا من الفرار ، إذ اقتحموا الخندق بأفراسهم ، وهم ضرار بن الخطاب الفهري (١١٨) وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ، وعكرمة بن ابي جهل المخزومي ، الذي ألقى برمحه عندما فرّ من المعركة .

أما المسلمون فلم يُصَب أحد منهم أثناء هذه المعركة الجانبية اللهم إلاّ جرح بسيط أصاب علي بن أبي طالب

---

(١١٨) هو ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري القرشي ، من فرسان قريش المعدودين ، وكان من أشعرهم وكان محارباً شهيراً ، ومن اشد المحاربين على المسلمين ، كان ابوه رئيس بني فهر ، ولم يكن في قريش أشعر منه ، وكان يقول في الجاهلية ، زوجت عشرة من اصحاب محمد بالحور العين ، يعني بذلك قتلهم ، أسلم ضرار في الفتح ، وهو الذي قال للخليفة ابي بكر .. نحن خير لقريش منكم أدخلناهم الجنة (يعني الذين استشهدوا على أيديهم) ، وأدخلتموهم النار (يعني الذين قتلهم المسلمون على الشرك) ، واختلف الاوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم أحد ، فمر بهم ضرار هذا فقالوا هذا شهدها وهو عالم بها ، فبعثوا اليه فتى منهم فسأله عن ذلك ، فقال .. لا أدري ما أوسكم من خزرجكم ، ولكن زوجت يوم أحد منكم أحد عشر رجلا من الحور العين ، يعني انه قتل يوم أحد هذا العدد وحده ، حضر ضرار بن الخطاب الفهري معركة اليمامة وقتل فيها شهيداً . انظر تفاصيل حياة ضرار في كتاب : قادة فتح الشام ومصر .

في رأسه ، وذلك عند مبارزته لعمرو بن عبد وِدّ العامري كما تقدم .

قريش تطلب جثة فارسها

وبعد انتهاء المعركة الجانبية بعث قادة قريش الى النبي (ص) يعرضون عليه عشرة آلاف ثمناً لجثة فارسهم (عمرو بن عبد ود) ، فأبى النبي (ص) أن يأخذ الثمن ، وقال .. هو لكم لا نأكل ثمن الموتى .

وفي رواية الإمام أحمد (كما في البداية والنهاية) قال النبي (ص) .. إدفعوا اليهم جيفته فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية ، فلم يقبل منهم شيئاً اهـ .. وقد حملت قريش جثة فارسها الى معسكرها .

وبهذا فشل رعيل الفدائيين من فرسان مكة في مهمته وعاد يجرّ أذيال الخيبة والهزيمة بعد أن قتل المسلمون أكثر أفراد هذا الرعيل .

ويظهر أن قيادة الأحزاب قرّرت القيام بهذه المغامرة لاختيار مدى قوة المسلمين الحربية ، ومعرفة ما إذا كان الحصار الخانق قد أثـر على معنوياتهم ام لا ؟.

رد فعل الهزيمة في نفوس الأحزاب

وكانت تهدف قريش – على ما يظهر – من وراء قيام فرسانها بهذه المغامرة ، مواصلة القيام بمثل هذه الحركات

الخاطفة ــ إذا ما نجحت التجربة التي قام بها الفرسان عبر الخنــدق ــ لأنّ قادة الأحزاب أدركوا أنّه مع وجود الخندق حاجزاً بينهم وبين عدوّهم ، يستحيل عليهم القيام بأيّ هجوم شامل على مواقع المسلمين وراءَ الخندق ، وخاصة من ناحية المشاة الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في جيوش الأحزاب .. ولهذا قرّر قادة الأحزاب الإعتماد على سلاح الفرسان ليكون هو السلاح الرئيسي في المعركة التي كانوا ينوون نقلها الى معسكر المسلمين ذاته ، لا سيما وأنهم على موعد مع يهود بني قريظة ليضرب هؤلاء اليهود المسلمين من الخلف ساعة الصفر .

ولكن فشل رعيل الفرسان هذا في المغامرة التي قام بها رجاله والتي انتهت بالقضاء على أكثرهم وفرار الباقين منهم أكّدت لقادة الأحزاب أن كل هذه الزلازل والمحن والبلايا التي أحاطت بالمسلمين (على قلّتهم وكثرة عدوّهم) لم يكن له أيّ تأثير على قوّتهم المعنوية وأنّ ذلك كله لم يزدهم إلاّ ثباتاً وضراوة وإيماناً وتلهفاً للاستشهاد في سبيل الله .

توقف قريش عن مغامرات القفز بالخيل

ولهذا كفّت قيادة الاحزاب عن مغامراتها الحربية ، فتوقفت عمليات قفز الفرسان الأشداء بخيلهم عبر الخندق ، فلم يستطع فرسان الأحزاب القيام بأية مغامرة من هذا النوع ــ بعد تلك المغامرة الفاشلة التي قتل فيها المسلمون فارس

قريش عمرو بن عبد ود – حتى انسحاب الاحزاب نهائياً .

ولكن الاحزاب ، إذا كانوا قد أوقفوا عمليات المغامرة عن طريق قفز الخيل عبر الخندق ، فانهم من ناحية أخرى قد شددوا الحصار على المسلمين وضاعفوا من عمليات الضغط عليهم ، فكأنّهم أرادوا الاعتماد على حرب الأعصاب المرهقة عن طريق إرهاب المسلمين وإزعاجهم والجلْب عليهم بالخيل والرجل وكل وسائل الإعنات والتخويف لعل ذلك يُوهِنُ من قوة المسلمين المعنوية التي هي السلاح الوحيد الرئيسي الذي بقي في أيديهم أمام هذه الجيوش الهائلة الجبارة التي تُطْبِق عليهم من كل مكان .

(وفعلاً) لقد تقاطرت البلايا (من جديد) وتضخمت متاعب الجيش الصغير القابع وراء خطوطه خلف الخندق وكأنه نقطة يابسة بيضاء وسط بحر محيط هائج أسود ، وبلغ الكرب والضيق والشدة (من جديد) بمحمد وصفوة أصحابه الأوفياء مبلغاً عظيماً لم يكن ليصمد معه ويثبت إلاّ من كان على مستوى محمد (ص) وصحبه الأبرار (رضي الله عنهم) ، إيماناً وعزيمة وثقة بالله واطمئناناً بوعده .

الفقر والجوع في الجيش الإسلامي

ولقد كان المسلمون – بالاضافة الى المتاعب والمحن والكروب التي سببها لهم هذا الحصار الخانق الرهيب – يعانون متاعب

كبيرة أخرى ، مصدرها حالة الفقر والعوز التي كانوا عليها في ذلك الظرف مع عوامل الطبيعة القاسية من برد قارص يلسع أجسادهم شبه العارية ، وهم مرابطون أو يقومون بأعمال الدورية الدائمة على طول الخندق ليلاً ونهاراً . فقد كانت تلك السنة سنة جدب وقحط بالنسبة للمسلمين ، كما ان الفصل كان فصل شتاء قارص تتخلّله الرياح الهوجاء .

روى البخاري عن أنس (رض) قال : خرج رسول الله (ص) إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى النبي (ص) ما بهم من النصب والجوع قال :
« اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة » .

كما جاء في البداية والنهاية ـ نقلاً عن صحيح البخاري ـ أن المجاعة كانت منتشرة بين المسلمين أيام الأحزاب ، وأن النبي (ص) كان من شدة الجوع ـ وقت حفر الخندق ـ يربط الحجر على بطنه الكريم .

وجاء في السيرة الحلبية ج ٢ ص ٩٨ .. وحصل للصحابة رضي الله عنه تعب وجوع ، لأنه كان في زمن عسرة وعام مجاعة ، ولما رأى رسول الله (ص) ما بأصحابه من النّصَب والجوع قال متمثلاً بقول عبدالله بن رواحة :

اللهم لا خير إلاّ خير الآخرة فبارك الأنصار والمهاجرة

ومع هذه المحن والبلايا التي غرق فيها المسلمون جاءت

قريظة الغادرة لتنقض العهد الذي بينها وبين المسلمين وتتواطأ مع الأحزاب على ضربهم .

فازدادت حلقات المحنة استحكاماً ، وتحالفت عوامل الكرب والبلاء على المسلمين ، ولكنهم – رغم كل هذا – ظلّوا صامدين في انتظار الفرج من عند الله الذي كانوا على ثقة تامة من نصره لهم .

مصادرة قافلة للعدو

وقد استولى جيش المدينة على عشرين بعيراً كانت محملة تمراً وشعيراً و تبناً ، أرسلها اليهود لقريش مدداً وتقوية ، فصادرها المسلمون وأتوا بها الى الرسول القائد (ص) فخفّف الله بها من ضائقة المجاعة التي كان المسلمون فيها .

وكان الذي استولى على هذه القافلة دورية مسلحة من الأنصار كان قد خرج رجالها ليدفنوا ميتاً منهم في المدينة فصادفوا هذه القافلة ، ولما بلغ أبا سفيان خبر استيلاء جيش المدينة على قافلة التموين هذه قال .. إن حُيَيّ بن أخطب لمشؤوم قطع بنا ، ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا (١١٩) .

نشاط خيل المشركين

ولقد تزايد نشاط خيل المشركين ، فكانت هذه الخيل تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح ،

---

(١١٩) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠٧ .

فتخلفها أعداد أخرى طول النهار حتّى الليل ، وأصحابها يطمعون في أن يأخذوا المسلمين على حين غرة ، مما جعل البلاء يشتد والجهد ينال منهم الى قرب درجة الإعياء .

فقد أجبرهم (في ليالي الخندق الأخيرة) نشاط خيل المشركين المتزايد حول الخندق على السهر (طول الليل) حتّى الصباح ، وذلك للقيام بأعمال الدورية لحراسة مشارف الخندق خوفاً من أن تأخذهم خيل العدو على حين غرّة ...

وقد كان الرسول القائد صلوات الله وتسليمه عليه عندما اشتد ضغط خيل الأحزاب - يقوم بنفسه (ليلاً) لحراسة أخطر نقطة في الخندق يخشى المسلمون أن يأتيهم المشركون عن طريقها .

فقد رُويَ عن عائشة (رض) أن رسول الله (ص) كان يرابط (ليلاً) على ثُلمة في الخندق لمنع العدوّ من اقتحامها وكان يقول (ص) .. ما أخشى أن يؤتى المسلمون إلاّ منها اهـ .

فاذا أخذته شدة البرد جاء الى خيمته ليدفأ فيها بعض الوقت ، فاذا دفيء عاد ليرابط على تلك الثُلْمة الخطيرة ويحرسها بنفسه .

وفي ليلة من تلك الليالي الباردة ، وبينما هو في خيمته القريبة من الثُلْمة (يستدفيء) وباله على تلك الثلمة ، قال (كما روت عائشة) .. ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه

الثلمة الليلة .

فسمع (ص) في غلس الظلام ، صوت السلاح حول خيمته فقال .. من هذا ؟.

فقال سعد بن أبي وقاص .. سعد يا رسول الله ، أتيتك أحرسك ، فطلب منه أن يتولىّ تلك الليلة (بدلاً منه) المرابطة على تلك الثُلْمة المهمة ، قائلاً .. عليك هذه الثّلْمة فاحرسها .

فأطاع سعد أمر نبيه وسارع بمن معه من الجند ورابطوا عندها لحراستها .

وبعد أن اطمأن الرسول (ص) الى أن تلك النقطة الخطيرة الحساسة قد أصبحت تحت حراسة فارس يثق به ، نام (وكان متعباً من شدة السهر) نوماً هادئاً فترة من الليل حتّى غط في نومه (كما قالت عائشة) .

النبي يقوم بأعمال الدورية

وبعد أن أخذ النبي (ص) قسطاً من النوم قام – قبل انقضاء الليل – وصلىّ ركعتين ثم خرج من خيمته ، واتجه نحو مشارف الخندق ليشارك في القيام بأعمال الدورية ، وترصّدِ العدوّ الذي كان لا يُكفّ عن الطواف بخيله حول الخندق طول الليل .

وأثناء قيامه (ص) بأعمال الدورية (وكان ذلك في

الثلث الأخير من الليل) شعر بحركة خيل المشركين وهي تتحفز حول مشارف الخندق فنبّه أصحابه إلى مكانها قائلاً .. هذه خيل المشركين .

ثم نادى رئيس حرسه الخاص ، وأمره بأن يراقب ورجاله خيل العدوّ قائلاً .. يا عبّاد بن بشر ، قال : لبيك (يا رسول الله) قال .. هل معك أحد ، قال : نعم أنا في نفر حول قبتك يا رسول الله .

فأمره بأن يطيف بالخندق ، وأخبره أن خيل المشركين تطيف به ، فنفّذ عباد أمر قائده الأعلى وصار يطيف برجاله إزاء خيل الأحزاب أينما طافت .

خالد بن الوليد واقتحام الخندق (١٢٠)

وفي ليلة من ليالي الأحزاب العصيبة حاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحية ضيّقة منه ويأخذهم على حين غِرّة .

ولكن دوريات المسلمين حالت بينه وبين ما يهدف إليه ، فقد كان المسلمون أعرف من المشركين بالمناطق الضيقة من الخندق ، والتي يتوقعون أن تقتحمها خيل الأحزاب في غلس الظلام .

ولهذا كانت هذه المناطق تحت حراسة دوريات المسلمين

(١٢٠) أنظر التفاصيل في : قادة فتح العراق والجزيرة ص (٥٨-٥٩).

المستمرة اليقظة ، فعندما حاول خالد بن الوليد اقتحام ذلك المضيق من الخندق بخيله وجد نفسه أمام دورية مسلحة كبيرة من المسلمين بقيادة أسيد بن حضير الأنصاري الذي كان في مائتين من أصحابه ، فتراجع خالد بن الوليد عن اقتحام المضيق .

إلاّ إن خيل خالد ناوشت المسلمين تلك الليلة ، وكانت المناوشة (طبعاً) عبْر الخندق بالنبال والحراب ، وقد استشهد في تلك المناوشة الليلية ، الطفيل بن النعمان ، قتله وحشيّ الحبشي (قاتل حمزة يوم أُحُد) زرق الطفيل بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلا .

أبو سفيان يقود الخيل بنفسه

وقد بلغ نشاط خيل المشركين في الليالي الأخيرة من الخندق حدّاً خطيراً ، أرهق المسلمين وأجهدهم ، فقد تولى القائد العام لجيوش الأحزاب ، أبو سفيان بنفسه ، القيام بعمليات التطواف بالخيل حول الخندق — اذ قاد الفرسان بنفسه — وصار بالاشتراك مع خيل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص يتجول بخيل الأحزاب (في أعداد كبيرة وفي استفزازٍ وعنادٍ وإصرار) حول مضايق الخندق .

ويظهر أن قيادة الأحزاب انتابها السأم والملل بعد أن ظلت جيوشها اكثر من عشرين يوماً حائرة لا تدري

ماذا تصنع حيال هذه المكيدة الحربية العظيمة (الخندق) الذي يسّر للمسلمين مهمة الدفاع عن مدينتهم الى أبعد الحدود ، فقد بقيت (طيلة هذه المدة) عشرة آلاف مقاتل من جيوش الأحزاب معطلة الحركة غير قادرة على القيـــام بأي عمل عسكري يذكر ضد المسلمين .

وليس أبعث على التذمر بين الجنود (وخاصة في ذلك العصر) من تجميدهم في معسكراتهم سيما إذا كانوا بعيدين عن أهاليهم وأوطانهم .

المحاولة الأخيرة لاحتلال المدينة

ويظهر أن قيادة الاحزاب لهذا كله قد قرّرت (بالرغم من فشل كل المحاولات التي قامت بها للعبور ناحية المسلمين) أن تقوم بمحاولة أخيرة لإجبار المسلمين على خوض معركة فاصلة ، وكانت المحاولة هذه المرة أكبر من كل المحاولات التي سبقتها ، وكانت مسبوقة بتخطيط ودراسة اشترك فيها كبار قادة الأحزاب الذين كانوا (كقادة جيوش مسئولين) يقدّرون خطورة بقاء جيوشهم الجرّارة تلك معطلة الحركة في معسكراتها بعيدة عن أوطانها وأهاليها ، لا سيما وأن المحارب البدوي الذي هو عماد جيوش الأحزاب لم يتعوّد إلاّ على الحرب السريعة الخاطفة التي لا تزيد (في أطول أوقاتها) على يوم واحد .

فقد جاء كل قادة الفرق من قريش بكل ما تحت يدهم

من سلاح الفرسان الى مشارف الخندق ، ومن ورائهم كثير من المشاة وقفوا خلفهم كاحتياطي لدعوته عند اللزوم .

تفاصيل الخطة الجديدة

وصار قادة هذه الفرق من الفرسان يجولون بخيلهم بانتظام وحسب تكتيك معين وفق خطة مرسومة ، وكانوا يديمون الجولان والتحفز حول المضايق من الخندق ، التي يتصورون أنه بإمكانهم السيطرة عليها من الجانبين عن طريق قفز الخندق بأعداد كبيرة من فرسانهم ، في أماكن متقاربة ، بحيث يمكنهم (اذا ما نجحوا في القفز بأعداد كبيرة من الخيل) أن يقيموا لجيش من فرسانهم نقطة ارتكاز قوية على مشارف الخندق في مناطق معينة من ناحية المدينة .

وبهذا يسيطر سلاح فرسانهم على مناطق استراتيجية من الخندق تكون تحت حراستهم من الجانبين ، ويقوم سلاح الفرسان الذي يتمكن من احتلال مناطق معينة ناحية المسلمين بالصمود في وجه المسلمين إذا ما ارادوا إجلاءهم عن هذه المناطق .

وبتنفيذ هذه الخطة يتمكن رجال الأحزاب ـ تحت حراسة سلاح الفرسان المتمركزين على مشارف الخندق من ناحية المدينة — من ردم مناطق ضيقة من الخندق قد حددت ، وبردم هذه المناطق يتمكن مشاة الأحزاب (الذين يشكّلون أكثرية جيوشهم) من عبور الخندق بسهولة الى حيث يعسكر

المسلمون .

وبهذا يتمكن قادة الأحزاب من التعجيل بالمعركة الفاصلة كما يريدون .

فقد كان لدى قادة الأحزاب ما يشبه اليقين بأن الغلبة ستكون لهم على المسلمين (وخاصة بعد انضمام يهود بني قريظة اليهم وتهديدها للمسلمين من الخلف) إذا ما التحمت جيوشهم الضخمة الهائلة مع جيش المدينة الصغير في معركة فاصلة شاملة . الأمر الذي كانت تتحاشاه قيادة المدينة وتعمل على تجنبه بكل معاني الكلمة ، والذي (لكي لا يحدث) قامت قيادة المدينة الحازمة الواعية بحفر الخندق ليكون عازلاً طبيعياً منيعاً يفصل بينهم وبين جيوش الأحزاب .

ومن أجل تنفيذ هذا المخطط الجديد ، تضاعف ضغط المشركين على مواقع الجيش الاسلامي وراء الخندق بصفة عامة ، وصار ابو سفيان — القائد العام لجيوش الأحزاب الذي كان يكتفي بارسال فصائل من سلاح الفرسان لمناوشة المسلمين — يشرف بنفسه على عمليات هذا الضغط ، ويقود بنفسه سلاح الفرسان الذي هو السلاح الرئيسي في عملية الضغط والارهاق هذه .

وهكذا — وبعد فترة من الجمود استمرت عدة ايام جنّد الأحزاب إمكانياتهم (كمحاولة أخيرة) لاجبار المسلمين على الاشتباك معهم في معركة فاصلة يستأصلون

فيها شأفة المسلمين .

ونتيجة لهذه المحاولة الجبارة الأخيرة من قبل الأحزاب ، بلغ الضغط على المسلمين الذروة ، فاشتد البلاء عليهم أكثر من أيّ وقت مضى ، وأخذ الضيق والكرب والخوف منهم كل مأخذ .

فقد أجهدتهم تنظيمات الحصار الجديدة إجهاداً شديداً مع ما يعانون من شدة الجوع وقسوة البرد القارص والتخوف من أن يهجم عليهم اليهود من الخلف وهم بين براثن هذه المحنة الشديدة .

أشد ليالي الخندق

ونتيجة لتلاحق عوامل البلاء ضد المسلمين انسحبت فئات أخرى من ضعاف الايمان من صفوف الجيش الاسلامي ، ولم يبق مع محمد في ليالي المصير الحالكة تلك – صامداً في وجه العاصفة – سوى قلة قليلة من صفوة أصحابه الذين قد ربطوا مصيرهم بمصيره ، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن معاذ وطلحة بن عبيدالله ، ومن على مستوى هؤلاء شجاعة ويقيناً وإيماناً .

ولقد بلغ الضيق والجهد والكرب والخوف – حتى من هذه الصفوة لشدة ما حاق بهم – شأواً بعيداً الى درجة أنهم في تلك اللحظات الأخيرة من محنة الغزو المرعب ، جاءوا

الى النبي القائد (ص) وأفصحوا له (بصراحة) عما يعانونه من شدة الخوف والضيق والكرب.

فقد قالوا له .. يا رسول الله لقد بلغت القلوب الحناجر فهل من شيء نقوله؟ قال نعم، قولوا:

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا (١٢١).

وفي تلك اللحظات التي تعاظم فيها البلاء على المسلمين جاء جبريل إلى النبي (ص) فبشّره بقرب انهزام الأحزاب، وأن الله سيرسل عليهم ريحاً وجنوداً من عنده.

وقد ذهب الرسول (ص) ليطمأنهم وأخبرهم بما أخبره به جبريل من قرب نهاية الأحزاب، وصار (ص) يرفع يديه نحو السماء قائلاً .. شكراً شكراً.

دعاء الرسول وقت الشدة

وفي صحيح البخاري أن النبي (ص) عندما تضافرت المحن وتحالفت البلايا عليه وعلى أصحابه وعندما تطورت عمليات الحصار واشتد ضغطها في الليالي الأخيرة من الخندق، ورأى شدة الخوف الذي عليه أصحابه دعا ربه قائلاً: اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب .. اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزلهم .. ثم قام في الناس خطيباً، فقال «ايها الناس لا تمنّوا لقاء العدوّ، واسألوا الله العافية، فان

---

(١٢١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١١١.

لقيتم العدوّ فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » .

وكان من دعائه يوم الخندق .. « يا صريخ المكروبين ، يا مجيب المضطرّين أكشف همي وغمي وكربي فانك ترى ما نزل بي وبأصحابي » .

وهذا يدل على أن حالة المسلمين بلغت من التحرج ــ أمام محاولات الأحزاب الأخيرة المنظّمة ــ أقصى الدرجات وأنهم صاروا في خوف شديد وكرب عظيم لا مثيل له أبداً .

قريظة تتحرش بالمسلمين

ولقد أدركت قيادة الأحزاب ما يعانيه المسلمون من شدة وضيق وكرب وخوف ، نتيجة تنظيمات الحصار الجديدة ، فشددوا من ضغطهم وضاعفوا من نشاطهم ، وأعطوا الاشارة ليهود بني قريظة بأن يبدأوا التحرش بالمسلمين من الخلف ، فيشغلوهم ويقلقوهم بالاغارة على الحصون التي قد جمعت القيادة الاسلامية فيها النساء والذراري عند إخلاء المدينة ، وأن يكونوا على أتم الاستعداد ليقوموا (ساعة الصفر) بالهجوم العام على مواقع المسلمين وراء الخندق .

وقد نفذ اليهود ما طلب الأحزاب منهم ، فصاروا يقلقون المسلمين ويشوشون عليهم (مع ما هم فيه من كرب وبلاء) بالاغارة على الحصون والآطام التي وضع المسلمون فيها نساءهم وأطفالهم .

ولا شيء أقلق لبال الانسان من علمه بأن زوجته وأبنائه وبناته في خطر، ومهددون بأن يسبيهم العدوّ، ويأخذهم أسرى.

وهذا هو الذي قصد اليه العدوّ عندما أوحى الى يهود بني قريظة بالهجوم على الحصون والآطام التي يتحصن فيها نساء المسلمين وأطفالهم، ولقد قام اليهود (فعلاً) بالاغارة على هذه الحصون والآطام.

هجوم اليهود على النساء

فقد قام اليهود (في تلك الساعات الرهيبة من ليالي الأحزاب) بعدة محاولات للهجوم على تلك الحصون التي يعتصم بها النساء والاطفال،.

ولما كانت الحصون (إيّاها) ليست بعيدة عن مواقع الجيش الاسلامي وراء الخندق، فان المسلمين لم يتركوا حرساً دائمياً خاصاً يحرس هذه الحصون، لأن دوريات المسلمين تطوف باستمرار داخل المدينة (وخاصة في الليل).

ولكن القيادة أوصت النساء أن يحركن السيوف في رأس الحصن اذا ما تعرضن لخطر الهجوم من قبل العدوّ، كإشارة لطلب النجدة، ليسارع المسلمون الى نجدتّهن.

فقد روى الطبراني عن رافع بن خديج قال: لم يكن حصن أحصَنَ من حصن بني حارثة، فجعل النبي (ص) النساء والذراري والصبيان فيه، وقال: إن لم يكن أحد

فألمِعنَ بالسيف .

فجاءهن رجل (من بني قريظة) من بني ثعلبة بن سعد يقال له نجدان ، أحد بني جحاش على فرس ، حتى كان في أصل الحصن ، ثم جعل يقول للنساء : انزلن اليّ خير لكنّ ، فحركن السيف فأبصره أصحاب رسول الله (ص) فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بني حارثة يقال له : ظفر بن رافع ، فقال : يا نجدان ابرز ، فبرز اليه ، فحمل عليه فقتله وأخذ رأسه فذهب به الى النبي (ص) .

محاولة اليهود الهجوم على نساء النبي

ولم يكتف اليهود بمحاولة الهجوم على نساء الصحابة في الحصون ومحاولة سبيهن ، بل حاولوا الهجوم على نساء النبي القائد (ص) وعلى من معهن من النساء في حصن آخر ، بغية ازعاج المسلمين واقلاقهم والتشويش عليهم ، وهم يواجهون قوات الأحزاب الرئيسية على مشارف الخندق . فقد روى البزار باسناده عن الزبير بن العوام أن رسول الله (ص) لما خرج للخندق جعل نساءه وعمته صفية في أطم (حصن) يقال له (فارع) وجعل معهم حسّان بن ثابت . وروى ابن اسحاق كذلك ، عن عبّاد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه قال : كانت صفية بنت عبدالمطلب في فارع ، حصن حسان بن ثابت ، وكان حسّان بن ثابت مع النساء والصبيان ، قالت صفية : فمر بنا رجل من يهود

فجعل يطيف بالحصن. وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول الله (ص)، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله (ص) والمسلمون في نحور عدوّهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إنْ أتانا آت، قالت: فقلت: يا حسان، إنّ هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، واني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ ورائنا من يهود، وقد شُغِلَ عنا رسول الله (ص) وأصحابه، فانزل اليه فاقتله، قال: يغفر الله لك يا ابنة عبدالمطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا!

قالت صفية: فلما قال لي ذلك، ولم أر عنده شيئاً، احتجزت (أي شددت وسطي) ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود حتى قتلته، قالت: فلما فرغت منه، رجعت الى الحصن، فقلت: يا حسان انزل اليه فاسلبه، فانه لم يمنعني من سلبه إلاّ أنه رجل، قال: ما لي بسلبه من حاجة يا ابنة عبدالمطلب!

وفي رواية البزار التي اوردها صاحب (وفاء الوفاء) ج ١ ص ٣٠٢ أن هذا اليهودي تسوّر الحصن حتى أشرف على نساء رسول الله (ص)، وأن صفية بعد أن قتلته، قطعت رأسه وألقت به على اليهود الذين كانوا حول الحصن، فراعهم ذلك فانسحبوا مذعورين، وهم يظنون أن هناك

حرساً من الجيش الاسلامي يحمون النساء ، فقد قال هؤلاء اليهود بعضهم لبعض (وهم يهربون) : قد علمنا أن لم يك (أي النبي) يترك أهله خلوفاً ليس معهم أحد ، ثم تفرقوا .

وهكذا أقلق اليهود المسلمين (بتحرشهم بالنساء والذراري) وزادوا من متاعبهم وضاعفوا من بلائهم ، ولا شيء (كما قلنا) أشغل لبالِ الانسان من أن تتعرض زوجته وأبناؤه وبناته لخطر السبي والأسر .

ولهذا اضطر المسلمون الى أن يضاعفوا من قوات الحراسة لحماية نسائهم وأطفالهم من اليهود مما أنقص عدد قواتهم الرئيسية المرابطة على مشارف الخندق لمواجهة الاحزاب .

وشعر المشركون بالنقص الملموس في قوات المسلمين المواجهة لهم على الخندق ، فاغتنموا الفرصة ، فأطبقوا عليهم من كل ناحية وأشغلوهم الى درجة الارهاق والاعياء ، والى درجة انهم لم يتركوا لهم فرصة يستريحون فيها أو حتى يؤدّون فيها فريضة الصلاة ، إذ أجبروهم على المرابطة (ليلاً ونهاراً) على مشارف الخندق في حالة تعبئة لا يفارقهم السلاح .

فصار فرسان الأحزاب يطوفون (في استفزاز متزايد مرعدين ومبرقين) حول الخندق ويتجمعون بأعداد كبيرة حول المضائق طيلة ساعات الليل والنهار وبصورة مزعجة

مخيفة لم يسبق لها مثيل مما أجبر المسلمين على البقاء في أسلحتهم مرابطين بصفة دائمة ليلاً ونهاراً على مشارف الخندق وخاصة النقط التي هي مظنة لأن يقتحمها سلاح فرسان الأحزاب. وضاعف المسلمون من نشاط دورياتهم التي اضناها (لقلة رجالها) الطواف المتواصل حول الخندق بصفة متعبة للغاية.

شدة الحصار تمنع المسلمين من الصلاة

وقد بلغت عملية الحراسة المتواصلة المضنية المرهقة التي يقوم بها النبي وصفوة أصحابه القلائل في تلك الليالي الأخيرة المخيفة المرعبة، بلغت بهم من الجهد والإضناء والإشغال الى درجة أن النبي (ص) وبعضاً من أصحابه (الذين كانوا يتولون مراقبة وتحركات العدو وحراسة النقاط الاستراتيجية من الخندق) لم يتمكنوا من أداء صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء في أوقاتها.

ولقد صوّر المقريزي في كتابه (إمتاع الأسماع) حالة الكرب المتزايد والشدة المتناهية التي كان عليها المسلمون في تلك الليالي الرهيبة الحاسمة فقال:

«وافى المشركون سحراً، وعبأ رسول الله (ص) أصحابه فقاتلوا يومهم الى هويّ من الليل، وما يقدر رسول الله (ص) ولا احد من المسلمين أن يزولوا من موضعهم، وما قدر رسول الله (ص) على صلاة ظهر ولا عصر ولا مغرب ولا عشاء، فجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله

ما صلينا ؟ فيقول : ولا أنا والله ما صليت ! حتّى كشف الله المشركين ، ورجع كل من الفريقين الى منزله .

وقام أسيد بن حضير (١٢٢) في مئتين على شفير الخندق فكرّت خيل المشركين يطلبون غرّة (وعليها خالد بن الوليد) (١٢٣) فناوشهم ساعة ، فزرق وحشي (قاتل حمزة بن عبد المطلب الطفيل بن النعمان بن خنساء الأنصاري بمزراق ، فقتله – كما قتل حمزة (رض) بأحُد – .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية – عن موسى بن عقبة – « وأحاط المشركون بالمسلمين حتّى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم ، فحاصروهم قريباً من عشرين ليلة وأخذوا بكل ناحية » .

الهجوم على مقر قيادة الرسول

ثم قال ابن كثير – يصف محاولة خيل المشركين على مقر القائد الأعلى (ص) – : « ووجهوا نحو منزل رسول الله (ص) كتيبة غليظة فقاتلوهم يوماً الى الليل .

فلما حانت صلاة العصر ، دنت الكتيبة ، فلم يقدر النبي (ص) ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلّوا الصلاة على نحو ما أرادوا ، فانكفأت الكتيبة مع الليل ، قال فزعموا

---

(١٢٢) أسيد بن حضير ، زعيم من زعماء الانصار وفارس من فرسانهم ، انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(١٢٣) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد)

أن رسول الله (ص) قال .. شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم وقبورهم نارا .

فلما اشتد البلاء نافق كثير من الناس وتكلّموا بكلام قبيح ، فلما رأى رسول الله (ص) ما بالناس من البلاء والكرب جعل يبشرهم ويقول .. والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة ، واني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً وأن يدفع الله الي ّ مفاتيح الكعبة وليهلكن الله كسرى وقيصر ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله » .

وجاء في رواية البخاري : أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش وقال .. يا رسول الله ما كدت أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب ، قال النبي (ص) .. والله ما صليتها ، فنزلنا مع رسول الله (ص) بطحان — بضم الباء — فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب .

وفي مسند الامام أحمد عن ابن عباس قال .. قاتل النبي (ص) العدوّ فلم يفرغ منهم حتى أخّر العصر عن وقتها فلما رأى ذلك قال .. اللهم من حبسنا عن الصلاة الوسطى فاملأ بيوتهم ناراً واملأ قلوبهم نارا .

وفي مسند الامام أحمد (ايضاً) عن ابن مسعود ، أن المشركين شغلوا رسول الله (ص) يوم الخندق من أربع

صلوات حتى ذهب من الليل ما شاء الله ، قال .. فأمر بلالاً فأذّن ثم أقام فصلّى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ثم أقام فصلى العشاء .

وقفة فقهية

وقد استدل كثير من أئمة الاسلام – ومنهم الامام الأوزاعي ومكحول – بهذا الصنيع الذي صنع رسول الله (ص) على جواز تأخير الصلوات عن أوقاتها لعذر القتال ، إلاّ ان آخرين – ومنهم الامام الشافعي) قالوا : إن ذلك قد نسخ بما أنزل الله تعالى في صلاة الخوف ، والذي به أباح للمحارب أن يصلي – أثناء القتال – كيفما اتفق له بشرط أن لا يؤثّر ذلك في سير القتال لصالح العدو .

وقد أبى كثير من العلماء المحققين التسليم بالنسخ لأن صلاة الخوف قد شُرِعت قبل معركة الخندق ، حيث صلاّها المسلمون في غزوة (ذات الرقاع) وفي عُسفان ، وهما غزوتان قام بهما المسلمون بقيادة النبي (ص) قبل غزوة الخندق .

وقد تردد الامام ابن كثير – وهو من كبار فقهاء الشافعية – في قبول القول بالنسخ قائلاً .. وهو (أي القول بالنسخ) مشكل ثم قال .. قال ابن اسحاق .. وجماعة ذهبوا ، الى ان النبي (ص) صلّى صلاة الخوف بعُسفان ، وقد ذكرها ابن اسحاق (وهو إمام المغازي) قبل الخندق وكذلك ذات الرقاع ، ذكرها قبل الخندق ، فالله أعلم .

درجة الانهيار

وبعد حوالي اثنتين وعشرين ليلة من الحصار الخانق الشديد بلغت حالة المسلمين المحصورين من الخطورة الى درجة ليس بعدها إلاّ الانهيار .

فكل شيء كان – في تلك الساعات – يوحي بالانهيار الكلي داخل صفوف الجيش الصغير الغارق في خضم كتائب الأحزاب الهائجة التي تحيط به من كل جانب .. ويُشعِر بأن المسلمين هم قاب قوسين أو ادنى من الفناء أو الاستسلام لعدوّهم الجبّار المحاصر بدون قيد ولا شرط (لولا الإيمان الذي حصّنهم الله به وجعله أقوى سلاح يواجهون به عدوّهم الذي يفوقهم في كل شيء ماديّ أضعافاً مضاعفة) .

ليالي الرعب المخيفة

فقد ارتفع ضغط عوامل البلاء والكرب ضد الجيش الصغير المحصور الى درجة لم يكن لبشرٍ أن يتحملها .

.. قريش وأحلافها بقواتهم العديدة الجبارة الغـــامرة المجهزة أحسن تجهيز تكاد (لكثرتها وقلتهم) يبتلعهم خضم جيشها الهائج المتحفز حولهم في كل مكان .

ويهود بني قريظة الغادرين الخونة يتحفزون ويستعدون (في نشوة وفرح) للانقضاض على جيش المدينة الصغير الرابض في خوف وقلق وراء استحكاماته الدفاعية خلف

الخندق .

وعوامل الطبيعة التي أبى الله إلاّ أن تكون (في تلك الليالي الفاصلة) على هذا الجيش الصغير الممتحن قاسية مزعجة، البرد القارص الشديد، والجوع المضني والنقص المخيف في الألبسة الواقية من البرد القاتل، والريح الهائجة ذات الصفير المزعج في الظلام الدامس.. والمنافقون يتسللون (لواذاً) من صفوف الجيش المحصور الممتحن، ويثيرون بأراجيفهم الخوف والفزع في النفوس، تاركين محمداً (ص) وصفوة أصحابه الأوفياء القلائل في مهب العاصفة .

ليالي الخندق الأخيرة

حقاً، لقد كانت تلك الليالي الأخيرة الحاسمة من ليالي الاحزاب الرهيبة مختبراً صهر الله (في بوتقة محنها وبلاياها) أمة محمد مرة أخرى ليعلم (وهو الأعلم بعباده) الصادق من الكاذب ويميز الخبيث من الطيب .

وفعلاً لم يثبت مع نبيه في خضم تلك البلايا المتلاحقة والمحن المتحالفة التي أخذ بعضها برقاب بعض، إلاّ ذوو الايمان الراسخ رسوخ شوامخ الجبال، والذي لا يزعزعه شيء مهما عظم، حتى إن بعض المؤرخين ذكر أنه لم يبق في الليالي الأخيرة من ليالي الخندق الخاسمة مع النبي القائد (ص) إلاّ حوالي ثلاثمائة مقاتل فقط، وماذا عسى أن يفعل

ثلاثمائة رجـــل (ينقصهم كل شيء مـــاديّ إلاّ الايمان) أمام أحد عشر ألف مقاتل يفوقونهم في كل شيء مادي .؟

حذيفة يصف ليالي الكرب والشدة

ولنترك أحد الأعلام من صحابة محمد (ص) الأوفياء الخلصاء الذين ثبتوا معه في تلك الليالي الرهيبة الحاسمة ، ليصف لنا ما تعرّض له محمد (ص) والصفوة من أصحابه في الليلة الأخيرة من ليالي الأحزاب المرعبة المخيفة ، من محن وبلايا تعجز عن تحمل مثلها الشم الرواسي .

روى الحاكم والبيهقي من حديث عكرمة بن عمار ، قال: ذكر حذيفة بن اليمان(١٢٤) مشاهدهم مع رسول الله (ص) فقال جلساؤه (اي حذيفة) .. أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا .

فقال حذيفة .. لا تمنّوا ذلك ، ثم قال .. لقد رأيتنا ليلة الاحزاب ونحن صافّون قعودا ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا ، نخافهم على ذراريناه .

وما أتت علينا ليلة قط ، أشد ظُلْمة ولا أشد ريحاً منها ، في أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي (ص) ويقولون: إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة .

---

(١٢٤) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد)

فما يستأذنه أحد منهم إلاّ أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ونحن (في ثلاثمائة) او نحو ذلك إذْ استقبلنا رسول الله (ص) رجلاً رجلاً حتى أتى وما عليّ جُنّة من العدو ولا من البرد إلاّ مِرْط لإمرأتي ما يجاوز ركبتي .

قال (أي حذيفة) فأتاني (أي رسول الله) (ص) وأنا جاثٌ على ركبتي فقال .. من هذا ؟ حذيفة ؟.

فقلت .. حذيفة ، فتقاصرت للأرض فقلت .. بلى يا رسول الله ، كراهية أن أقوم فقمت .

فقال (ص): إنه كائن في القوم خبر ،فأتني بخبر القوم (١٢٥)

وفي رواية ابن اسحاق عن محمد بن كعب القرظي ، قال .. قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان .. يا أبا عبدالله ، أرأيتم رسول الله (ص) وصحبتموه ؟

قال .. نعم يا ابن أخي .

قال .. فكيف كنتم تصنعون ؟.

قال حذيفة .. قد كنا نجتهد .

قال ذلك الرجل «هو تابعي لم يدرك النبي (ص)» .. والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا، قال .. فقال حذيفة .. يا ابن أخي لقد رأيتنا

---

(١٢٥) البداية والنهاية ج ٤ ص ١١٤

مع رسول الله (ص) بالخندق وصلّى رسول الله (ص) هويّاً من الليل ثم التفت إلينا، فقال.. من ينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع —فشرط له الرجعة— (ثم قال رسول الله —ص—).. أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة.

قال حذيفة.. فما قام رجل منا من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد، فلمّا لم يقم أحد، دعاني، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني.

فقال.. يا حذيفة إذهب فادخل في القوم فانظر ولا تُحدِثَنّ شيئاً حتّى تأتينا الخ. وقد استجاب حذيفة لرغبة نبيه القائد (ص) وذهب الى معسكر المشركين واطّلع على حقيقة الموقف بينهم كما سنفصله فيما يأتي من هذا الكتاب في موضعه إن شاء الله.

....

الفصل الرابع

- التحول المفاجىء الخطير في الموقف الحربي لصالح المسلمين .
- الاختلاف الشديد بين اليهود والأحزاب .
- الرجل الذي بدهائه غيّر مجرى الأحداث لصالح المسلمين .
- انهيار الاتحاد القائم بين الأحزاب واليهود .
- فك الحصار عن المدينة وانسحاب الأحزاب إلى بلادهم .
- انتهاء المعركة .

ذكرنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب كيف أن الكرب والضيق والخوف قد بلغ بالمسلمين الى درجة الاختناق (وبلغت القلوب الحناجر) وأن كل شيء مادي كان يوحي (على نحو ساحق) بأن المسلمين كانوا (أمام ذلك الحصار الخانق الرهيب) قاب قوسين أو أدنى من الفناء أو الاستسلام بدون قيد أو شرط لقوات الأحزاب الضاربة المحاصرة .

وأن الصفوة المختارة من صحابة محمد (على متانـة ايمانهم وشدة يقينهم) قد وقفوا ـ أمام تلك البلايا المتلاحقة والرزايا المتشابكة والزلازل المتواصلة ـ حائرين لا يدرون كيف المخرج من تلك الورطة القاتلة المستحكمة ، وأنهم قد أبلغوا الرسول القائد (ص) ما يشعرون به من ضيق وخوف وقلق لعل هناك لديه ما يقولونه مما يمكن أن يخفف عنهم من شدة الكرب والخوف والضيق والقلق :

يا رسول الله لقد بلغت القلوب الحناجر فهل من شيء نقوله (١٢٦) ؟.

التحول الخطير في الموقف

وهكذا وبينما وقف صفوة أصحاب محمد (بعد أكثر من عشرين ليلة كلها مشحونة بالمحن والبلايا والخطوب والرزايا) ، نعم بينما وقفت هذه الصفوة المختارة تنظر (في قلق وخوف متزايد) إلى ميزان المصير ، وشوكته تهتز على الصفر تنذر بالميل نحو نهايتهم المفزعة ، إذ برجل واحد يهديه الله للاسلام في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ الاسلام .

ثم يسخر الله مواهب هذا الرجل الألمعي في الذكاء والدهاء ليغيّر (بخدعة سياسية بارعة) مجرى الأحداث

---

(١٢٦) البداية والنهاية ج ٤ ص ١١١ .

الخطيرة ، فيقلب موازين القوى لصالح القلة المؤمنة الصابرة الثابتة في مهب العاصفة ، فتحدث المعجزة ، فيهزم الله الأحزاب ويكتب النصر المؤزر للمسلمين .

فقد فعل دهاء هذا الرجل بقيادات الاحزاب وجيوشها أكثر مما تفعله الجيوش الجرارة .

فكان صنيع هذا الداهية العظيم من أكبر العوامل التي أدّت الى تشتيت قوى الأحزاب وعودة الغزاة خائبين متنافرين إلى ديارهم دون أن يحققوا شيئاً من أهدافهم .

فبمجهود هذا الرجل ومكره السياسي وإخلاصه لدينه الذي لم يمض على دخوله فيه أكثر من أربع وعشرين ساعة تمكن من إشاعة الفرقة بين فئات الأحزاب ويهود بني قريظة .

فبذر (بمهارة فائقة) بذور الشك والريبة في نفوس قادة الأحزاب واليهود بعضهم ضد بعض حتّى انعدمت الثقة بين هؤلاء الزعماء والقادة فتصدّعت جبهاتهم وتفتّتت وحدتهم مما جعل قادة قريش وغطفان يحنقون على اليهود ويفكون الحصار عن المدينة ، كلّ منهم عائد الى بلاده ، تاركين يهود بني قريظة الناكثين الغادرين لمصيرهم المحتوم الذي انتهى بإبادتهم .

الرجل الذي غيّر مجرى الأحداث

وهذا الرجل الذي شاء الله أن تتحطم على يديه وحدة

الأحزاب الغازية المعتدية هو (نُعَيم بن مسعود) وهومن قبيلة غَطَفان النجدية التي يمثل رجالها أكبر أجنحة الاتحاد القرشي الغَطَفاني اليهودي العسكري، الذي جاء لاحتلال المدينة وسحق المسلمين فيها.

فقدكان نُعَيم بن مسعود هذا من وجوه القوم والشخصيات البارزة المشهورة في المحيط العربي واليهودي، وكان من كبار المستشارين في قيادة جيش الاتحاد العربي الوثني اليهودي الغازي.

ولكن لحكمة أرادها الله (في الليلة التي تلتها ليلة الأحزاب الأخيرة) فتح الله قلب هذا الرجل للاسلام وهو في معسكر الأحزاب.

نعيم بن مسعود في المعسكر النبوي

وعندما أشرق قلبه بنور الاسلام كتم الأمر في نفسه، ثم انسلّ من معسكر الاحزاب أمام الخندق واتجه في غلس الظلام نحو معسكر الرسول (ص) حيث يرابط بجنده وراء الخندق.

وهناك تشرّف بمقابلة الرسول الأعظم (ص) في مقر قيادته وأبلغه (سِرّاً) أن الله قد هداه للاسلام، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت تصرفه وأنه على اتم الاستعداد للقيام بأي عمل يأمره به (صلى الله عليه وسلم).

فقد قال نعيم بن مسعود .. يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا باسلامي فمرني بما شئت . وهنا قال له الرسول القائد (ص) .. أنت رجل واحد فخذّل عنا إنْ استطعت ، فان الحرب خُدْعة (١٢٧) وبعد أن أعطى النبي (ص) نعيماً مطلق الحرية ليعمل (قدر طاقته) أي شيء من شأنه أن يُحدِثَ الفُرقة والانقسام والتخذيل داخل صفوف الأحزاب ، توجّه (فوراً) إلى ديار بني قريظة الذين عقّد نقضهم (العهد) الموقف ، وضاعف من عوامل الكرب والبلاء على المسلمين .

داهية الخندق عند بني قريظة

كان نعيم بن مسعود من الشخصيات المألوفة المعروفة بين بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية وصديقاً ، وهو الذي تحدث في الجاهلية في حانة من حانات اليهود في المدينة (قبل تحريم الخمر) وهو سكران عن قافلة لكفار مكة سلكت طريق العراق الى الشام ، وكان في الحانة أحد الصحابة من استخبارات الجيش الاسلامي ، فسارع بنقل الخبر

---

(١٢٧) وجاء في السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠٩ أن نعيم بن مسعود قال .. يا رسول الله اني أقول (أي ما يقتضيه الحال) وان كان خلاف الواقع ، قال .. قل ما بدا لك فأنت في حل ، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديماً ، قال .. فلما رأوني رحبوا بي وعرضوا علي الطعام والشراب ، فقلت .. اني لم آت لشيء من هذا ، انما جئتكم تخوفاً عليكم لأشير عليكم برأي ثم اورد الكلام الذي اوردناه في صلب هذا الكتاب .

الى النبي القائد (ص) فجهز حملة عسكرية أعطى قيادتها لزيد بن حارثة ، وأمره باعتراض هذه القافلة عند عودتها من الشام ، وقد نجح زيد بن حارثة في الاستيلاء على هذه القافلة وذلك في الغزوة المسماة (بسرية زيد بن حارثة) (١٢٨)

كيف انخدعت قريظة بداهية الخندق

ولمّا وصل نُعَيم بن مسعود إلى حصون بني قريظة (وهم لم يعلموا بإسلامه) بدأ في حياكة خيوط الخدعة الكبيرة التي أدّى نجاحها الى تشتيت شمل الأحزاب وانهزامهم وتخليص المسلمين من ذلك الكرب العظيم.

فقد قال نعيم.. يا بني قريظة قد عرفتم ودّي إياكم وخاصة ، ما بيني وبينكم ، فلم ينكروا ذلك بل أيّدوه قائلين .. صدقت لست عندنا بمتهم .

وهنا بدأ في تنفيذ ما اعتزم تنفيذه من خطة بذر بذور الفُرقة والشك وعدم الثقة بين اليهود وبين جيوش الأحزاب ليتسنى لـــه نسف ما بينهم من عهد وتحالف .

فقد جمع زعماء بني قريظة (وكلّهم يعرفه ويثق به) وقال لهم —كواحد منهم يحرص على مصلحتهم— إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تتحولوا منه الى غيره .

---

(١٢٨) انظر تفاصيل هذه السرية في كتابنا (غزوة أحد) .

وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره ، فليسوا كأنتم ..

فان رأوا نَهْزة (أي فرصة) أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم .

ثم استمر نُعَيم يشحن نفوس هؤلاء اليهود بالخوف والشك قائلاً .. ولا طاقة لكم به (أي النبي) إن خلا بكم .

ثم ضرب ضربته الأخيرة التي أصابت الهدف في الصميم قائلاً .. فلا تقاتلوا مع القوم (أي الاحزاب) حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم (سبعين رجلاً) يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى يناجزوه .

ويظهر أن قريظة الغادرة قد بدأ الخوف والفزع ينتابها وبدأت تشعر بالحاجة الماسة الى ضمانات تحميها من أن ينزل بها عقاب الخيانة الصارم الذي بدأ شبحه المخيف يقلق بالها .

ولهذا فقد وقع قول نعيم بن مسعود من نفوس زعماء بني قريظة موقع الرضى والقبول ، فشكر اليهود لنعيم بن مسعود مسعاه عندما تقدم إليهم بتلك النصيحة قائلين .. لقد أشرت بالرأي ، وقرروا التمسك بما أشار به عليهم .

نُعَيم الداهية في قيادة الأحزاب

وبعد أن تأكد داهية الخندق (نعيم بن مسعود) من

نجاح المرحلة الأولى من الخطة التي رسمها لنسف التحالف الوثني اليهودي ، وتأكد لديه أن يهود بني قريظة قد انخدعوا بما قاله لهم ، ولم يشكّوا في أنه ناصح أمين لهم ، توجه (فوراً) الى القيادة المشتركة في معسكر الاحزاب أمام الخندق ليكمل المرحلة الأخيرة من الخطة التي رسمها لتفريق كلمة الأحزاب وإشاعة الفرقة والتخاصم بينهم وبين يهود بني قريظة.

ولما وصل نُعَيم ، الى مقر القيادة المشتركة للأحزاب ، طلب الاجتماع (أولاً وعلى انفراد) بالقائد العام لجيوش الأحزاب أبي سفيان وهيئة أركان حربه من القرشيين.

وحينما اجتمع بهم (وهم طبعاً لا يعلمون إسلامه) أخبرهم بأنه ما جاء إلاّ لأمر جلل ، يتعلق بسلامتهم وسلامة جيوشهم ، وأن حُبّه لهم وحرصه على سلامتهم وسمعة جيوشهم رأى أنه لزاماً عليه أن يخبرهم بأمر خطير علمه قِبَل حلفائهم يهود بني قريظة.

فقد قال لأبي سفيان وهيئة أركان حربه من القرشيين .. قد عرفتم ودّي لكم وعداوتي لمحمد ..

فلم ينكروا عليه هذا القول لأنهم كانوا يعرفونه مشركاً لا يدين بالاسلام ، ومن وجوه الأحزاب الذين شاركوا في ضرب الحصار على المدينة ومناوشة المسلمين.

فلما رأى الثقة به بادية عليهم ، نقل إليهم — كالناصح

المخلص – ما اعتزمت قريظة اليهود من طلب الرهائن منهم لتطمئن الى أنهم لن يفكوا الحصار عن المدينة حتى يتم القضاء على المسلمين ، وأضاف الى هذا الخبر (زيادة من عنده) أن اليهود ندموا على نكثهم العهد الذي بينهم وبين محمد وأنهم لن يطلبوا الرهائن السبعين منهم الا ليسلّموهم للنبي (ص) ليقتلهم كترضية له وتكفيراً عن نقضهم العهد وكدليل على ولائهم للمسلمين من جديد ، فكان هذا من أحكَمِ خطط الدس والوقيعة لتفريق كلمة العدوّ.

فقد قال نعيم بن مسعود لقادة قريش .. إنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم ، ولكن فاكتموا عني .. قالوا .. نفعل.

فقال لهم .. تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد (يعني ما قاموا به من نقض العهد) وقد أرسلوا اليه إنّا قد ندمنا على ما فعلنا – ثم أبلغوه استعدادهم لوضع يدهم في يده من جديد وأنهم مستعدون ليكونوا معه على الأحزاب وأنهم لكي يبرهنوا له على صدق ما ذكروا قالوا له – .. فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم ، وأنه (أي محمداً) قد أرسل اليهم بالموافقة قائلاً .. أن نعم.

ثم قال نعيم لقادة قريش ناصحاً .. فان بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلاً واحداً .

انخداع الأحزاب بداهية الخندق

وبعدأن ترك هذا الداهية العظيم (رضي الله عنه) نفوس القادة القرشيين نهباً لنوازع الشك والريبة والحقد على حلفائهم الجدد (بني قريظة) ، توجه فوراً الى قومه (غطفان) ، وفي معسكر هذه القبيلة العظيمة طلب (على انفراد) الاجتماع بزعمائها وقادتها (عيينة بن حصن الفزاري، طليحة بن خويلد الأسدي والحارث بن عوف المرّي) ، وعندما اجتمع بهم ، قال لهم ..

يا معشر غطفان: إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس الي ولا أراكم تتهموني .

قالوا .. صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فأبلغهم أن لديه خبراً خطيراً يتعلق بسلامتهم .. قائلاً فاكتموا عني .

قالوا .. نفعل .

فقال لهم مثل الذي قال لقادة قريش بشأن ما عزم عليه اليهود من طلب الرهائن منهم ، وحذّرهم – كما حذّر قادة قريش – من أن يجيبوا قريظة الى ما طلبوا من تسليم الرهائن .

فشكروا له صنيعه وأكدوا له انهم لن يسلّموا لقريظة

رهينة ولا رجلاً واحداً .

وهكذا نجح نُعَيم بن مسعود في حبك خديعته الكبرى نجاحاً كاملاً .

وفد الأحزاب الى بني قريظة

فقد اهتم أركان القيادة المشتركة من الأحزاب (قريش وغطفان) لهذه الأنباء التي نقلها نعيم بن مسعود (الذي ما كانوا يشكون لحظة بأنه على دينهم) اهتماماً بالغاً وانزعجوا لها انزعاجاً كبيراً ، بعد أن وقع في نفوسهم صدق ما نقل اليهم نُعَيم بن مسعود ، فباتوا بشر ليلة من القلق . وقد امتلأوا حنقاً وغيظاً على بني قريظة .

وبهذا نجح هذا الداهية العظيم في وضع مواد التفجير في المواقع الحساسة من صرح التحالف بين الأحزاب وبين يهود بني قريظة حتى نسفه نسفاً كاملاً .

فبعد أن وصل الصحابي الألمعي نعيم بن مسعود الى هذه الدرجة من شحن نفوس الفريقين (اليهود والاحزاب) بما لا مزيد عليه من الشك والريبة وعدم الثقة في بعضهم البعض اتفقت قيادة الاحزاب المشتركة (وكان ذلك مساء يوم جمعة) على أن تبعث الى بني قريظة وفداً من قادتها وزعمائها ليتصل ببني قريظة موضوع الأنباء التي نقلها نعيم بن مسعود .

ولكي يصلوا الى الحقيقة ويعرفوها (بطريق غير مباشر)

كلفوا وفدهم بأن يطلب من اليهود الاستعداد للدخول في المعركة مع المسلمين وأن يبلغهم أن صباح يوم السبت هو الوقت المحدد للهجوم العام على المسلمين .

(وفعلاً) توجه وفد الأحزاب إلى منازل بني قريظة تلك الليلة في جنح الظلام ، وقد تسلل رجال الوفد هذا (سراً) إلى منازل بني قريظة الواقعة خلف خطوط المسلمين ، وذلك خوفاً من دوريات المسلمين التي كانت تطوف حول المدينة طول الليل .

الأحزاب تطلب الهجوم وقريظة تطلب الرهائن

ولما وصل وفد الأحزاب الى حصون بني قريظة لمس (لأول وهلة) الفتور بادياً على زعماء هؤلاء اليهود ، ولكن هذا الوفد أبلغ بني قريظة (باسم القيادة المشتركة للأحزاب) رغبة هذه القيادة في القيام بالهجوم العام الخاطف على المسلمين كما هو المتفق عليه (أصلاً) بين الفريقين ، وطلبوا منهم الاستعداد لذلك قائلين :

(يا بني قريظة) إنا لسنا بدار مقام ، لقد هلك الخُف والحافر (١٢٩) فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه . ولم يشأ زعماء اليهود أن يصدموا أعضاء وفد الأحزاب باعلان رفضهم الهجوم على المسلمين إلاّ بعد

---

(١٢٩) يعبر العرب (عادة) عن الجمال بالخف ، وعن الخيل بالحافر .

أخذ الرهائن منهم (لأول وهلة) بل تدرجوا في ذلك حتّى أعلنوه أخيراً.

فقد كان جوابهم على طلب الاشتراك في الهجوم على المسلمين (صباح يوم السبت) هو اعتذارهم عن القتال في هذا اليوم بحجة انهم (حسب تعاليم دينهم) لا يعملون في يوم السبت شيئاً مهما كان تافهاً فكيف بالحرب.

فقد قالوا لوفد الأحزاب.. نحن لا نقاتل يوم السبت، وقد علمتم ما نال منا من تعدّى في السبت، وكان قد أحدث فيه (أي السبت) حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم.

ثم افصحوا عن مخاوفهم من أن ينسحب الأحزاب قبل القضاء على المسلمين واستئصال شأفتهم — هذه المخاوف المستحكمة التي جاءت نتيجة تدبير نُعَيم بن مسعود المُحكَم — أفصح هؤلاء اليهود لوفد القيادة المشتركة في الأحزاب بقولهم: ولسنا — مع ذلك — بالذي يقاتل معكم محمداً حتّى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتّى نناجز محمداً فانا نخشى إنْ ضرّستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا عنا الى بلادكم وتتركونا والرجل (يعني النبي ص) في بلادنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

ظهور الخلاف بين الأحزاب واليهود

وبعد أن سمع وفد قيادة الأحزاب هذا الجواب من

حلفائهم اليهود ، لم يجرِ معهم أية مناقشة ، بل عاد أدراجه الى مقر القيادة المشتركة وأخبر قادة الأحزاب بما سمع من جواب من يهود بني قريظة .

وهنا لم يبق أيّ شك لدى هذه القيادة في صدق ما قاله لهم نُعَيم بن مسعود من أن هؤلاء اليهود قد بيتوا الغدر بهم وأنهم لم يطلبوا الرهائن منهم إلاّ ليسلموهم للنبي (ص) لضرب أعناقهم كدليل على ولائهم للمسلمين وتكفيراً عن جريمة نقض العهد الذي بينهم وبين النبي (ص) .

فقد قال قادة الأحزاب بعضهم لبعض (بصوت واحد) .. والله إن الذي حدّثكم به نُعَيم بن مسعود لحق .

وهنا تحوّل الشك في نفوس الأحزاب إلى يقين بأن يهود بني قريظة قد غدروا بهم واتفقوا مع المسلمين عليهم وأنهم (لاشك) مسلّموا رهائنهم للنبي (ص) إذا استلموهم منهم .

الأحزاب يرفضون إعطاء الرهائن

لذلك فاضت نفوس قادة الأحزاب بالغيظ والنقمة على اليهود فأرسلوا اليهم (في الحال) وفداً آخر ليبلغهم رفض ما طلبوا من رهائن ويطلب منهم تنفيذ الاتفاقية بالهجوم على المسلمين ، إن أرادوا .

وقد أسرع الوفد بالذهاب ثانية الى ديار بني قريظة ، وأبلغهم (باسم قيادة الأحزاب المشتركة) رفضَ ما طلبوا

من تسليم الرهائن – وأنّ هذا الطلب هو دليل عدم الثقة وطعن في شرف كلمة قيادة الأحزاب الّتي أعطوها لليهود – ، فقد قال الوفد لزعماء بني قريظة .. (وعلى لسان قيادة الأحزاب المشتركة) .. إنّا والله لا ندفع اليكم من رجالنا رجلاً واحداً ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

ولدى سماع زعماء قريظة هذا الجواب من قيادة الاحزاب المشتركة ، لم يبق لدى هؤلاء اليهود أي شك في صدق ما أشار به عليهم (نديمهم السابق) نعيم بن مسعود بشأن قريش وغطفان ، فقد قال بعضهم لبعض :

« إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقّ ، ما يريد القوم إلاّ أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل » .

وعلى أساس هذا الاعتقاد ، أرسلت قريظة الى قيادة الأحزاب المشتركة مبعوثاً ليبلغهم (في إصرار) بأن هؤلاء اليهود لن يشتركوا في أيّ هجوم على الجيش الاسلامي إلاّ اذا أعطتهم قيادة الأحزاب الضمانات الكافية الّتي تضمن عدم انسحابهم إلاّ بعد القضاء على المسلمين قضاءً تاماً .

فقد قال مبعوث قريظة – على لسانها – لقادة الاحزاب .. إنّا والله ما نقاتل محمداً معكم حتّى تعطونا رَهناً .

وبالطبع رفضت قيادة الاحزاب (مرة أخرى) طلب اليهود احتجاز الرهائن من الأحزاب .

شيطان بني النضير يحاول رأب الصدع

ولقد حاول زعيم يهود بني النضير ورأس الفتنة (حيي بن أخطب) إنقاذ الموقف المتدهور بين الأحزاب وبني قريظة، فذهب إلى يهود بني قريظة محاولاً إقناعهم بالاشتراك في الهجوم على المسلمين، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل، فقد أصرّ بنو قريظة على موقفهم المتشدد قائلين لحيي بن اخطب:

« والله لا نقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلاً من قريش وغطفان رَهناً عندنا » (١٣٠).

وبهذا تم إحكام آخر فصل من فصول الخدْعة الكبرى التي نسج خيوطها الداهية العظيم نُعَيم بن مسعود فاستحكمت حلقات الأزمة بين اليهود وقيادة الاحزاب وأصبح من المستحيل التوفيق بينهما. وبدأ المسلمون يتنفسون الصّعَداء.

بنو قريظة يفاوضون النبي في الصلح

ونقل البيهقي في (الدلائل) عن موسى بن عقبة أن اليهود لما تفاقم الخلاف بينهم وبين قيادة الأحزاب، ورفضت هذه القيادة إعطاء اليهود الرهائن الذين طلبوا، اتصلوا بالنبي (ص) يطلبون الصلح على أن يسمح النبي (ص) بعودة

(١٣٠) انظر طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٦٩ والبداية والنهاية ج٤ ص ١١١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠٨ وما بعدها وسيرة بن هشام ج ٢ ص ٢٢٩ والكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٢٥ وجوامع السيرة لابن حزم ص ١٩٠ وما بعدها.

إخوانهم بني النضير الى المدينة ، ولكن هذا الطلب رفض من قِبَل النبي (ص) .

وعلى كل حال فإن الشقاق قد حصل بين الأحزاب وحلفائهم الجدد (يهود بني قريظة) ، وظن بعضهم ببعض سوءاً ، ووصل الخلاف والتنافر بين الفريقين (اليهود والأحزاب) الى درجة أصبح الحلف العسكري المعقود بينهما في حكم المنتهي ، وصار كل منهما يحمِّل الآخر مسؤولية انفصام عرى هذا الحلف .

انهيار الاتحاد الوثني اليهودي

وعندما وصل الخلاف والتنافر الى هذه الدرجة ، فكرّت القيادة المشتركة للأحزاب في إنهاء الحصار المضروب على المدينة والرجوع بجيوشها كلٌ الى بلاده، وترك اليهود وشأنهم ، ليلقوا مصيرهم الرهيب ، لا سيما وأن التذمر والاستياء أخذ يظهر في معسكر الأحزاب الذي ظل جنوده (وهم أكثر من عشرة آلاف) قرابة ثلاثين يوماً معوّقين مجمدين أمام الخندق لا يستطيعون القيام بأي عمل عسكري حاسم ضد المسلمين ، وهذا مما يبعث السأم والضيق في نفوس هؤلاء القوم الذين لم يألفوا طيلة حياتهم (في الحروب) التجميد والمرابطة أمام المدن ، وانما ألِفوا الحروب الخاطفة والغارات السريعة التي لا تستغرق عملية القيام بها سوى يوم أو بعض يوم .

يضاف اليها أنه في الوقت الذي استحكم الخلاف فيه

بين اليهود والأحزاب هبّت على المنطقة التي يعسكر فيها الأحزاب رياح هوج كانت لقوتها تقتلع الخيام وتهدم الأبنية وتكفأ القدور ولا تترك ناراً تشتعل .

ابو سفيان يأمر بالانسحاب

فأزعجهم هذا الوضع الى حد سارع معه القائد العام أبو سفيان بن حرب – بعد التشاور مع بقية قادة القيادة المشتركة – الى إصدار الأوامر الى جنود الأحزاب بالانسحاب وأن يعود كل منهم الى دياره ، وشرح لهم الأسباب – التي ليسوا بحاجة الى شرحها – والتي منها – وقد يكون أهمها – اعتقاد الأحزاب أن اليهود قد تصالحوا مع المسلمين وغدروا بهم .

ولما كان النبي (ص) يتوقع انسحاب الأحزاب بعد الذي حدث بينهم وبين اليهود من خلاف ، فقد كلف أحد رجال استخباراته الأذكياء الشجعان بأن يذهب ويدخل (متنكراً) الى قلب معسكر الأحزاب ليأتي إليه بحقيقة الموقف هناك .

وكان هذا الرجل هو حذيفة بن اليمان الذي ذكرنا جانباً من قصته فيما مضى من هذا الكتاب .

ولنترك هذا البطل ليقص علينا ، قصة تسلله إلى معسكر الأحزاب وكيف حصل على كل ما تحتاج القيادة النبوية من معلومات قيمة هامة عن حالة العدو .

فقد ذكر حذيفة أن النبي (ص) – في تلك الليلة الحاسمة –

استدعاه وقال له .. يا حذيفة ، اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ، ولا تُحدِثَنَّ شيئاً حتّى تأتيني ، قال .. فذهبت فدخلت في القوم ، والريح وجنودُ الله تفعل ما تفعل بهم لا تُقِرّ لهم قِدْراً ولا بناء .

فقام أبو سفيان فقال .. يا معشر قريش لينظر امرؤٌ مَنْ جليسه ؟ — وهذا من ابي سفيان تحفظ من أن يكون داخل المعسكر أحد يتجسس لحساب المسلمين .

وقد أوقع هذا الأمر حذيفة في مأزق ، ولكنه لذكائه تخلّص من هذا المأزق حيث سارع الى الرجل الذي بجانبه وبدأه بالسؤال قائلاً : من أنت ، فقال : فلان بن فلان ، وبهذا العمل تمكن حذيفة من الخروج من المأزق الذي وقع فيه والذي (فيه) كاد يقع في قبضة المشركين لو انكشف امره (١٣١) .

ابو سفيان يخطب في الجيش

قال .. حذيفة (ثم) قال أبو سفيان .. يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ،

---

(١٣١) ومن طريق آخر روي عن حذيفة (كما في السيرة الحلبية) انه قال .. فسمعت أبا سفيان يقول .. يا معشر قريش ليتعرف كل امرىء منكم جليسه واحذروا الجواسيس والعيون ، فأخذت بيد جليسي على يميني وقلت .. من أنت ، فقال معاوية بن أبي سفيان ، وقبضت على يد من على يساري ، وقلت .. من أنت ، قال .. عمرو بن العاص ، فعلت ذلك خشية أن يفطن بي .

وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فاني مرتحل ، ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلاّ وهو قائم .

ويحدثنا حذيفة كيف أنه كان من السهل عليه قتل القائد العام أبي سفيان ، وأنه حاول ذلك ، لولا أنه تذكر الأوامر المشددة الصادرة اليه من القائد الأعلى النبي بأن لا يُحدث شيئاً حتى يأتيه .

فقد حدّث حذيفة – يصف محاولته قتل أبي سفيان – فقال .. فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول على النار بيده ويمسح خاصرته ويقول .. الرحيل الرحيل ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار فذكرت قول رسول الله (ص) .. لا تُحدِثنّ شيئاً حتى تأتيني ، فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي .

فك الحصار عن المدينة نهائياً

قال حذيفة .. ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر فاذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون .. الرحيل الرحيل ؛ لا مقام لكم ، واذا الريح في عسكرهم ، فوالله لأني أسمع

صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم ، الريح تضرب بها ، قال .. وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين الى بلادهم .

ويختم حذيفة حديثه هذا قائلاً .. ثم رجعت كأنما أمشي في حمام ، فأتيت رسول الله (ص) ، فلما انتصف بي الطريق أو نحو ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين فقالوا .. أخبر صاحبك أن الله قد كفاه .

فرجعت إلى رسول الله (ص) وهو مشتمل في شملة يصلي ، فوالله ما عدا أن رجعت حتى راجعني القُر (١٣٢) وجعلت أقرقف من البرد ، فأومأ اليَّ رسول الله (ص) بيده وهو يصلي فدنوت منه ، فأسبل عليَّ شملته ، وكان رسول الله (ص) إذا حزبه أمر صلّى ، فأخبرته أني تركتهم (أي الاحزاب) يرحلون (١٣٣) .

وهكذا انقشعت الغمة ، وخلص الله المسلمين من براثن المحنة ، وقطف المؤمنون الصادقون ثمار صدقهم وصبرهم وثباتهم مع نبيهم الحبيب في تلك الليالي الرهيبة المرعبة التي زاغت فيها الأبصار وبلغت القلوب الحناجر . فقد أخذت جيوش الأحزاب في فك الحصار عن المدينة ، وأخذت كتائبهم

(١٣٢) القر بضم القاف هو شدة البرد .

(١٣٣) انظر سيرة بن هشام ج ٢ ص ٢٣٢ ، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١١٠ وما بعدها .

تولي الأدبار تجر أذيال الخيبة والخسران ، لم تجن من غزوها الكبير هذا سوى التعب والنصب .

الأحزاب تنظم انسحابها

وعندما عزم الأحزاب على الانسحاب وإنهاء الحصار ، قرر القائد العام أبو سفيان ، أن يكون الانسحاب منظماً لا فوضى فيه ولا اضطراب ، وأن يكون في حماية قوات مسلحة منظمة تتولى الاشراف عليه .

ولذلك أصدر أبو سفيان الى قائد سلاح الفرسان في الجيش القرشي (خالد بن الوليد ومساعده عمرو بن العاص) أمره بأن يتوليا الاشراف على تنظيم هذا الانسحاب ، ويقوما بحماية مؤخرة الجيوش المنسحبة من أن يقوم المسلمون بضربها ساعة الانسحاب .

فامتثل عمرو ، وخالد ، أمر القائد العام وسارعا ، الى انتخاب مئتين من الخيالة ، ثم تمركز هؤلاء الخيالة في المنطقة الواقعة بين مؤخرة معسكر الأحزاب وبين المسلمين ، وصاروا يضربون بخيلهم في تلك المنطقة ، ويماشون الجيش المنسحب وهم على تعبئة واستعداد ، لحمايته من أية غارة يقوم بها عسكر الاسلام ، وظلّت كتيبة الفرسان القرشية هكذا حتى اكتمل انسحاب جيوش الأحزاب من مواقعها أمام الخندق (تماماً) وابتعدت عن منطقة الخطر (١٣٤) .

---

(١٣٤) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١١٦ .

ابو سفيان يكتب الى النبي عند الانسحاب

ويقول المؤرخون : إن قائد عام جيوش الأحزاب (أبا سفيان) قبل انسحابه ، كتب الى النبي (ص) خطاباً يعيب فيه عليه الاحتماء بالخندق ، ويذكر له أنه لولا مكيدة الخندق لما بقي للمسلمين من وجود ، وقد بعث أبو سفيان هذا الخطاب مع ابي سلمة الخشني .

فلما أتى به دعا رسول الله (ص) أبي بن كعب (١٣٥) فدخل معه قبتّه فقرأه عليه ، فاذا فيه :

« باسمك اللهم ، فاني أحلف باللات والعزى وساف ونائلة وهُبَل ، لقد سرت اليك في جمعنا وإنا نريد ألاّ نعود إليك أبداً حتى نستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا وجعلت مضائق وخنادق ، واعتصمت بالخندق ، فاعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها ، وانما تعرف ظل رماحها وشَبا سيوفها ، وما فعلت هذا إلاّ فراراً من سيوفنا ولقائنا ، فليت شعري من علمّك هذا ، فان نرجع عنكم ، فلكم منا يوم كيوم أُحد ننصر فيه النساء » .

وبعد أن عرف النبي (ص) محتوى خطاب أبي سفيان كتب إليه جواباً يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله الى أبي

---

(١٣٥) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد) .

سفيان بن حرب ، أما بعد ، فقد أتاني كتابك ، وقديماً غرك – يا أحمق بني غالب وسفيههم – بالله الغرور ، وسيحول الله بينك وبين ما تريد ويجعل الله لنا العاقبة ، وأما ما ذكرت انك سرت الينا في جمعكم وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأسافاً ونائلة وهُبَلَ حتى أذكرك بذلك – يا سفيه بني غالب – ، وأما قولك « من علّمك » الذي صنعنا من الخندق فإن الله تعالى ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك »(١٣٦) .

وهكذا (وبعد حصار خانق شديد دام حوالي شهر بلغت فيه حالة المسلمين من الضيق والتعب والارهاق حد الاعياء والزلزال) هزم الله الأحزاب وكبت الخونة الغادرين من يهود بني قريظة ، وكتب النصر للمؤمنين الصابرين ، وكان نصراً ساحقاً عظيماً دون أن يتكبد المسلمون في سَبيله خسارة من الرجال تذكر ، وهذا الذي عناه الله تعالى بقوله (وكفى الله المؤمنين القتال) .

وبعد أن تمت عملية انسحاب جيوش الاحزاب من معسكراتها حول المدينة ، أصدر النبي (ص) أمره الى جيشه بالعودة الى المدينة ، فأخذ هذا الجيش في ترك مواقعه واتجه نحو المدينة ،

---

(١٣٦) الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٩ وما بعدها ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١١٣ وما بعدها .

بعد أن تنفس الصعداء . وتخلص من ذلك الكرب العظيم الذي لم يشهد مثله في تاريخه .

آخر غزوة يقوم بها العدو

ولقد أبلغ النبي (ص) أصحابه (وهم يتركون مواقعهم خلف الخندق) بأن هذه الغزوة التي قام بها الأحزاب ستكون آخر عملية عسكرية يقوم بها الأعداء ضد المسلمين ، وأن الجيش الاسلامي سيكون (بعد هذه الغزوة) هو الغازي دائماً .

فقد أخرج البزار من حديث جابر باسناد حسن أن النبي (ص) قال يوم الاحزاب — وقد جمعوا له جموعاً كثيرة — « لا يغزونكم بعدها أبداً ولكن أنتم تغزونهم » .

وفعلاً ، فان المسلمين — بعد غزوة الأحزاب — لم يتعرضوا لأي غزو من قبل العدوّ ، وانما كانوا هم الذين يقومون بغزو الأعداء ، حتى تمت لهم السيطرة الكاملة على جزيرة العرب ، وهكذا فان محمداً (ص) لا ينطق عن الهوى (و) « إن هو إلاّ وحي يوحى » ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الخامس

● عدد قتلى الفريقين في المعركة .
● حديث القرآن عن المعركة .

بالرغم من أن معركة الأحزاب هذه هي أخطر غزوة يتعرض لها المسلمون في تاريخهم ، وبالرغم من أنها من أشد ما شهد المسلمون في عملياتهم الحربية ، من حيث الخوف والقلق والتعب والرعب والارهاق ، فان قتلى الفريقين فيها لم يزيدوا على أحد عشر رجلاً وجريحين .

عدد شهداء المسلمين

فقد كان كل شهداء المسلمين في هذه المعركة (ثمانية فقط) ، وكلهم من الأنصار ، إذ لم يُقتَل أحد من المهاجرين في هذه المعركة ، وهؤلاء الشهداء هم :

(آ) من بني عبد الاشهل (وهم بطن من الأوس) ثلاثة نفر ، وهم :

١ ـ سيد الأوس وقائدهم (سعد بن معاذ) (١٣٧) .

---

(١٣٧) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

أصابه سهم وظل منه جريحاً حتى مات منه بعد غزوة بني قريظة .

٢ — أنس بن أوس بن عتيك (١٣٨) .

٣ — عبد الله بن سهل (١٣٩) .

(ب) ومن بني جشم (وهم بطن من الخزرج) رجلان ، وهما :

١ — الطفيل بن النعمان (١٤٠) ، قتله قاتل حمزة ، زَرَقَهُ بحربة عبر الخندق .

٢ — ثعلبة بن غنمة (١٤١) .

(ج) ومن بني النجار (وهم بطن من الخزرج) ،

---

(١٣٨) هو أنس بن أوس بن عتيك بن عمرو الانصاري الاوسي ، لم يشهد بدراً ، ولكنه شهد احداً ، قال موسى بن عقبة : رماه خالد بن الوليد (يوم الخندق) بسهم فقتله ، فاستشهد .

(١٣٩) هو عبدالله بن سهل بن زيد بن عامر الاوسي الانصاري ، قال ابن سعد في طبقاته الكبرى : وهو أخو رافع بن سهل ، وهما اللذان خرجا الى حمراء الأسد وهما جريحان (بعد معركة احد) يحمل أحدهما صاحبه ولم يكن لهما ظهر ».. انظر قصة هذين الشابين العجيبة في كتابنا .. (غزوة أحد) ص ٢٥١».. كان عبدالله بن سهل شهد بدراً وأحداً مع رسول الله (ص) .

(١٤٠) انظر ترجمته فيما مضى من هذا الكتاب .

(١٤١) هو ثعلبة بن غنمة بن عدي بن سنان بن نابيء الانصاري الخزرجي . كان من الطليعة المباركة الذين شهدوا بيعة العقبة ، وكان أسلم ، وهو شاب صغير فكان هو ومعاذ بن جبل وعبدالله بن أنيس يغدون على أصنام بني سلمة في المدينة فيكسرونها ، شهد ثعلبة (بدراً) و (أحداً) استشهد يوم الخندق ، قتله هبيرة بن أبي وهب المخزومي .

نفر واحد وهو :

١ ــ كعب بن زيد(١٤٢) .

هؤلاء الشهداء الستة ذكرهم ابن اسحاق ، غير أن هناك شهيدين لم يذكرهما ابن اسحاق ، قُتِلا وهما يقومان بأعمال الاستكشاف لمعرفة تحركات جيوش العدوّ ، قتلتهما دورية لجيوش الأحزاب ، كانت تقوم بأعمال الاستطلاع بالقرب من المدينة .

وقد ذكر هذين الشهيدين ابن برهان الدين في كتابه (السيرة الحلبية) ج ٢ ص ١٠١ وهما :

١ ــ (سليط) ولم يزد في السيرة الحلبية غير هذا ، بل قال .. (سليطا) فقط .

٢ ــ سفيان بن عوف .

ولم يذكر ابن برهان الدين في كتابه هل هذان الشهيدان من المهاجرين أم من الأنصار ، والأقرب الى الصواب أنهما من الأنصار ، لأنه يستبعد (جداً) أن يرسل النبي (ص)

---

(١٤٢) هو كعب بن زيد بن قيس بن مالك بن كعب النجاري الخزرجي ، كان من السابقين في الاسلام، شهد بدراً، قال ابن اسحاق: أصابه سهم غرب (لا يدري من أين جاء) ، وقال الواقدي : قتله ضرار بن الخطاب الفهري ، وكان كعب هذا ، هو الرجل الوحيد الذي نجا (مع عمرو بن أمية الضمري) من مذبحة (بئر معونة) التي غدر فيها بنو عامر بسبعين من صحابة رسول الله (ص) فقتلوهم. (انظر تفصيل هذه المذبحة الرهيبة في أول هذا الكتاب).

من يستطلع له أخبار العدوّ ، في أرض هو ليس من أهلها ، لأن الانصار أدرى بتلك المناطق من المهاجرين ، فمن المستبعد أن يرسل النبي (ص) مهاجرياً للقيام بالاستكشاف في تلك المناطق .

وقد بحثت عن ترجمة لهذين الشهيدين في « الاصابة » و« الاستيعاب » « وطبقات ابن سعد الكبرى» ، فلم أجد لهما شيئاً .

وكل ما وجدته — مما يتعلق بهما — هو ما أورده ابن برهان الدين في كتابه (السيرة الحلبية) ج ٢ ص ١٠١ بقوله :

« وأرسل (اي النبي —ص—) سليطا وسفيان بن عوف طليعة للاحزاب ، فقتلوهما ، فأتي بهما رسول الله (ص) فدفنهما في قبر واحد ، فهما الشهيدان القرينان » .

قتلى لم يعرف عددهم

وعلاوة على هؤلاء الثمانية الذين استشهدوا من المسلمين ، فان هناك قتلى وجرحى آخرين من المسلمين ، أصيبوا (خطأ) في ليلة من ليالي الخندق .

فقد ذكر المؤرخون أن دوريتين لمسلمين خرجتا (ليلاً) لحراسة مشارف الخندق، فالتقتا — ولا يشعر بعضهم ببعض — فظنت كل دورية أن الأخرى من العدوّ ، فاصطدموا ، وكانت بينهم جراحة وقتل ، ثم نادوا بشعار الاسلام « حم لا ينصرون » فكف بعضهم عن بعض ، ولما بلغ الخبر ،

رسول الله (ص) قال : « جراحكم في سبيل الله ومن قتل منكم فإنه شهيد » .

إلا أن أحداً من المؤرخين لم يذكر عدد وأسماء القتلى أو الجرحى الذين أصيبوا في هذه الحادثة ، والله أعلم .

قتلى المشركين

أما قتلى المشركين في هذه المعركة . فهم أربعة فقط ، وكلهم من قريش ، وهم :

(آ) من بني عبد الدار رجل واحد ، وهو :

١ — منبّه بن عثمان بن عبيا .

(ب) ومن بني مخزوم رجل واحد ، وهو :

١ — نوفل بن عبدالله بن المغيرة ، قتله الزبير بن العوّام ، بعد اقتحامه الخندق بفرسه .

(ج) ومن بني عامر بن لؤيّ رجلان ، وهما :

١ — عمرو بن عبد ود ، قتله علي بن ابي طالب .

٢ — حسل بن عمرو بن عبد ود ، قتله علي أيضاً ، فيما رواه ابن هشام عن الزهري .

حديث القرآن عن المعركة

وقد تحدث القرآن الكريم عن معركة الأحزاب ، وتناول

مراحل هذه المعركة في عدة آيات من سورة الأحزاب بلغت سبع عشرة آية ، تبدأ بالآية التاسعة من سورة الأحزاب ، وتنتهي بالآية الخامسة والعشرين من نفس السورة .

وأول ما تحدث عنه القرآن هو نزول البلاء على المسلمين بوصول قوات الاحزاب ، وإنعام الله على المسلمين بدحر هذه القوات ، وتسليط العوامل الطبيعية عليهم وازعاجهم بجنود من عند الله لم يرها أحد، مما أدّى إلى إجبارهم على الرحيل عن المدينة وفك الحصار عنها ، فقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذكُرُوا نعمةَ اللهِ عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا » .

ويعني القرآن الكريم بالجنود الذين جاءوا لحرب المسلمين ، قريش وغطفان وبني قريظة ، اما الجنود الذين أشار القرآن الى أن الله أرسلهم لازعاج الاحزاب ، فقد ذكر كثير من أهل التفسير انهم الملائكة ، ولم يثبت أن الملائكة قاتلوا الأحزاب ، ولكنهم أُرسلوا للازعاج والتضييق .

قال الامام الشوكاني في (فتح القدير) ج ٤ ص ٢٥٦ .. قال المفسرون.. بعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها في بعض ، وأرسل الله عليهم الرعب ، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر ، تخويفاً

للأحزاب ، حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه : يا بني فلان هلمّ الي ، فاذا اجتمعوا قال لهم : النجاء النجاء . اهـ .

وقد جاء هذا التأييد الالهي للتضييق على الأحزاب وازعاجهم بعد أن محّص الله المؤمنين وصهرهم في مختبر المحن والمصائب التي أخذت بخناقهم وأحاطتهم من كل جانب ، فصمدوا لها وأثبتوا (عملياً) انهم – بايمانهم – أكبر من هذه المصائب والنكبات ، فقرروا مقاومة الغزو حتى النصر أو الفناء ، ومن هنا جاءهم النصر المفاجىء من عند الله جزاء صبرهم وثباتهم وايمانهم ويقينهم .

حديث القرآن عن تدهور الحالة

وتحدث القرآن الكريم عن تدهور الحالة بين المسلمين ، وانتشار الخوف والرعب والفزع بين صفوفهم نتيجة إطباق جيوش الاحزاب عليهم (بمساعدة يهود المدينة) من كل ناحية وإحكام الحصار عليهم بشكل مخيف رهيب ، فقال تعالى :

« إذ جاءوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم وإذْ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً »

إنها صورة الهول الذي روّع المدينة ، والكرب الذي شملها ، والذي لم ينج منه أحد من أهلها ، وقد أطبق عليها

المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها ، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب ، وانما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب ، وظنها بالله ، وسلوكها في الشدة ، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج ، ومن ثم كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقاً ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسماً لا تردد فيه (١٤٣)

حديث القرآن عن المنافقين

كما تحدث القرآن الكريم عن مواقف التخريب والارجاف التي اتخذها المنافقون الموجودون في جيش المدينة ، والتي بها ساهموا في مضاعفة الكرب والبلاء النازل بالنبي وصحبه ، فقال تعالى :

« واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا » .

وذلك أن بعض المنافقين ، وقفوا في تلك الساعات الحاسمة التي عمّ فيها الخوف والرعب بين المسلمين ، وقف هؤلاء المنافقون يسخرون من وعد الله ورسوله المؤمنين بالنصر ، فقالوا .. كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا الآن لا يستطيع الذهاب الى الغائط (خوفاً) .. ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا .

---

(١٤٣) في ظلال القرآن (تفسير) لسيد قطب ج ٢١ ص ١٤٠ .

وتحدّث كذلك عن طائفة المنافقين الذين ـ عندما اشتد الكرب واستحكمت حلقات البلاء ـ انطلقوا يشيعون روح الهزيمة والفرار بين الجند ، بدافع الرغبة في نشر الفرقة والتخاذل داخل صفوف الجيش الاسلامي ، فقال تعالى :

« واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثربَ لا مُقَامَ لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة ، إنْ يريدون إلاّ فرارا ، ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتَوْهَا وما تلبّثوا بها إلاّ يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يُولّون الأدبارَ وكان عهدُ الله مسؤولا »

ويستمر القرآن الكريم في التنديد بهؤلاء المنافقين الذين سلكوا ذلك المسلك الشائن يوم الأحزاب ، فيقول :

« قل لن ينفعَكم الفِرارُ ، إنْ فررتم من الموتِ أو القتلِ ، وإذاً لا تُمتّعُون إلا قليلاً ، قل من ذا الذي يعصمكم من الله إنْ أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيرا »

ويتحدث القرآن الكريم عن طبيعة المنافقين الخبيثة المخربة ، طبيعة القعود عن الجهاد ، وطبيعة تحريض الغير على الانفضاض من حول النبي (ص) والانضمام الى صفوف هؤلاء المنافقين المعوّقين ، كما يصوّر حالة الجبن والخَوَر المتأصلة في نفوسهم ، عندما تكونُ الحرب ، مع الانتفاش وسلاطة اللسان والتشدق

بقارص الكلام في حالة الأمن ، فيقول :

« قد يعلَمُ الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ، ولا يأتون البأسَ الا قليلا ، أشحةً عليكم ، فاذا جاء الخوفُ رأيتَهم ينظرون إليك تدُور أعينهم كالذي يُغشَى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف ، سلَقُوكم بألسنة حِداد أشحةً على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا » .

قال في ظلال القرآن : فخرجوا من الجحور وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة ونفشوا بعد الانزواء ، وادّعوا في غير حياء ما شاء لهم الادّعاء ، من البلاء في القتل والفضل في الأعمال والشجاعة والاستبسال .

وهذا النموذج من الناس لا ينقطع في جيل ولا في قبيل ، فهو موجود دائماً ، وهو شجاع فصيح بارز ، حيثما كان هناك أمن ورخاء .

وهو جبان صامت منزو ، حيثما كان هناك شدة وخوف ، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير لا ينالهم منه. إلا سلاطة اللسان. ا هـ .

ويتحدث القرآن كيف كان الفزع والفشل مسيطراً على قلوب المنافقين ومزيلاً لرشدهم وصوابهم – حتى بعد انصراف جيوش الأحزاب – الى درجة أنهم كانوا يعتقدون أن هذه الجيوش لا تزال في معسكراتها حول المدينة ، بالرغم

من أنها قد انسحبت نهائياً .

وكيف أن هؤلاء المنافقين المحسوبين على المسلمين ، بالرغم من تسللهم من صفوف الجيش ساعة الشدة والروع ، وهروبهم من الميدان، وبُعدهم عن خطر القتال ، كانوا لشدة جبنهم يتمنون أنهم من أعراب البادية وأن لا علاقة تربطهم بالمدينة ، التي كانت الهدف الاول للغزو ، وكيف أنهم كانوا يسألون في فزع وقلق (كما يسأل الجبان الرعديد الذي يحسب كل شيء تحرك هو ضده) عن أخبار نتيجة القتال الدائر بين المسلمين والأحزاب ، فقال تعالى :

« يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإنْ يأت الأحزاب يودّون لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلا » .

حديث القرآن عن مواقف المسلمين المشرفة

ثم ينتقل القرآن من الحديث عن الصورة الكالحة الرديئة البغيضة التي كان عليها المنافقون منذ نشوب معركة الأحزاب حتى نهايتها ، الى الحديث عن الصورة الوضيئة المشرقة الرائعة التي ظهر فيها النبي الأعظم (ص) والصفوة من أصحابه يوم أن حاقت بهم المحن وتحالفت ضدهم البلايا وتقاطرت عليهم الرزايا ، فصمدوا في وجهها وثبتوا أمام زعازعها ثبوت الرواسي ، والتي بدلاً من أن تكون هذه المحن والبلايا لهم مصدر اضطراب وتضعضع وانهيار ، كانت مصدراً

للطمأنينة والثقة والايمان واليقين والاستبشار بنصر الله .

وقد بدأ السياق بذكر الرسول الاعظم (ص) وهو القدوة الكاملة في الشجاعة والثبات والايمان وقيادة الأمم الى شاطىء النصر والظفر عندما تضطرب الأحوال وتتقاطر المحن والرزايا ، فقال تعالى :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وَذَكر الله كثيراً » .

« ولمّا رأى المؤمنون الاحزاب ، قالوا : هذا ما وعَدَنا اللهُ ورسولهُ ، وصدَقَ اللهُ ورسولُهُ وما زادهم إلا ايماناً وتسليما » .

ويتحدث القرآن هنا عن هذا النموذج من الرجال الذين (لصلتهم الوثيقة الصادقة بالسماء) لم يزدهم ذلك الكرب الذي نزل بهم والزلزال المخيف الذي أصابهم في غزوة الاحزاب ، إلاّ صلابة في إيمانهم وصدقاً فيما عاهدوا الله عليه من الصبر والثبات والتضحية في سبيله حتّى الموت ، عكس ذلك النموذج الفج الهلوع المهزوز الجبان فريق المنافقين الذي لا يقف عند عهد ولا يوفي بميثاق ، فقال تعالى :

« من المؤمنين رجال صدَقُوا ما عاهدوا اللهَ عليه فمنهم من قَضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا » . وبعضهم يرى أن هذه الاية نزلت في أنس بن النضر (رض) ، وأصحابه الذين ثبتوا مع رسول الله (ص) في معركة أُحُد ، فقد روى

الإمام احمد — باسناده — عن ثابت قال : « عمّي أنس بن النضر — سميت به — لم يشهد مع رسول الله (ص) يوم بدر ، فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله (ص) غبت عنه ، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله (ص) — ليرين الله عز وجل ما أصنع ، قال : فهاب أن يقول غيرها .

فشهد مع رسول الله (ص) يوم أُحد ، فاستقبل سعد بن معاذ (رض) فقال له أنس : يا أبا عمرو أين واهاً لريح الجنة ، اني أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتّى قتل ، قال : فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته — عمّي الرّبيع ابنة النضر — : فما عرفت أخي إلاّ ببنانه ، قال فنزلت الآية « من المؤمنين رجال صدَقُوا ما عاهدوا الله عليه » الآية ... قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم .

وعلى أيّ كان الأمر فإن هذه الآية ينطبق ما جاء فيها من وصف على ذلك النوع من الرجال الأبرار الذي ثبتوا بجانب نبيهم في كل المواقف ووفّوا بعهدهم الذي عاهدوا الله عليه سواء كانوا أنس بن النضر وأصحابه من أبطال أُحد ، أم الصفوة المختارة من صحابة محمد (ص) الذين ثبتوا معه في معركة الأحزاب .

ثم يعقب القرآن الكريم على تلك المشاهد المختلفة والصور المتباينة التي واكبت معركة الأحزاب بأنّ ما شاهده الناس من أهوال وكروب ومحن إنما هو للابتلاء والاختبار ، لكي يظهر الصادق على حقيقته (كما هو) فينال جزاءه الطيب عند الله، ويتبين المنافق الكاذب ويظهر أمام الناس (كما هو) ، لكي ينال ما يستحق من عذاب ونكال ، فقال تعالى معقباً على ذكر تلك الاحداث :

« ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إنْ شاءَ أو يتوبَ عليهم إنّ الله كان غفوراً رحيما » .

ثم يختم الحديث عن هذا الحدث الضخم الرهيب (غزوة الأحزاب) بأن الله دائماً مع المؤمنين الصادقين الصابرين لا يُسلِمُهم لعدوّهم ولا يمكّنه منهم (ما داموا على صلةٍ وثيقةٍ بالله وعلى يقين بصدق وعده) بل ينصرهم على هذا العدوّ مهما كانت قوته وجبروته ، كما حدث للنبي في غزوة الأحزاب المزلزلة هذه ، فقال تعالى :

« وردّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً »

كما تحدث القرآن الكريم عن تكاسل المنافقين وأعمالهم التخريبية ، أثناء حفر الخندق ، وكيف أنهم كانوا ، يتركون العمل في الخندق دونما استئذان من النبي القائد (ص) فندّد

القرآن الكريم بعملية التسلل التي كانوا يقومون بها تهرباً من المشاركة الفعالة في حفر الخندق ، الذي قررت قيادة المدينة أن يكون خط الدفاع الرئيسي عن العاصمة ، كما أثنى (في الوقت نفسه) على المؤمنين الذين لا يتركون العمل في الحفر إلاّ عندما تدعو الحاجة الماسة الضرورية ، والذين لا يتركون العمل (مع هذا) إلاّ بعد أخذ إذن خاص من النبي القائد (ص) فقال تعالى :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إنّ الله غفور رحيم » .

ثم وجه تحذيره للمنافقين فقال جل وعلا « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » (١٤٤) .

قال محمد بن اسحاق في سبب نزول هذه الآيات ، إنه لما كان تجمع قريش والأحزاب في غزوة الخندق (الأحزاب) ، فلما سمع بهم رسول الله (ص) وما جمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول

---

(١٤٤) النور آية ٦٢ و ٦٣ .

الله (ص) ترغيباً للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه فدأب ودأبوا .

وأبطأ عن رسول الله (ص) وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله (ص) ولا إذنه ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها ، يذكر ذلك لرسول الله (ص) ويستأذنه في اللحوق بحاجته . فيأذن له ، فاذا قضى حاجته رجع الى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير واحتساباً له ، فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين « انما المؤمنون ... الآية » ثم قال تعالى يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ، ويذهبون بغير اذن من النبي (ص) « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ... الآية » . اهـ .

الفَصْلُ السَّادِسُ

نظرة ... وتحليل

مما لا جدال فيه أن معركــة الاحزاب كانت– بالنسبة للكيان الاسلامي الوليد بأكمله – معركة حياة أو موت .

كما أنها كانت – أيضاً – (بالنسبة للذين خطّطوا لها وقاموا بها) الأمل الوحيد في استعادة هيبتهم الضائعة وسلطانهم المفقود ، وذلك بالقضاء على المسلمين ومحو كيانهم من الوجود.

ولهذا كانت غزوة الاحزاب أضخم عمل عسكري تقوم به اليهودية والوثنية ضد الاسلام في العهد النبوي .

لقد سبقت معركة الأحزاب (من جانب الغزاة) استعدادات هائلة وتنظيمات دقيقة ، ولذلك جاءت هذه الغزوة اكثر تنظيماً وأدق تنسيقاً من كل الغزوات والحملات التي قام بها أعــداء الاسلام ضده ، فكانت قوات العدوّ في هذا الغزو أضخم قوة عسكرية يواجهها المسلمون في عقر دارهم ، بل كانت أعظم قوة غامرة غازية يقف أمامها المسلمون بنسبة واحد لعشرة .

دقة موقف المسلمين

لقد كان كل شيء مادي يوحي (على نحو ساحق) بـأن الغلبة ستكون للأحزاب على المسلمين وأن نهايتهم في (حساب التقدير العسكري المجرد) أمر مفروغ منه ، وذلك للأسباب الآتيـة :

١ .. قوة العدو الساحقة المتفوقة في كل شيء مادي :

فقد أطبقت على المدينـة عشرة آلاف مقاتل من العرب القرشيين والغطفانيين ، مجهزين أحسن تجهيز ، وكلهم غيظ وحنق على المسلمين ، يساند هذه القوات العسكرية الضخمة رأس المال اليهودي الطاغي ويخطط لها الفكر الاسرائيلي الماكر الخبيث .

يقابل كل هذه القوات الضخمة في الجانب الآخر (المسلمين) ألف مقاتل فقط هم دون هذه القوة في كل شيء مادي سوى الايمـان .

٢ .. نقض اليهود للعهد :

وبالاضافة الى الخطر المدمر الذي وقف جيش الاسلام بأكمله لمواجهته ، والمتمثل في هذه الحشود القرشية والنجدية الهائلة ، تعرض هذا الجيش لرجة مزلزلة مخيفة وهي غدر يهود بني قريظة ، بنقضهم العهد وانضمامهم (وهم وراء خطوط جيش الاسلام) الى الغزاة في تلك الساعات الرهيبة الحاسمة .

فقد كانت هناك معاهدة دفاع مشترك بين المسلمين ويهود

بني قريظة كان المفروض أن يكون اليهود (بموجبها) جزءاً من الجيش المدافع عن المدينة .

ولكن اليهود بدلاً من أن يشدوا من أزر حلفائهم المسلمين فيقفوا بجانبهم ضد الغزاة المعتـــدين انضموا الى هـــؤلاء الغزاة وصاروا (وهم حوالي الف مقاتل) قوة معادية للجيش الاسلامي تتحفز للانقضاض عليه من الخلف ، فكان هذا العمل الشائن من اليهود ضربة موجعة وتهديداً خطيراً لا تقل فعاليته عن فعالية القوات الرئيسية الغازية .

لأن التهديد المفاجيء من الخلف لأي جيش (وهو في حالة مواجهة للعدوّ) قد يكون أشد خطراً عليه من القوة الرئيسية التي يواجهها .

وفعلاً لقد كان لنقض اليهود العهد وانضمامهم الى الغزاة أسوأ الأثر بين صفوف جيش المدينة الصغير ، حيث تأزمت الحالة واستحكمت المحنة وتحرَّج الموقف الى درجة فكّر (معها النبي القائد ﷺ) في أن يعقد صلحاً منفرداً مع قادة غطفان ينصرفون بموجبه عن المدينة على أن يُعطَى لهم مقابل ذلك ثلث ثمار المدينة ، وذلك سعي من النبي ﷺ لتخفيف الضغط العسكري الخانق الذي يتعرض له جيش الاسلام .

٣ .. عنصر المنافقين والمرجفين الموجودين داخل جيش الاسلام كجزء منه :

فقد كان هذا العنصر من أشد البلايا على جيش الاسلام

المدافع عن المدينة ، حيث ظهر هذا العنصر الخبيث على حقيقته والمسلمون في أقسى درجات المحنة .

فبعد أن نقض اليهود العهـــد ، وآذنوا المسلمين بالحرب تحركت عوامل الخِسَّة والدناءة المتأصلة في نفوس هؤلاء المنافقين الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر ، فأخـــذوا – في تلك الساعات الرهيبة التي يجتازها الكيان الاسلامي – ينسحبون من الجيش ، على شكل تسلل ، واستئذان مشبوه (أحياناً) ، مُحْدِثين بذلك تصدُّعات خطيرة في معنويات الجند المدافع عن المدينة .

ولم يَكْتَفِ المنافقون بذلك بـــل راحوا يُشيعُون روح الهزيمة في الجيش ، ويعملون (علناً) على إشاعة الخوف والفزع داخل صفوفه ، حتى أخذ عدده يتناقص الى أن وصل في الليالي الأخيرة من المعركة الى ثلاثمائة مقاتل (فقط) (١٤٥) ، الأمر الذي ضاعف من متاعب قيادة المدينة الى درجة لا مزيد عليها .

٤ .. العوز وحالة الفقر مع برود الطقس وشدة الرياح :

وبالاضافة الى هذه الأمور الخطيرة المخيفة التي واجهتهـــا قيادة المدينة ، كان عام الأحزاب عام مجاعة وَجـــدْب بالنسبة للمسلمين ، وكان الفصل فصل برد قارس ورياح هوج ، وقد روى الثقاة من المؤرخين أن كثيراً من المسلمين ، يمر بهم اليوم

---

(١٤٥) انظر في هذا الكتاب حديث حذيفة وقصة دخوله معسكر الاحزاب في آخر ليلة من ليالي الغزو .

واليومان لا يذوقون فيهما طعاماً ، وأن النبي ﷺ – كما روى البخاري – كان يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع .

بينما كانت جيوش الأحزاب – من الناحية الأخرى – مزوّدة بكل المؤن الغذائية اللازمة ، ويقف – مع هذا – من ورائها اليهود (وهم ملوك المال) يسدّون بما لديهم من ثروات طائلة أي نقص يحدث في تموين جيوش الغزاة .

وقد رأينا (فيما مضى من هذا الكتاب) كيف كان بنو قريظة يرسلون القوافل محمَّلة بالمؤن الى جيوش الأحزاب ، وكيف وقعت إحدى هذه القوافل في أيدي إحدى دوريات جيش المدينة فصادرتها ، وكانت عشرين بعيراً، فخفَّف الله بأحمالها من ضائقة المسلمين .

كل هذه العوامل والأسباب كانت توحي (لأول وهلة وعلى نحو لا يقبل النقاش) بأن النصر الساحق سيكون حليف الأحزاب ضد المسلمين ، وأن المدينة لا بد وأن تصبح في قبضة هذه الجيوش الغازية الضخمة الغامرة .

الأمر الذي غرّر ببني قريظة فحملهم على ارتكاب جريمة الخيانة البشعة تلك ، إذ نقضوا العهد وانضموا الى الجيوش الغازية ضد المسلمين ليأخذوا نصيبهم من ثمار النصر الذي لم يكن لديهم أدنى شك (إلاّ زعيمهم كعب بن أسد) بأنه سيكون حليف الأحزاب .

أسباب فشل الأحزاب

فما هي (إذن) الأسباب التي حالت دون تحقيق هـــذا النصر الذي توفرت للأحزاب كل أسبابه المادية ؟؟ . ومـــا هي الأسباب التي جعلت هذا النصر المتوقع يتحول الى هزيمة منكرة ، حيث مني هذا الغزو الكبير بذلك الفشل الذريع الذي يعتبر (على الاطلاق) أعظم فشل يُصاب به اليهود والمشركون في تاريخ الصراع بين الاسلام وأعدائه في الجزيرة العربية ؟ ؟

الأسباب الرئيسية :

يمكننا تلخيص الأسباب الرئيسية التي حالت دون تحقيق ذلك النصر وأدّت الى ذلك الفشل الذريع ، كما يلي :

السبب الاول .. حفر الخندق :

فقد كان نجاح قيادة المدينة في حفر هذا الخندق (كخط أول للدفاع عن المدينة) مكيدة عسكرية فوجئت بها قيادةالاحزاب ، بل وصعقت لها ، لأن نجاح المسلمين في حفرالخندق قبل وصول جيوش الاحزاب نسف خطتهم (المرسومة لاحتلال المدينة) من الاساس .

لقد كانت قيادة الأحزاب (عندما وضعت نصب عينيها احتلال المدينة كهدف اساسي للغزو) تعتمد – لتحقيق هذا الهدف – على تلك الحشود الكبيرة التي جمعتها والتي بلغت (إزاءها) نسبة قوة المسلمين واحداً لعشرة ، وكانت تقصد

من وراء هذا العدد الغامر الى التغلب على الشجاعة الفائقة التي تميّز بها المسلمون ، وذلك عن طريق الالتحام معهم في معركة فاصلة ، التي مهما كانت شجاعة المسلمين فيها فـإن عامل التفوق العددي الى الدرجة التي وصلت اليها جيوش الأحزاب يكون له أثره الذي لا يستهان به في كسب المعركة ، وقديماً قالوا : الكثرة تغلب الشجاعة .

ولكن قيـام المسلمين بحفر الخندق نسف خطة الأحزاب وقلبها رأساً على عقب ، إذ حال هذا الخندق بين جيوش الأحزاب الهائجة المتدفقة وبين الالتحام مع عسكر الاسلام في معركة فاصلة كما تريد قيادة الاحزاب وكما هي الخطـة المرسومة للمعركة .

فقد جمّد وجود الخندق نشاط تلك الآلاف المؤلفة من جيوش الأحزاب وشلّ حركتها ؛ حيث لم تستطع مقاتلة المسلمين إلاّ عن طريق تسللية انتحارية عبر الخندق ، وهذا العمل (مهما تكرر) لايؤدي الى النتيجة المرجوة من الغزو ،..

وقد جرّبت قيادة الأحزاب عملية القفز — عبر الخندق — بالخيل لعلها تستطيع (إن نجحت) أن تقيم معابر واسعة تمر منها مشاة الأحزاب (تحت حماية سلاح الفرسان القرشي) الى ناحية المسلمين ، ولكن هذه التجربة باءت بالفشل ، إذ كان مصير الفرسان الذين قاموا بها إمّا القتل وإمّا الفرار الى حيث أتوا ، وهكذا ظلت قيادة الأحزاب حائرة لا تدري

ماذا تصنع إزاء هذه المكيدة الحربية التي لجأ اليها المسلمون ، فشلُّوا بها حركة جيوش الأحزاب وعطلّوها عن الحركة كما تريد .

التذمر في صفوف الأحزاب

وقد نتج عن تجميد جيوش الأحزاب وعدم قدرتها على القيام بعمل حاسم في معركة فاصلة (بسبب الخندق) تذمر داخل جيوش الأحزاب لأنَ جُلّ هذه الجيوش من الأعراب (البدو) الذين ألفوا في حروبهم (دائماً) المعارك الخاطفة التي لا تزيد على يوم أو بعض يوم وما كانوا يعرفون المرابطة أمام الخنادق كل هذه المدة التي رابطوها حول المدينة .

ولهذا فقد ثقل عليهم التجمد وراء الخندق دونما قتال فملُّوا المرابطة على غير جدوى ، الأمر الذي لاحظته قيادة الأحزاب ، فأخذت تشعر بالحرج ، وصارت (نتيجة لذلك) تفكر في الانسحاب ، ولكن التزامها لبني قريظة بعدم فك الحصار عن المدينة إلاّ بعد القضاء على المسلمين جعلها تتريث لأنها كانت تخشى اللوم إنْ هي خلّت بين اليهود وبين المسلمين الذين سيحاسبونهم حساباً عسيراً على غدرهم وخيانتهم ، دونما شك .

ولهذا فإن قيادة الأحزاب لم تتردد في الانسحاب وترك اليهود وشأنهم عندما حدث ما يبرر ذلك (ولو في الظاهر) وهو

إحجام اليهود عن المشاركة في الهجوم على المسلمين إلاَّ بعد الحصول على رهائن من رجالات الأحزاب يحتّزونها عندهم حتى يتّم القضاء على المسلمين .

وهكذا فان نجاح المسلمين في إقامة الخندق كخط دفاع (اول) لصد الغزاة عن المدينة كان من اكبر العوامل التي أدَّت الى فشل الغزو ، بل هو أكبر هذه العوامل إذا ما نظرنا الى الأمر من الزاوية العسكرية المجرَّدة .

السبب الثاني .. خدعة نعيم بن مسعود

مما لا جدال فيه أن إحداث الفرقة والشقاق في صفوف أي جيش محارب هو من أكبر الاسلحة التي توْتي ثمارها لصالح خصوم هذا الجيش .

وقد تفعل الفرقة والشقاق بالعدو ما لم تفعله جيوش جرَّارة مزودة بأحدث الأسلحة وأقواها ، ولهذا فان النبي القائد — وهو ذو الخبرة الواسعة والباع الطويل في السياسة العسكرية — طلب من نعيم بن مسعود (وكان معروفاً بالدهاء والمكر بين العرب) أن يستخدم هذا السلاح — سلاح الفرقة والشقاق — ضد الأعداء المتحالفين في هذا الغزو المخيف ، إذ قال له : — عندما أعلن إسلامه سراً ودون أن يعلم به احد من قومه — « إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة » .

وقد نجح نعيم بن مسعود في استخدام سلاح الفرقة والشقاق

ضد الأعداء نجاحاً كاملاً ، إذ استطاع أن يحطم بهذا السلاح وحدة الاحزاب وينسف اتحادهم مع اليهود من الاساس ، كما هو مفصل فيما مضى من هذا الكتاب .

فكان هذا النجاح عاملاً مهماً في تعجيل فكّ الحصار عن المدينة وإنهاء ذلك الغزو الكبير بانسحاب جيوش الأحزاب الجرارة على تلك الصورة المخزية .

فاقناع نعيم بن مسعود يهود بني قريظة بعدم التعاون مع الأحزاب إلا بعد الحصول على الرهائن منهم ، فتح الطريق امام قريش وغطفان للتعجيل بالانسحاب ، وحفظ لهم ماء الوجه ، اذ اتخذوا من عدم التعاون هذا مبرراً لانسحابهم وتَرْكِ اليهود وحدهم يلقون مصيرهم على ايدي المسلمين ، الأمر الذي كانت قيادة الأحزاب تتحرج من فعله ، قبل أن ترفض قريظة التعاون معهم .

وقد سمعنا فيما مضى من هذا الكتاب كيف حمّل أبو سفيان (قائد عام جيوش الأحزاب) بني قريظة مسئولية ما حــدث إذ قال (وهو يأمر بالانسحاب) : إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره .

السبب الثالث .. العقيدة .

وبالاضافة الى العاملين الحاسمين في فشل الغزو (من وجهة

النظر العسكرية المجردة) فان هناك — من الناحية المعنوية — عاملاً مهماً (وقد يكون أهم العوامل) في إحباط هذا الغزو الخطير ، وهو العقيدة .

فقد كانت العقيدة عند المسلمين الصادقين هي السلاح الرئيسي الذي يعتمدون عليه في كل المعارك ، ولهذا فان العقيدة — عند المسلمين — تأتي في المقام الأول بين العوامل والدواعي التي تجعلهم يصمدون ويثبتون ، حيث يكون الفرار أو الاستسلام (في حساب المقاييس العسكرية المادية) أمراً لا مناص منه ، بل ولا لوم على فاعليه .

وما يمكن أن نقوله بالتفصيل عن العقيدة وأثرها في نفوس المسلمين وإسهامها (بدرجة أولية ممتازة) في انتصارات المسلمين الحاسمة ، قد قلناه مفصلاً في ختام كل من كتابينا (غزوة بدر الكبرى .. وغزوة أحد) تحت هذا العنوان (نظرة .. وتحليل) فليرجع اليه من يريد .

إلاّ ان العقيدة في معركة الأحزاب قد كان دورها (بالنسبة للمسلمين) أهم الأدوار على الأطلاق ، حيث كانت هي السلاح الرئيسي بل والوحيد في مواجهة الغزو وإحباطه .

فقد كان سلاح العدوّ الفعال الوحيد في هذه الغزوة هو الارجاف والارهاب والترويع والتخويف والخيانة والغدر والنكث والارهاق ... وهو سلاح مفزع مخيف (حقاً) بالنسبة لألف مقاتل تناقصوا حتى لم يبق منهم في آخر ليلة من ليالي هذا

الغزو الرهيب إلاّ ثلاثمائة مقاتل ، يحيط بهم أحد عشر الف مقاتل من كل جانب .. سلاح مخيف رهيب حقاً ، لا يقف في وجهه إلا سلاح رباطة الجأش وقوة الأعصاب والاحتفاظ برجاحة العقل وهدوء النفس وثبات الجنان والثقة بنصر الله تعالى.

وهذه العوامل ذات الأثر الحاسم في مقاومة ذلك السلاح الرهيب المخيف الذي تنخلع له القلوب ، لا تتوفر إلا لمن يحمل مثل تلك العقيدة الصافية السامية ، عقيدة الاسلام ، التي جعلت سيد الأوس الشاب (سعد بن معاذ) يقول للنبي ﷺ — عندما حاول عقد صلح منفرد مع قبائل غطفان ، مقابل ثلث ثمار المدينة (رحمة بجيشه الصغير المحصور) .. والله لا نعطيهم إلاّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

لقد قال هذا الشاب السيد المؤمن هذه الكلمة الخالدة التي رفض بها الصلح مع غطفان ، قالها والمسلمون في أعلى درجات الكرب والضيق ، قد أخذت المحنة بتلابيبهم وطوّقتهم الرزايا والخطوب وأحاطتهم من كل جانب .

رفض سيد الأنصار الشاب فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان على تلك الصورة ، مع أن هذه الفكرة التي استشار النبي الأنصار للموافقة عليها ، هي (في عرف السياسة العسكرية) فكرة صائبة لا غبار عليها ، يلجأ اليها القادة العسكريون ويستخدمونها لتخفيف مؤونة الحرب على جيوشهم حتى اليوم .

لأن تشتيت شمل العدو وإضعاف قوته وتفريق كلمته بأية

وسيلة ، لا يغيب عن بال أي قائد عسكري مسئول في كل الحروب بلا استثناء ، ولكن قوة العقيده الراسخة البنّاءة التي جاء بها هذا النبي الكريم جعلت قادة الأنصار (وهم العمود الفقري لجيش المدينة) يستأذنون نبيهم في رفض فكرة الصلح هذه والاستمرار في المقاومة مهما كانت النتائج .

انحلال العقائدي عند الأحزاب

وإذا كان موقف سعد بن معاذ وقادة الأنصار قد أوضح لنا الصورة الجلية الواضحة عن فعـــالية سلاح العقيدة في جيش الاسلام الصغير ، ومتانة هذه العقيدة وصلابتها الى الحد الذي جعل المؤمنين بها يقفون ذلك الموقف الرائع ، فإن مجيء قادة غطفان (وهـــم العمود الفقري لجيوش الأحزاب) الى مقر القيادة النبوية (سراً) ومدّ يدهم — من وراء ظهر قريش — لعقد صلح منفرد مع المسلمين مقابل ثلث ثمـــار المدينة ، يعطينا الدليل القاطع على انحلال العقائدي الكامل داخل جيوش الأحزاب العظيمة، وأن هذه الآلاف المؤلفة، قد جاءت يسودها التفكك لأنها ليست لها رابطة موحدة تجمعها على عقيدة راسخة صادقة تصلها بالله ، فتستعذب الموت في سبيلها ، كما هو الحال عند المسلمين .

وإنما جاءت هذه الآلاف المؤلفة تحدوها أهداف رخيصة محدودة ضيقة، أهداف لا يمكن أن تكون أساساً لنضال أو قاعدة

لكفاح .. أهداف لُحمتها وسداهـــا الحصول على ما يمكن الحصول عليه من المغانم المادية بأية طريقة كانت ، ثم العودة (بسرعة) الى خيامها ومسارحها .

مقارنة بين الأحزاب والمسلمين

وبالمقارنة بين هذه الأهداف الرخيصة المحدودة التي جاءت الأحزاب تقاتل في سبيلها ، وبين تلك العقيدة الشمّاء التي يقاتل المسلمون في سبيلها ، والتي وقفت (في ظل رايتها) تلك القلة المؤمنة لتواجه تلك الحشود الهـــائلة ، يتضح الفارق العظيم ، ويتضح أي سلاح فعال سلاح العقيدة هو ، عندما تكون عقيدة بنّاءة سليمة .

إنه لولا العقيدة التي تسلّح بها المسلمون في تلك الظروف الرهيبة المزلزلة ، ما استطاعوا أن يثبتوا أمام تلك الحشود الهائلة التي بلغت عشرة أضعاف المسلمين ، ذلك الثبات الذي ظل (على كر العصور) مضرب الامثال .

لقد كان باستطاعة جيوش الأحزاب الجرارة (لولا الخواء العقائدي الذي يسيطر عليها) أن تسجل على جيش المدينـــة الصغير ، نصراً حاسماً حتى مع وجود الخندق ، لأن الخندق لا يمكن أن يحول بينها وبين اقتحام المدينة على أية صورة من الصور ، لا سيما وأنها تمتاز على المسلمين بذلك التفوق الساحق في العدد .

حقيق ، أن اقتحام الخندق لاحتلال المدينة يتطلب تضحيات لا يستهان بها ، وما كانت جيوش الأحزاب لتبخل بمئات من القتلى لاقتحام المدينة ، لو كان باعث غزوها على مستوى الباعث العقائدي الذي وقف المسلمون (في ظله) يدافعون عن المدينة ذلك الدفاع الرائع .

ولكن لما كان الباعث الحقيقي لحشد هذه الجيوش حول المدينة هو ذلك الباعث المادي الضحل الرخيص ، المتمثل في التمكن من السلب والنهب فحسب ، فإنه من البديهي أن تحجم هذه الجيوش عن الاقدام على مثل هذا العمل الذي يتطلب الاقدام عليه بذل المهج والأرواح بسخاء كبير .

ولو كان الأمر على العكس ، وكان المسلمون هم الذين جاءوا يقودون تلك الجيوش الجرارة التي جاء بها الأحزاب ، لما وقف الخندق حائلاً بينهم وبين احتلال المدينة ، بل لاقتحموه في لحظات ، كما حدث منهم ومن أبنائهم (مرات ومرات) في الشام والعراق عندما كان الفرس والرومان يخندقون على أنفسهم ، وهم أقوى سلاحاً واكثر عدداً من المسلمين .

حصيلة الغزو العكسية

اتضح فيما مضى من هذا الكتاب أن المخطط الذي خرج به زعماء اليهود من خيبر والذي بموجبه تم تحشيد تلك الجيوش

الجرّارة من قريش وغطفان يهدف (في الدرجة الاولى) الى إبادة المسلمين إبادة كاملة وهدم كيان الاسلام من الأساس، يشاطرهم في ذلك زعماء قريش وقادة غطفان.

ولكن ما هي النتائج التي جناها قادة اليهود وقريش وغطفان كحصيلة لهذا الغزو الكبير المنظم المخيف؟.

النتائج كانت – بالتأكيد – عكسية مائة في المائة، وهي تتلخص فيما يلي:

١.. لقد منيت جيوش الأحزاب بهزيمة شنعاء لم تُمْنَ بمثلها قريش وغطفان واليهود في تاريخهم الطويل السابق واللاحق.

فقد جنى الأحزاب (كثمرة لهذا الغزو الكبير) تلك الهزيمة المنكرة وذلك الفشل الذريع، بدلاً من خضد شوكة المسلمين وهدم سلطانهم ونسف كيانهم.

فانحدرت هذه الهزيمة بسمعة قريش وغطفان العسكرية الى درجة لم يستطع معها أي من هذه القبائل (وهي أقوى قبائل الجزيرة على الاطلاق) مجرّد التفكير في غزو المسلمين، فكانت لذلك غزوة الأحزاب هذه آخر عملية غزو تقوم بها الوثنية العربية ضد الاسلام في جزيرة العرب.

سمعة المسلمين بعد غزوة الأحزاب

بينما ارتفعت (من ناحية أخرى) سمعة المسلمين العسكرية – بعد هذه المعركة – حتى بلغت الذروة، الأمر الذي

جعلهم (حتى سقوط آخر معقل لليهودية والوثنية في جزيرة العرب) أسياد الموقف ، يغزون ولا يقدر أحد على غزوهم .

٢ .. أما حصيلة اليهود من هذا الغزو الذي هو من صنعهم ونتيجة تفكيرهم ، فقد كانت خسارة أفدح من خسارة الوثنيين في نجد والحجاز .

فإن هؤلاء القرشيين والنجديين إذا كانوا قد خسروا هيبتهم العسكرية فلزموا الهدوء والسكينة حتى دخلوا فيما دخل فيه العرب من اعتناق الاسلام بعد احتلال مكة من قبل قوات المسلمين ، فإن اليهود لم تبق لهم أية هيبة عسكرية حتى يخسروها ، ولكن حصتهم من ثمرة هذا الغزو الذي أثاروا عواصفه ، كانت تصفية العنصر اليهودي في يثرب ، بإبادة كل رجال يهود بني قريظة في المدينة ، وهم ثمانمائة مقاتل ، وسبي نسائهم وذراريهم وهي النكبة المروّعة التي كان اليهود قد أعدّوا العدة (بالاتفاق مع الأحزاب) لإنزالها بالمسلمين . (١٤٦)

ولم تتوقف نكبة هؤلاء اليهود المجرمين على محو ما تبقى لهم من كيان في يثرب ، كحصيلة لأعمالهم الشريرة ، بل امتدت هذه النكبة الى موطن الإجرام ووكر التآمر (خيبر) التي رُسِمَ فيها مخطط ذلك الغزو الرهيب .

فقد كانت حملة الأحزاب المخيفة درساً وَعَتْهُ قيادة المدينة

---

(١٤٦) سيكون موضوع كتابنا الرابع من هذه السلسلة هو (غزوة بني قريظة) ان شاء الله .

وأيقنت على أثره أن لا مناص من ضرب قواعد العدوان في خيبر ، والتي إن لم تضرب وتحطّم سيظل الكيان الاسلامي عرضة لخطر التآمر والعدوان في كل لحظة .

لا سيما وأن اليهود يملكون من المال الوفير المكنوز (والمال ذو سلطان قاهر) ما يمكنّهم من إثارة أية حرب يريدون إثارتها ضد المسلمين .. ولهذا قامت المدينة — بقيادة النبي الأعظم — ﷺ — بعملية غزو واسعة ضد اليهود في خيبر حتى سقطت في أيدي المسلمين ، وسقط كل قادتها وزعماؤها قتلى في المعركة .

وبسقوط خيبر تمت تصفية آخر معقل لليهود في الجزيرة العربية ، (١٤٧) ولم يقم لليهود بعدها اي سلطان في الجزيرة العربية حتى اليوم ولن يقوم إلى يوم القيامة إن شاء الله .

بقي موضوع يحتاج الى شيء من الايضاح في هذا التحليل ، وهو موقف التكاسل الذي وقفته من معركة الأحزاب ، قبائل غطفان النجدية (وهي التي تشكل الأغلبية في حشود هذا الغزو) .

فأثناء استعراضنا لجميع أدوار المعركة لم نر لأي من رجال غطفان (قادةً وجنوداً) أيَّ نشاط حربي ضد المسلمين في هذه المعركة .

فكل الذين قاموا بقفز الخندق بخيلهم هم من قريش وليس

---

(١٤٧) سيكون موضوع كتابنا الخامس من هذه السلسلة هو غزوة (خيبر) ان شاء الله .

بينهم غطفاني واحد ، كما ان كل القادة الذين تولوا (بالتناوب) عملية إرهـاب المسلمين وازعاجهم بالطواف بكتائبهم حول الخندق (ليلاً نهاراً) هم من قريش فقط ، وليس بينهم قائد غطفاني واحد، كما أن التاريخ لم يذكر أنه كان ضمن جنود هؤلاء القادة القرشيين جندي غطفاني واحد .

فما هو السبب في هذا الموقف المتكاسل الذي وقفته قبائل غطفان في هذه الغزوة الكبيرة .

السبب الرئيسي

الذي يظهر لنا أن هناك سبباً رئيسياً واحداً ؛ وهو أن قيادة غطفان قد يئست (بعد حفر الخندق) من احتلال المدينة إلا بعد تضحيات جسيمة باهظة .

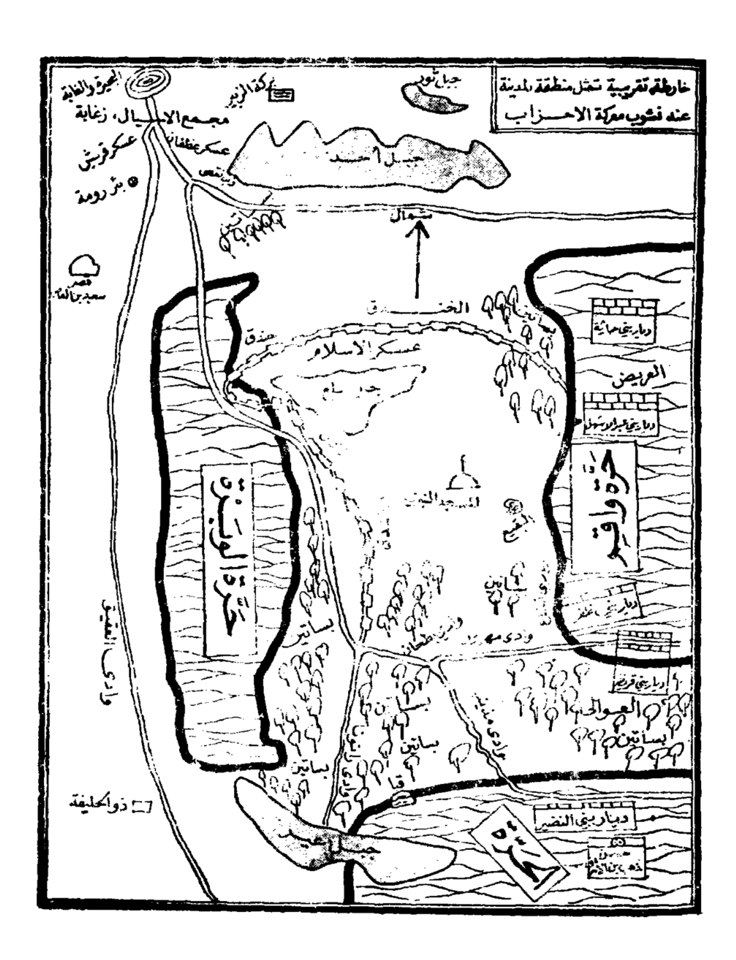
وما كانت غطفان تحمل عقيدة صافية تصلها بالله ، تستعذب الموت في سبيلها ، وتؤمن بأن القتل تحت لوائها شهادة ترتفع بقتلاها الى درجة الصدّيقين والشهداء ، حتى تخاطر بأرواحها فتقتحم الخندق غير مبالية بما يصيبها من قتل وجرح كما هو الحال عند المسلمين .

بل لم تكن غطفان – على ما يظهر – تحمل للمسلمين ذلك العداء العقائدي المرير المتأصل الذي تحمله يهود وقريش ، وإنما كل رجال غطفان أعراب خلّص لا يعرفون للغزوات والحروب معنى ، إلاّ أنها وسيلة (فقط) للنهب والسلب والحصول على

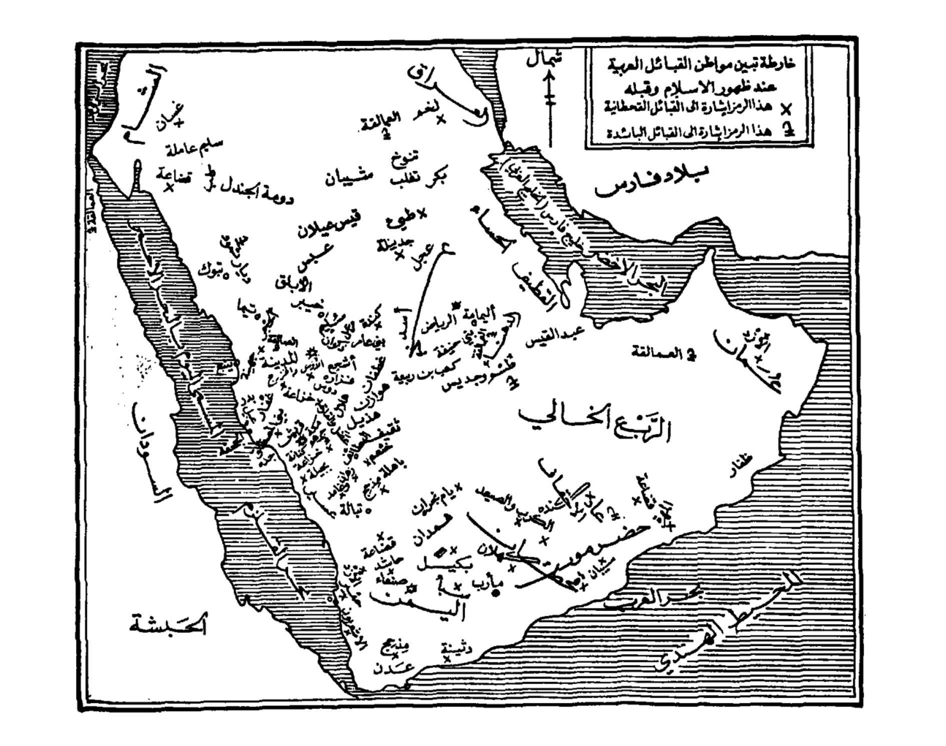
المغنم المادي بأقل خسارة ممكنة ، الأمر الذي كــان أعراب غطفـــان يمنّون النفس بالوصول اليه عندما تحركت جموعهم الغفيرة من مضاربها في صحارى نجد للمشاركة في غزو المدينة .

وحيث أن هذه المكيدة الحربية العظيمة التي ما كان العرب يكيدونها (وهي الخندق) قد جعلت من المستحيل على هؤلاء الأعراب الحصول على المغنم بالطريقة التي ألفوها في حروبهم المكشوفة الخاطفة التي لا تستغرق إلا ساعات قلائل وبصورة مفاجئة ، ورأوا أن احتلال المدينة التي يحلمون بغنائمها ، لن يكون (إذا ما نجحوا فيه) إلاّ بعد مغامرة خطيرة يكلفّهم الاقدام عليها مئات القتلى مما يجعل المغنم الذي قد يحصلون عليه يلاشي (في حسابهم المادي) أمام هذه التضحيات الجسام التي يبذلونها من الرجال للوصول الى هذا المغنم المادي ، فانهم آثروا السلامة على المغنم المحفوف بكل هذه المخاطر الجسام ..

فمن هنا (والله أعلم) جاء إحجامهم عن القيام بأي عمل حربي يعرّض أرواحهم للخطر في هذا الغزو الكبير الذي ما شاركوا فيه إلاّ للحصول على الغنائم والغنائم فقط ، وحيث أن هذا أصبح مستحيلاً بعد حفر الخندق ، فلا داعي لأن يتعرض هؤلاء الاعراب للقتل او الجرح ، وهذا أمر يتفق (تماماً) مع منطق الأهداف الصغيرة الضيقة المحدودة التي جاء هؤلاء الأعراب لتحقيقها ...



خارطة تقريبية تمثل منطقة المدينة
عند نشوب معركة الاحــزاب
جبل ثور
بركة الزبير
البحرة والغابة
مجمع الاسيال، زغابة
عسكر غطفان
عسكر قريش
بئر رومة
جبل أحــد
شمال
قصر سعيد بن العاص
الخنـــدق
خندق
عسكر الاسلام
العريض
ديار بني حارثة
ديار بني عبد الاشهل
حرة واقم
المسجد النبوي
البقيع
بساتين
وادي مهزور
ديار بني ظفر
ديار بني قريظة
العوالي
بساتين
وادي العقيق
ذو الحليفة
جبل عير
ديار بني النضير


خارطة تبين مواطن القبائل العربية
عند ظهور الاسلام وقبله
هذا الرمز إشارة الى القبائل القحطانية
هذا الرمز إشارة الى القبائل البائدة
شمال
العراق
لخم
العمالقة
تنوخ
بكر تغلب
شيبان
بلاد فارس
الشام
غسان
سليم عاملة
قضاعة
دومة الجندل
طيء
قيس عيلان
جديلة
عجل
عبس
الاحساء
القطيف
البحر الاحمر
الابلق
خيبر
تيماء
تبوك
اليمامة
الرياض
عبد القيس
العمالقة
عمان
الازد
كعب بن ربيعة
طسم وجديس
الربع الخالي
هوازن
هذيل
ثقيف
خثعم
باهلة
مذحج
تبالة
يام نجران
همدان
قضاعة
حاشد
بكيل
صنعاء
مأرب
اليمن
حضرموت
كهلان
الصيعر
ظفار
عدن
مذحج
وثينة
بحر العرب
المحيط الهندي
السودان
الحبشة

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ك)

فهرست الموضوعات

للمؤلف

سلسلة من معارك الاسلام الفاصلة صدر منها :

١ - غزوة بدر الكبرى
٢ - غزوة أحد
٣ - غزوة الأحزاب
٤ - غزوة بني قريظة
٥ - صلح الحديبية
٦ - غزوة خيبر
٧ - غزوة مؤتة
٨ - فتح مكة
٩ - غزوة حنين
١٠ غزوة تبوك

كتب اخرى للمؤلف

العرب في الشام قبل الاسلام
الاسلام ونظرية دارون
لا يا فتاة الحجاز

